أتّفيانو بُون

سَراي السّلطان



ترجمة: زيد عيد الرَّواضية

أتّفيانو بُون

سَفيرُ جمهوريّة البُنْدقيّة في إسطنبول

(1604 - 1608م)

سَراي السّلطان



ترجمة

زيد عيد الرّواضية

مراجعة

د. عزالدين عناية

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

DR486 .B512 2014

Bon, Ottaviano, 1552-1623.

[Seraglio del Turco]

سراي السلطان / أتفيانو بون ؛ دراسة و تحقيق وترجمة زيد عيد الرواضية.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.

ص. 213 ؛ 14×21 سم.

تدمك: 9-306-17-9948-978

1–تركيا–تاريخ–العصر العثماني. 2–تركيا–الأحوال السياسية.

أ–رواضية، زيد عيد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الايطالي:

Ottaviano Bon, *Seraglio del Turco*, Biblioteca del Museo Correr, n. 292 Correr, Venezia - Italia.

كلمة KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

سَراي السّلطان

فهرس المحتويات

المقدمة

شكّلت فتوحاتُ الدولة العثمانية، واتّساعُ رقعتها الجغرافيّة، واقترابُها من العُمق الأوروبي، وتعاظمُ ثقلها السّياسيّ بدايةً لنشوء علاقاتها مع العالم الخارجيّ، لا سيّما دول أوروبا التي بدأتْ ترى في الدولةِ العثمانيةِ قوّةً لا يمكنُ تجاهلها وخطراً يهدّدُ مصالحها وسيادتها.

ويلحظ الباحث في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية تقلّبَ هذه العلاقات وتبدُّلها، من أحوال الصَّفاء والودّ والتَّحالف والسّلم، إلى التَّوتر والعداء والخصومة والحرب، إذ كان يضبطُ شكلَ هذا العلاقات عواملُ القوّة والضَّعف ومنظومة المصالح المشتركة؛ فلمّا كانت الدولة العثمانية في أوج قوَّتها وتصاعد نجمها، جهدت دول أوروبا لخطْب ودّ العثمانيين ومحالفتهم والاستعانة بهم على الخصوم، فأمنت بذلك جانبَ الدولة «العَلِيَّة». وتطوّرت هذه الرَّوابطُ إلى تحالفاتٍ سياسيّة ومعاهداتٍ، حصلت بموجبها بعض دول أوروبا كفرنسا والبندقية على امتيازاتٍ تجاريَّة وسياسيَّة لدى الدولة العثمانية. أمّا في فترات الضَّعف والتَّقهقُر فقد كانت تلك الدّول، لا تتردَّد في الانقلاب على الدولة ونقض المواثيق والعهود والتَّحالف ضدها.

لم يكنِ الاحتكاك الأوروبي بالدولة العثمانية وديّاً في بداياتهِ الأولى، فقد كان احتكاكاً مشحوناً بروحٍ عدائيّةٍ تجاه هذه القوّة الصَّاعدة، التي بدأت بفتح المدن وإقامةِ الثّغور والتَّوغُّل في العُمق الأوروبي أكثر فأكثر، مما جعل التّصدِّي لهذا التّقدُّم مسألةً قوميَّةً ومصيريَّةً، بالنسبةِ إلى الممالك الأوروبية آنذاك، لذا كانت الكنيسة الكاثوليكية ممثَّلةً بالبابا تحرّض على الحرب ضد المدّ العثمانيّ، وتستنهضُ هِمَمَ ملوك أوروبا للتَّحالف والذوْد عن حمى الدِّيار المسيحيَّة، فنشبت الحروب، وكان هذا الصّدام الأول مع الأتْرَاك بدايةً

للاحتكاك وممّهداً لنشوء الوعي الأوروبي بقوّة الدولة ومنعتها.

وشكّلَ فتح القسطنطينية في مايو سنة 1453م على يدِ السلطان محمد الفاتح (1444–1481م)، منعطفاً تاريخياً هاماً في دورة حياة الدولة العثمانية، فقد تناهت أخبار هذا الفتح إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتنبّهت الدّول المجاورة إلى عِظَم شأن العثمانيين، كما عزّزَ من ثقةِ العثمانيين بأنفسهم، فتوالتِ الفتوحات واضطرّت بعض البلاد لدفع الجزية، حتّى تأمنَ جانب الدولة وتحفظَ سيادتها على أراضيها.

وفي أعقاب فتح القسطنطينية نشبت نزاعاتٌ مع البندقية، واستولى العثمانيّون على بعض الجزر اليونانيّة الواقعة تحت حكم البنادقة الذين استعانوا ببابا روما وأمير نابولي من أجل استعادتها ولكن دون جدوى. واستمرّ العثمانيون في تجريد البنادقة من البلاد الواقعة تحت حكمهم؛ ففي سنة 1477م أغار السلطان محمد الفاتح على بلادهم، فخشي البنادقة على عاصمتهم، وأبرموا الصُّلح معه تاركين له مدينة كرويا[1]، فاحتلها السلطان وطالبهم بمدينةِ أشقورده[2]. ولمّا رفضوا التّنازل عنها حاصرها مدّة من الزمن، ثمّ تحوّل

(1) تقعُ مدينة كرويا (Krujë) في شمال ألبانيا، وكانت تُعرف عند العثمانيين رسمياً باسم (آق حصار)، وشغلت المدينةُ المركزَ الرئيس للولاية، وشهدت خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين اندلاع ثورات ضد العثمانيين بسبب فرضهم ضرائب جديدة على السكان. وخلال عصيان عام 1912م الذي قاد إلى إعلان استقلال ألبانيا كانت المدينة واحدة من أهم المراكز النشطة ضد العثمانيين. انظر:

F. De Jong, «Krujë», *Encyclopedia of Islam*, edited by C.E. Bosworth et. al., vol 5 (Leiden: Brill 1980), p. 284-285.

(2) تقع مدينةُ أشقورده أو شكودر (Shkodër) في الشمال الشرقي لألبانيا، وكانت المدينة أول عاصمة للإيليريين (Illyrians) حتى سقوطها تحت حكم الرومان سنة 168 قبل الميلاد. تعاقب على حكم المدينة البيزنطيون والبلغار والصرب والأتراك وصارت تحت حكم البنادقة سنة 1396م، الذين تنازلوا عنها للعثمانيين سنة 1479م. استقلت أشقورده سنة 1760م وأعاد العثمانيون سيطرتهم عليها سنة 1831م، واحتلها النمساويون خلال الحرب العالمية الأولى، ثمّ ضمت إلى ألبانيا سنة 1921م، ويشكل الكاثوليك نصف سكان المدينة وفيها أقلية مسلمة متأصلة. انظر:

Shkodër, *Encyclopedia Britannica*, Micropedia, vol. 9, (U.S.A: W. Benton 1979), p. 158.

عنها وفتح ما كان حولها من البلاد التّابعة للبندقيَّة، حتى صارت أشقورده منفصلة كليّاً عن باقي بلاد البنادقة، وعندئذٍ أبرموا الصُّلحَ مع السلطان، وأُمضيتْ معاهدةٌ سنة 1479م، يتنازلُ البنادقةُ بموجبها عن أشقورده مقابل امتيازات تجاريَّة. وكانت هذه أوَّل خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخُّل في شؤون أوروبا؛ إذ كانت جمهورية البندقيّة آنذاك أهمّ دول أوروبا لا سيَّما في التجارة البحريّة، وفي العام التالي فُتحت الجزر الواقعة بين اليونان والبندقية، كما فُتحت مدينة أوترانتو[1] الإيطالية[2].

وتشير المصادر التّاريخيّة إلى أن علاقات الدولة العثمانية الرّسمية مع أوروبا بدأت في عهدِ بايزيد الثّاني (1481–1512م)، حيث بدأت الاتِّصالات بين الدولة والبابا إسكندر السادس وملك نابولي ودوق ميلانو وجمهوريّة فلورنسا، إلّا أن هذه الأطراف تسبَّبت في الإيقاع بين العثمانيين والبنادقة، فنشبت الحربُ، وتمكّن العثمانيون من فتح مدينة ليبانتو[3] وثغور أخرى تابعةً للبنادقة، غير أن التّوغّلَ العثمانيّ تراجعَ بسبب نصرةِ البابا وملك فرنسا

(1) تقعُ مدينة أوترانتو (Otranto) في أقليم بوليا (Puglia) في الجنوب الشرقي من إيطاليا، وهي ميناء بحري قديم وحلقة وصل هامة مع اليونان، وكانت المدينة قد شهدت قديماً نشاطاً تجارياً لوقوعها على ممر أوترانتو الذي يصل البحر الأدرياتيكي بالبحر الأيوني. تعرضت للخراب حين سيطر عليها الأتراك سنة 1480م، وتشتهرُ المدينة اليوم بالزراعة وصيد الأسماك. انظر:

Otranto, *Encyclopedia Americana*, vol. 21, (U.S.A: Grolier Inc 1989), p. 125.

(2) المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العَلِيّة العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت 1981م، ص: 174–176.

(3) ليبانتو (Lepanto) هو الاسم الإيطاليّ الذي كان يُطلق على مدينة نافباكتوس (Nafpaktos) اليونانية في العصور الوسطى، وأطلقَ عليها العثمانيّون اسمَ «إينا بَخْتى»، وتقعُ في لوكرس (Locris) القديمة، شمال المضيق الممتد من البحر الأيوني باتجاه خليج كورنث (Corinth)، وقد شهدت المدينة معركة ليبانتو الشهيرة التي خاضتها الدولة العثمانية ضد تحالف الفاتيكان وإسبانيا والبندقية وفرسان مالطا في أكتوبر من عام 1571م وأسفرت عن هزيمة الأسطول العثماني وإنهاء سيطرته لفترة من الزمن على البحر الأبيض المتوسط. لمزيد التوضيح انظر:

J. H. Kramers, «Lepanto», *Encyclopedia of Islam*, edited by M. Th. Houtsma et. al., vol 3 (Leiden: Brill 1936), p. 22-23.

للبندقيّة، إضافة إلى الاضطرابات التي مُنِيَ بها البيت العثمانيّ في الداخل، فاضطرَّتِ الدولة إلى إبرام صُلح مع البندقية سنة 1502م.

ويبدو أن البنادقة والإيطاليّين عموماً كانوا السبّاقين في إقامة علاقات مع العثمانيين؛ فقد وجدوا طريقهم إلى المنطقة قبل ظهور العثمانيين، وكان تجار البندقيَّة وجنوة وبيزا (Pisa) هم أوّل الأوروبيين الذين استقرَّت مصالحهم وتجارتهم في المشرق الإسلاميّ وفي البلاد الخاضعة للإمبراطورية الرومانيّة الشرقيّة، وقد أفادَ العثمانيّون من خبراتهم بعد فتحهم القسطنطينية؛ فقد استعانَ محمد الفاتح بالجنويّين الذين كانوا يقيمون في حي «غلطة» (Galata)، في بناء وتعزيز الأسطول العثمانيّ الذي ظهر أصلاً لدحرِ البنادقة، ولهذا فإنَّ الكثير من المصطلحات البحريّة العثمانية هي إيطاليَّة الأصل[1].

كانت المصالح التجاريّة العامل الأول الذي تُعزَى إليه بداية العلاقات الرَّسميّة العثمانية مع جمهوريّة البندقية، وإن كانت سبقتها في ذلك جنوة (Genova) التي كانت روابطها متطورة إلى حدٍّ بعيد مع العثمانيين، ولعل مردّ ذلك أن الجنويّين كانوا براغماتيين، وكانوا معنيّين بالدرجة الأولى بالمحافظة على تجارتهم في الشرق، وليس المشاركة في تحالف مسيحيّ مُناهض للأتراك كما كان يريد البنادقة؛ فقد أقام الجنويون علاقاتٍ وثيقة مع الأتْرَاك منذ عام 1311م، ومن المؤكَّدِ أنهم قد عقدوا معاهدات مع العثمانيين سنة 1351م، كما أبرموا معاهدةً مع السلطان مراد الأوّل سنة 1387م، وكذلك سنة 1389م، وهناك ما يشير إلى اتفاقيَّات أخرى وقَّعها الجنويّون سنة 1403م، وقد شاركت البندقية في توقيع هذه الاتفاقيّات[2].

ويمتدُّ عمر العلاقات العثمانية مع جمهوريّة البندقية قرابة خمسة قرون؛

---

(1) انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب**، 1، ص: 139–141.

(2) فليت (كات)، **التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية**، تعريب أيمن الأرمنازي، ط1، العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2004م، ص: 30–32.

سببه نشاط كلا الطّرفين في السّاحل الشَّرقيّ للبحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى العامل الجغرافيّ من حيث قرب الثُّغور العُثمانيّة من البلاد الواقعة تحت حكم البنادقة.

وكانت تجارة البنادقة قد وجدت طريقها منذ القدم في الشّرق، فخلال القرون التي تميّزت بضعف الإمبراطورية الرومانيّة الشَّرقيّة، برزت جمهوريّة البندقية كقوّة تجاريّة أوروبية مهيمنة في شرقي البحر الأبيض المتوسط، كما أنها ظهرت كلاعب سياسيّ وعسكريّ مهمّ، من خلال المستعمرات والقواعد العسكريّة التابعة لها في دلماسيا (Dalmazia) وبحر إيجه والبحر الأيوني، فتولّى العثمانيّون لعب دور الشَّريك والخصم للبنادقة بعد سقوط بيزنطة؛ فمنذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وبسبب وقوع الأراضي الشَّرقيّة للبنادقة في طريق المدّ العثمانيّ، بدأ التوسُّع العثمانيّ يتسبّبُ في تورُّط اقتصادي وسياسيّ هام لكلا الجانبين[1]، ولهذا فمن الواضح أن المصالح التجاريّة والبُعد الجغرافيّ كان لهما الفضل، في التَّأسيس لهذه العلاقة التي تميّزت عبر التّاريخ بعمليّات مدّ وجزرٍ.

لقد أدرك صُنَّاع القرار السياسيّ في البندقية أن حيويّة بلادهم الاقتصاديّة والسياسية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، بقدرتهم على الحفاظ على علاقات جيِّدة مع العثمانيين المهيْمنين على البحر الأبيض المتوسّط[2]. وبرغم الحروب التي جمعت الطرفين في فتراتٍ مختلفة، فقد ظلّت الرَّوابط مع البندقية أمتنَ من البلاد المسيحيّة الأخرى؛ فقد كان الأثرياء من العثمانيين يستوردون القماش والأواني الزُّجاجيّة التي اشتهرت بها البندقية، وكان العثمانيّون من غير

(1) Dursteler, Eric. R (2006), *Venetians in Constantinople, Nation, Identity, and Coexistence in the Early Modern Mediterranean*, the Johns Hopkins University Press, Maryland, 3.

(2) Ibid, p. 5.

المسلمين يتحصّلون على الكتب المطبوعة في اليونان، بجهود البنادقة خلال القرن السادس عشر الميلادي[1]. وفي المقابل كان التجار البنادقة يشترون القطنَ من سوريا وقبرص لأجل بيعه في أوروبا الوسطى، وقد أسهم سُفراء بلادهم في حصولهم على امتيازاتٍ يسّرت لهم حريَّةَ الاتّجار والحركة على أرض الإمبراطورية العثمانية[2].

ولعلَّ أولى الامتيازات القنصلية هي التي مُنحت لجمهوريّة البندقية سنة 1521م، حيث أُبرمت معاهدةٌ تقضي بتغيير قنصل البندقية في إسطنبول كلّ ثلاث سنوات، وأن يتولّى النظرَ في قضايا التركات، وأن يكون له الحقّ في إرسال تُرْجمان لحضور المرافعة التي تُقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية، ولهذه المعاهدة أهميّة عظمى لأنها أساس الامتيازات القنصلية في الدولة العثمانية[3].

لقد كانت الدولةُ العثمانية في أوج قوّتها زمنَ السلطان سليمان القانونيّ (1520 1566م)، وقد اتَّفق أن كانت فرنسا في ذلك الوقت عُرضةً لتهديد شارل الخامس المعروف بشارلكان، والذي كان ملكهُ يحيطُ بفرنسا منْ جميع الجهات ما عدا البحر. ولم يبقَ أملٌ للفرنسيّين إلا بالالتجاء إلى العثمانيين، لأن السلطان سليمان لم يكن يجد في أوروبا من يقاومه غير الإمبراطور شارلكان، فكان من الطبيعيّ أن تتَّفق فرنسا مع السّلطان العثمانيّ

(1) يعودُ الفضلُ في حركة توريد الكتب إلى الدولة العثمانية لاثنينِ من تجار البندقية هما برانتون (Branton) وأوراتسيو بانديني (Orazio Bandini) حيث تمكّنا من استصدار فرمان من السلطان مراد الثالث أواخر سنة 1588م يجيزُ استيراد الكتب المطبوعة. انظر:

Günay Alpay Kut, «Matba'a», *Encyclopedia of Islam*, edited by C.E. Bosworth et. al., vol 6 (Leiden: Brill 1990), p. 799

(2) لمزيد التوضيح حول هذا الموضوع راجع:

Faroqhi, Suraiya (2004), *The Ottoman Empire and the World Around it*, London, I.B. Tauris. pp. 140-142.

(3) المحامي، **تاريخ الدولة العليّة**، ص: 202.

عدوّ عدوِّها، وقد رأى ملك فرنسا فرنسوا الأول في الدولة العثمانية حليفاً قوياً، فأرسل سفيره إلى الأستانة أواخر سنة 1525م حاملاً رسالة إلى السلطان يطلبُ منه مهاجمةَ ملك المجر لويس الثاني، أحد حلفاء شارلكان، فاستجاب السّلطان لطلبه في رسالةٍ مشهورةٍ ذكرَ فيها جميع ألقابهِ السلطانية، وأخبره استعداده للمساعدة. وفي أبريل من عام 1526م سار السلطان على رأس جيش عظيم وهاجم المجريّين الذين لم يصمدوا أمام ضربات المدفعيَّة الضخمة، فسقطتِ البلادُ ودخل السلطان بودابست في أوائل سبتمبر من عام 1526م[1].

وفي فبراير من عام 1536م أُبرم الاتّفاق بين فرنسا والباب العالي ومُنِحت بعض الامتيازات للرعايا الفرنسيّين المقيمين في البلاد الخاضعة للدولة العثمانية، فتوثقت الرَّوابط بين البلدين، وقد كان التَّحالف الفرنسيّ العثمانيّ يقضي بأن تجعل الدولة العثمانية وجهة حروبها بلاد نابولي وجزيرة صقليّة وإسبانيا، بينما تدخلُ جيوش فرنسا بلاد إيطاليا من جهة إقليم بيمونتي (Piemonte) بشمال غرب إيطاليا، ولكن عدم انضمام جمهوريّة البندقية إلى هذا التَّحالف، وإظهارها العدوان له، كان سبباً في فشل هذه الترتيبات، وساعد على ذلك هَيَجان الرأي العام المسيحيّ ضد التَّحالف الفرنسيّ العثمانيّ. وهنا توتَّرت العلاقات مع جمهوريّة البندقية، وأراد السلطان أن ينتقمَ من البنادقة، فهاجم البلاد الخاضعة لسيطرتهم، وجمع في بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) جيشاً عظيماً لمهاجمة بلاد إيطاليا، وأنزل جيشاً بقيادة خيرالدّين باشا بميناء أوترانتو بجنوب إيطاليا استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يُهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق، وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن إحجام فرنسا عن التقدُّم خضوعاً للرأي العام أدَّى إلى

---

(1) شكيب أرسلان، **تاريخ الدولة العثمانية**، تحقيق حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير ودار التربية، دمشق–بيروت 2001م، ص: 153–154.

عدم نجاح هذا المشروع، وانتهى الأمر بأن تهادنَ ملك فرنسا مع الإمبراطور شارلكان. أما من جهة البندقية فاستمرّت الحرب بينها وبين الدولة العثمانية سجالاً انتهت بالصُّلح أواخر سنة 1538م[1].

وبعد نحو ثلاثةِ عقودٍ من الزمان، وقعتْ معركةُ ليبانتو الشهيرة، وذلك سنة 1571م، والتي مُني فيها الأسطول العُثمانيّ بالهزيمة أمام التَّحالف الأوروبي، وتحظى هذه المعركة بأهميّة كبيرة في الأدبيّات الإيطالية التي تناولت علاقة البنادقة بالدولة العثمانية، وقد مهّدت لها ظروفٌ جعلت كلاًّ من الكرسي الرَّسوليّ والبندقية وإسبانيا وفرسان مالطا، يتَّحدون لمواجهة العثمانيين وإنهاء سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط.

جاءت معركة ليبانتو بعد عام واحد من استيلاء الدولة العثمانية على جزيرة قبرص، التي كانت آنذاك واقعة تحت حكم البندقية. فاتَّفق الأوروبيون على محاربة العثمانيين بحراً، وجمعوا مراكبهم تحت إمرة دون جوان[2]، وسارت سفنُ الأوروبيين إلى شواطئ الدولة، والتقى الجمعان بالقرب من ليبانتو، واستمرَّ القتال ثلاث ساعاتٍ متتالية انتهى الأمر بعدها بهزيمة العثمانيين. وتُعدُّ هذه أوّل واقعة حصلت بين الدولة العثمانية، من جهة، وأكثر من دولتين مسيحيّتين من جهةٍ أخرى[3]، وقد كان لهذه المعركة عظيمُ الأثر في نفوس الأوروبيين آنذاك، فعمَّ الفرح واستبشرت الشعوب بهذا النَّصر، وما

(1) المحامي، **تاريخ الدولة العليّة**، ص: 223–235.

(2) دون جوان (Don John of Austria) هو الابن غير الشرعي لشارل الخامس المعروف بشارلكان، وُلدَ في مدينة ريغنسبورغ (Regensburg) سنة 1545م، وفي أواخر سنة 1559م اعترفَ به ملكُ إسبانيا فيليب الثاني كفردٍ من أفراد العائلة الملكيّة. وبرغم أنه كان مُهيَّأً ليصبح راهباً إلا أنه فضّل الانخراط في الجيش، حيث تولّى قيادة الأسطول البحري في عدة حملات، إلا أنه نال نصيبه الأعظم من الشهرة بعد انتصار أسطول القوى المسيحيّة الذي كان يتولى قيادته ضدّ القوّات العثمانية في معركة ليبانتو. توفي أواخر سنة 1578م إثر إصابته بالحمّى. انظر:
John, Don, *Encyclopedia Britannica* vol. 13, (U.S.A: W. Benton 1966), p. 92-93.

(3) المحامي، **تاريخ الدولة العليّة**، ص: 257.

زال الإيطاليّون، إلى وقت قريب يحتفلون بذكرى هذه المعركةِ، ولا تكادُ مدينةٌ من مدنِ إيطاليا اليومَ تخلو من شارعٍ أطلق عليهِ اسم ليبانتو تخليداً لهذا النَّصر، وفي المقابل لا تسهب الحوليّاتُ العثمانيةُ في ذكر تفاصيلِ الحادثة، رغبةً من المؤرِّخ العثمانيّ في عدم تخليد هزيمةِ بلاده في فترةٍ كانت فيها الإمبراطورية العُثمانيّة في أوجِ قوّتها وازدهارها[1].

وقد أثبتت هذه المعركةُ تفوّقَ القوى الأوروبية في الحروب البحريّة، وقد سبق وكان الصدر الأعظم لطفي باشا قد أثار هذه المسألة في الأيام الأخيرة من حياة السلطان سليم الأول (1512–1520م). ولمَّا اعْتلى ابنه سليمان القانونيّ العرشَ أعاد لطفي باشا تأكيدَ أهميّة القوّة البحريّة في الجسم العسكريّ العثمانيّ، ونبَّه إلى أن الولاية على البحر لا تقلّ أهميّةً عن الولاية على البرّ، وأن ازدهار إسطنبول مرتبطٌ بالأمن البحريّ، وجاءت معركة ليبانتو لتؤكِّد مخاوفَ الصدر الأعظم التي عبّر عنها قبل وقوعها بنصف قرن من الزمان.

وفي حين أن المعركة تُعرف في الأدبيَّات الأوروبية باسم ليبانتو نسبةً إلى الموضع اليوناني الذي جرت فيه أحداثها، فإنَّها تُعرفُ في المصادر التاريخيّة التركيّة باسم «صنغن» (Sıngın) أي الانكسار أو الهزيمة السَّاحقة[2].

وبرغم ما جرّته الهزيمة من مرارة على العثمانيين إلّا أنها لم تُقعدْ همّتهم ولم تُثبّط طويلاً من عزيمتهم؛ فانتهز الوزيرُ محمد باشا صوقللي[3] فرصة الشّتاء

(1) ولعلَّ أوفى ما كتب عن معركة ليبانتو في المصادر العثمانية ما دوَّنه الجغرافي والمؤرخ كاتب جلبي (ت 1068هـ/ 1657م)، لمزيد التوضيح انظر: جلبي (كاتب)، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، دار الطباعة المعمورة، القسطنطينية 1729م، باب «سفر صنغن دوننما».

(2) انظر:

Lewis, Bernard (1982), *The Muslim Discovery of Europe*, London, p. 43

(3) يُعدُّ محمد باشا صوقللي الملقَّب بالطويل واحداً من أشهر مَن تولّى منصب الصّدارة العظمى في الدولة العثمانية. ولد في قرية صوقل في البوسنة في السّنوات الأولى من القرن السادس عشر، وانتزع من والديه وفقَ نظام الدفشرمة في الأعوام الأولى لحكم السلطان سليمان القانوني، وقد خوَّلته قدراته الكبيرة أن يتبوَّأ مناصب هامَّة في القصر السلطاني إلى أن أصبح في رتبة قابوجي =

وعدم إمكان استمرار الحرب لتشييد الأسطول العثمانيّ وتجهيزه وتسليحه، فتمَّ بحلول صيف عام 1572م بناءُ مئتين وخمسين سفينةً جديدة(1)، وحصل شقاق بين قائد البحريّة البندقيّ والإسبانيّ، وسعت البندقية إلى التقرُّب من الدولة العثمانية، فعرضت عليها الصُّلح، واستمرَّت بينهما الاتّصالات مدَّةً من الزمن. وفي مارس من عام 1573م تمَّ الصلح بين الطَّرفيْن، وتنازل البنادقةُ عن قبرص ودفعوا للعثمانيين غرامةً حربيّةً(2)، وبذلك تجاوز العثمانيّون آثار هزيمةِ ليبانتو بعزم وإصرار كبيرين.

ويعدُّ الرُّبع الأخير من القرن السّابع عشر مفصلياً في علاقة الإمبراطورية العثمانية مع أوروبا، بما في ذلك جمهوريّة البندقية، فقد ارتدَّتِ الجيوش العثمانية عن أسوار فيينا في حصارها الثاني لها أواخر عام 1683م(3)، وأعْقبَ

= كخياسي وبقي في هذا المنصب وقتاً طويلاً، ترك صوقللي القصرَ سنة 1546م ليصبحَ في رتبة قبودان باشي، وعُين بعد ذلك في منصب بكلربيك الروملي، وخلال تلك الفترة شارك في العديد من الحملات العسكريّة ورافقَ السلطان سليمان في حملته على فارس، وبعد ذلك رُقّي إلى رتبة وزير ثالث، ثم وزير ثانٍ إلى أن عُيِّن أخيراً صدراً أعظمَ للسلطان سليمان القانوني قبل نحو سنةٍ من وفاته. وبقي صوقللي في منصبه حتّى وافته المنية سنة 1579م، وبهذا يكون قد لازم الصدارة العظمى خلال حكم ثلاثة سلاطين على التّوالي؛ فتولّى مهامّه صدراً أعظم في الخمسة عشر شهراً الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني وبقي في منصبه طوال فترة حكم السلطان سليم الثاني، واستمرَّ كذلك في الأربعة أعوام الأولى من حكم السلطان مراد الثالث، واعتبرَ صوقللي الحاكم الفعلي للإمبراطورية العثمانية وخاصة خلال حكم السلطان سليم الثاني، وكرَّس معظمَ جهوده للمحافظة على السلم في الخارج وعلى الاستقرار في داخل البيت العثماني، وقد عُرفت عنه المهارة في المفاوضات الدبلوماسية كما عُرف بتدينه ونزاهته. اغتيل أثناء خروجه من الديوان أواخر سنة 1579م بطعنةٍ سدَّدها له شخصٌ كان متنكّراً في زي متسولٍ. انظر:

J. H. Kramers, «Sokolli Muhammad Pasha», *Encyclopedia of Islam*, edited by M. Th. Houtsma et. al., vol 4 (Leiden: Brill 1934), p. 474-475.

(1) وكان عدد السفن التي شاركت في المعركة ثلاثمئةٍ، استولى الأوروبيون على مئة وثلاثين منها وأحرقوا وأغرقوا أربعاً وتسعين انظر:

Lewis, Bernard (1982), *The Muslim Discovery of Europe*, London, p. 43.

(2) المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص: 258.

(3) حاصر العثمانيون مدينةَ فيينّا أول مرةٍ عام 1529م.

هذه الإخفاق هزائم أخرى؛ ففي عام 1686م خسر العثمانيّون مدينة «بودا» في المجر، بعد أن حكمُوها قرناً ونصف القرن من الزمان.

وأتاح انسحاب العثمانيين من فيينا فُرصاً جديدة للأوروبيين؛ ففي عام 1684م قامت النمسا والبندقية وبولندا ودوقيَّة توسكانا ومالطا بتشكيل رابطة مقدَّسة بمباركة من البابا لمحاربة الإمبراطورية العثمانية، وانضمَّت روسيا إلى القوى الكاثوليكية في هذا المسعى الجديد، ودخلت في حروب مع العثمانيين في ظلِّ حُكم القيصر بطرس[1] وقد جنت جمهورية البندقية نصراً سياسياً بدخولها في هذا التَّحالف، وتجلَّت معالم هذا النَّصر في معاهدة كارلوفتس[2] سنة 1699م التي استعاد البنادقة بموجبها مورة (Morea) وأجزاء كبيرة من دلماسيا.

لقد حرصَ العثمانيّون على الإلمام بالشُّؤون الداخلية للبلاد الأوروبيَة عموماً والبندقية على وجهة الخصوص؛ إذ تكشفُ الوثائق الخاصة بجمهوريّة البندقية أن العثمانيين كانوا بارعين في العمل الاستخباراتي؛ فكان الجواسيس الموالون للعثمانيين يزوِّدُون صُنّاع القرار السياسي والعسكريّ العُثمانيّ بمعلومات بالغة الأهميّة عن المواقع الجغرافيّة والقلاع والحصون.

(1) انظر: لويس (برنارد)، **أين الخطأ: التأثير الغربي واستجابة المسلمين** (المقدمة)، ترجمة محمد عناني، تقديم ودراسة رؤوف عباس ط1، دار سطور، القاهرة 2003.

(2) عُقدت معاهدة كارلوفتس (Carlowitz) أواخر يناير من عام 1699م لتنتهي بذلك حالةُ العداء والحرب بين الإمبراطورية العثمانية من ناحيةٍ وتحالف الرابطة المقدسة (النمسا وبولندا والبندقية وروسيا) من ناحية أخرى. وهي المعاهدة التي تخلى بموجبها السلطان العثماني لآل هابسبورغ عن ترانسلفانيا، وعن المجر برمتها عدا طمشوار وعن القسم الأكبر من سلوفينيا وكرواتيا، وأُكره على التنازل للبولنديين عن بودوليا وجنوب أكرانيا، كما تنازل للبنادقة عن مورة وعدد من الأماكن في دلماسيا، وبعد هذه المعاهدة أصبحت الدولة العثمانية مضطرة للتحرك وفق العادات والأعراف الدولية في التجارة والمواصلات البرية والبحرية، والعلاقات الخارجية. لمزيد التوسع انظر: دونالد كواترت، **الدولة العثمانية 1600–1922**، تعريب أيمن الارمنازي، مكتبة العبيكان، الرياض 2004، ص: 93، إلبر اورطايلي، **الخلافة العثمانية، التحديث والحداثة**، ترجمة عبد القادر عبد اللي، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت 2007م، ص: 94.

وتذكرُ الوثائق أسماء بعض ممَّن يُعتقدُ أنهم جواسيس تمّ القبض عليهم أو تعذيبهم وإعدامهم، ولعلَّ أوّلهم شخص يُدعى تانوسين دوكاين (Tanusin Doucaine)، الذي قُبِضَ عليه في مدينة أشقورده سنة 1437م، أي قبل فتح القسطنطينية، وأُرسلَ إلى البندقية ثمّ أُطلقَ سراحه. وتشير المصادر إلى أن جهود البنادقة الاستخباراتيّة في مقاومة التجسُّس العثمانيّ بدأت في السَّنوات القليلة التي سبقت معركة قبرص سنة 1570م؛ ففي يناير من عام 1566م تلقَّى السفير البندقيّ معلومات عن نيّة العثمانيين مهاجمة قبرص، وفي أواخر يوليو من العام نفسه قرّرَ مجلس العشرة (Il Collegio dei Dici) إيجاد وسيلة سريّة للغاية، من أجل القضاء على حياة التركي إبراهيم جرانين (Ibrahim Granatin) الذي جاءَ البندقية جاسوساً للعثمانيين، كما تكشفُ الوثائق عن حالات أخرى لأشخاص، يُعتقد أنهم كانوا مكلَّفين بمهام استخباراتيّة في أوروبا عموماً وفي البندقية على وجه الخصوص[1]. وإن كانت الوثائق العثمانية لا تشير على حدّ علمنا إلى هذا النَّشاط الاستخباراتيّ الخارجيّ[2]؛ إذ يبدو أنه لم تكن هناك فرقة منظَّمة سرّية أو مُعلنة تتولَّى هذه المهمّة، بل إنّ

(1) لمزيد التوضيح حول دور الاستخبارات العثمانية في جمهوريّة البندقية راجع:
Preto, Paolo (2010), *I servizi segreti di Venezia: Spionaggio e controspionaggio ai tempi della Serenissima*, Milano, il Saggiatore S.P.A, pp.95-109.

(2) وأما الأنشطة الاستخباراتيّة السرية في داخل الدولة فأمرٌ معروف؛ فقد شُكّلت فرقةٌ من الجواسيس من الانكشارية سُمّيت سالما تبديل جوقداري (الخادم المتنكر الذي يقوم بجولة التفتيش)، أو بوجيك باشي (بوجك معناها بالتركية الحشرة، لأنهم يتسللون إلى أسرار المجرمين، واصطلاحاً المخبر أو الشرطي السري)، وقد كانوا يستعملون النساء في أعمال التجسس، ويروي الكثير عن نجاحهم المطلق في الكشف عن جرائم السرقة ومعرفة مرتكبيها. انظر: جب، هاملتون، وبوين، **المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى**، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق 1997م، 1/ ص: 357. كما يشير أوتفيانو بون في تقريره إلى أن العجم أوغلان كانوا يقومون بمهام سريّة كاغتيال بعضِ كبار رجالات الدولة تحت إمرة البستنجي باشي وبأمرٍ من السلطان. انظر: الورقة 20 أ.

العثمانيين كانوا يَسْتقون معلوماتهم عن العالم الخارجي من أطراف مختلفة، كالرحالة والمبعوثين على قلّتهم في القرون الأولى، ومن خلال الرعايا الأجانب المقيمين في الدولة العثمانية، وبخاصّة اليهود والمهتدين حديثاً إلى الإسلام، إضافة إلى التُّجار العثمانيين الذين كانوا يسافرون بشكل اعتيادي إلى البندقية، وغيرها من البلدان خلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر الميلاديين.

ومن المعروف أن الإيطاليّين هم أوّل من نقلَ إلى أوروبا المسيحيّةِ الانطباعات الأولى عن المسلمين العثمانيين، فدوَّن الرحالة والمبعوثون وبعض التجار جوانب الحياة السياسية والثّقافيّة العثمانية. وكانت معظم الصُّور النمطية التي شكّلها الأوروبيون عن العالم الإسلاميّ مُسْتقاةً من كتابات الإيطاليّين، نظراً لوفرة هذه الكتابات نسبياً من ناحية، وطبيعة اللغة الإيطالية التي كانت لغةَ تواصلٍ مشتركةً (*Lingua Franca*)[1] للبحرِ الأبيض المتوسط لقرون طويلة من ناحيةٍ أخرى.

وما تزال ذاكرةُ الإيطاليّين الجمعيّة تحتفظُ إلى اليوم بصورة عدائية للأتراك، أعداءِ الدِّينِ والوطنِ، ويلمسُ الدارسُ للُّغة الإيطاليةِ والعارفُ بها رواسبَ هذا العداء، ويأنسُ منابع الجفاء؛ إذ إنَّ الخوفَ الذي كان يبثّه التركيّ في نفوس الإيطاليّين عموماً والبنادقة على وجه الخصوص قد انعكس بكلِّ إسقاطاتهِ على اللُّغة، وذلك من خلال كثيرٍ من المفردات والمصطلحات

(1) يستخدم اللغويّون هذا المصطلح للإشارة إلى اللغة المستخدمة كوسيلةِ تواصل بين شعوب لا تجمعهم لغةٌ واحدة، وأُطلقَ هذا المصطلحُ أول مرة في العصور الوسطى على «اللهجة» الفرنسيّة الإيطالية التي تطوّرت نتيجةً لتفاعل الصليبيين والتجار الأوروبيين في شرقيّ البحر الأبيض المتوسط، واستخدمت في المراسلات الدبلوماسيّة وفي الشؤون التجاريّة وغير ذلك. انظر:
Lingua Franca, *Encyclopedia Britannica, Micropedia*, vol. 6, (U.S.A: W. Benton 1979), p. 241.

المرتبطة بالأتراك، والتي تعبّر عن موقفٍ سلبيٍ معادٍ وتوجُّسٍ شديدٍ[1].

دارتِ الأيامُ، في لحظةٍ من الزمان، على الممالك والجمهوريات الإيطاليَّة، وكادت الجيوشُ العثمانيةُ المتمركزة في جنوب إيطاليا أن تخضعها لسيطرتها زمن السلطان محمد الفاتح، ولعلَّ البنادقةَ هم من استشعروا هذا الخطرَ أكثر من غيرهم، فنجحوا في اغتيال السلطان الفاتح على يد أحد أطبائه من عملاء البندقية، الذي ادَّعى اعتناقه الإسلامَ وتسمَّى باسم يعقوب باشا، ولعلَّ من المفيد هنا أن نشيرَ إلى أن هذا الاغتيالَ تمَّ بعد خمس عشرة محاولةٍ فاشلةٍ رتبتها البندقيَّة للقضاءِ على الإمبراطور العثمانيّ الذي بثَّ الرعب في كلِّ إرجاء أوروبا، وعند نجاح مهمّة الاغتيال وصلت رسالةٌ لسفارة البندقيَّة في إسطنبول تحتوي على هذه الجملة التاريخيّة (*La Grande Aquila è Morta*)، أي «ماتَ النّسر الكبير»[2].

---

(1) لمزيد التوسع حولَ هذا الموضوع راجع:

Preto, Paolo (1975), *Venezia e i Turchi*, Firenze, Sansoni 117-120.

(2) يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول 1988م، ص: 177.

المؤلف

وُلِدَ أُتّفيانو بون (Ottaviano Bon) في مدينةِ البندقيةِ في السَّابع من فبراير سنة 1552م، لعائلةٍ من أعرق عائلات المدينة. كان أبوه أليساندرو دي ألفيزي (Alessandro di Alvise) من رجال السِّياسة في المدينة، إلّا أنه اشتهر باشتغاله في التجارة التي اغتنى منها، وانخرط الابن مبكّراً في صنعة أبيه تاركاً دراسة الآداب التي كان قد بدأها(1).

بدأ بون نشاطهُ التجاري في فترةٍ كان فيها اقتصاد المدينة مُتقلّباً، وذلك بسبب التَّنافسِ الأوروبي الشَّديد في موانئ الشَّرق، نتيجة التوغل السياسي والتجاري الأوروبي عقب الغزو العثمانيّ لقبرص سنة 1570م(2).

وتوفي أبوه سنة 1576م فتولّى أخوهُ فيليب القيام على شؤون التِّجارة وتابع بون دراسته في جامعة بادوا (Padova) حيث تلَّقى دروسَ الفلسفةِ على يد فرانشسكو بيكولوميني (Francesco Piccolomini) وتوسع في تعلم اللغةِ اللاتينيةِ.

وتفاعل بون مع المحيط الجامعيّ، وانخرط في الحراك الثَّقافيّ الذي كانت تعجُّ به مدينة بادوا آنذاك، فتعرَّفَ إلى نخبة من المثقَّفين أمثال لويجي لولينو (Luigi Lollino) ونيكولا كونترايني (Nicolò Contrarini) والأخوين موروزيني (Morosini)، واختلف إلى المجالس الأدبيّة التي كان يعقدها الأساتذة جان فرانشسكو موسّاتو (Gian Francesco Mussato) وسبيروني سبيروني (Sperone Speroni). وتعرَّفَ عن طريق الأخوين موروزيني على ليوناردو دونا (Leonardo Donà) وباولو ساربي (Paolo Sarpi) وجوردانو

(1) M. Pasdera, Bon, *Dizionario Biografico degli Italiani* (1969), Istituto Della Enciclopedia Italiana Fondata da Giovanni Treccani, Roma 11/ p. 421.

(2) Ibid, p. 421.

برونو (Giordano Bruno)، ويقالُ إنَّه تعرَّف أيضاً إلى جليليو جاليلي (Galileo Galilei)[1].

لقد أسهمتِ البيئة الثقافيَّة التي احتضنت أتّفيانو بون في بادوا في تكوُّن شخصيته، فقد كان مُحاطاً بنخبة من الأرستقراطيّين الذين كانوا يحاولون التفاعل، مع التدهور الذي آلت إليه الأوضاع السِّياسية والتجارية في جمهورية البندقيَّة آنذاك، ولعلَّ من الأسباب التي قرَّبته من هذا الوسط الثقافيّ موقفهُ من الدِّين؛ فقد كان بون، برغم اتباعه للكنيسة من النَّاحية العقائديّة، يوجّهُ انتقادات لاذعةً ضد الفساد المستشري وضد السِّياسة البابويَّة، وكان يأملُ في فصل السُّلطة الكهنوتية عن سلطة الدولة.

أُنتخب بون في أواخر مارس من عام 1577م عضواً في مجلس الحكماء (Collegio dei Savi) بالبندقية، وأعيد انتخابه في العام التَّالي، ولمّا كان انتعاش الاقتصاد آنذاك سبباً في زيادة حجم التِّجارة في شمال أوروبا، رأى بون أن يؤسس مع بعض أصدقائه شركةً لتبادل البضائع بين البندقية والسويد، إلا أنه لم يكتب له النجاح طويلاً، بسبب انهيار البنوك الخاصة، إضافة إلى الانحسار المتسارع لتجارة البنادقة في شمال أوروبا، نتيجة المنافسة الحادّة للأسواق الإنجليزية والهولنديّة.

وفي يوليو من عام 1601م، أُوكلتْ لبون مهمّة السفارة في إسبانيا لدى بلاط فيليب الثالث في بلد الوليد (Valladolid)، بهدف حسم الخلافات بين البندقية وملك إسبانيا التي كان سببها الأضرارَ التي لحقتْ بسفن البندقية، وكان المتسبب فيها قراصنةُ حكّام صقلية ونابولي، غير أنه أدرك أن محادثاته لم تُؤْتِ أُكلها، فأبلغ رجال الدولة بفشل مهمتهِ لدى بلاط الملك، وذلك بعد أقلّ من عام من سفارته، ثم عاد إلى البندقية، حيث عُين في مجلس الشيوخ

---

(1) Ibid, p. 421.

في فترةٍ تميّزت بتوتر العلاقات مع الكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن حدّة الخلافات مع إسبانيا خاصّةً بعد فشل مهمّة بون السفاريّة(1).

وفي التّاسع عشر من أبريل سنة 1604م أوكلتْ لأتفيانو بون مهمّة السفارة لدى القسطنطينية بعد جلوس السلطان أحمد الأول (1603–1617م)(2) على العرش، وقد كانت علاقة الدولة العثمانية مع البندقية آنذاك مستقرة إلى حد مّا، إلا أنها ما لبثت أن تدهورت فيما بعد، بسبب تدخلات الكرسي الرسوليّ والنمسا في البحر الأدرياتيكي، من خلال تحريضهما للقراصنة الأُسكوك (Uskok)، مما هدّدَ سيادة البندقية على البحر، وأسهم في تدهور علاقاتها مع الدولة العثمانية التي تضرّرت أيضاً جرَّاء تغول القراصنة(3).

حاولَ بون أن يتوصّل إلى حلٍّ مع العثمانيين بخصوص مسألة الأُسكوك، فاقترح على الدولة العثمانية أن تحمّل النمسا مسؤوليّة الأضرار التي تسببّ فيها القراصنة الغزاة، وفي الوقت نفسه كان بون ينشط بمهارةٍ فائقةٍ في معالجة

(1) Barozzi, Nicolò e Berchet, Guglielmo (1856), *Relazioni degli Stati Europei Lette al Senato dagli Ambasciatori Veneti nel Secolo Decimosettimo*, Venezia, 1/ pp. 217-219.

(2) وُلدَ السلطان أحمد الأول في مدينةِ منيسا في الثامن عشر من أبريل سنة 1590م، وتولّى الحكمَ وعمره لم يتجاوز الرابعة عشرة، ويلاحظُ المؤرخون أنّ السلطان أحمد حين توليه العرشَ لم يقتل أخاه مصطفى خلافاً لما جرت عليه العادة، بل اكتفى بحجزه مع الخدم والجواري. وكان أول أمرٍ قام به السلطان أحمد بعد أن آلت إليه السلطنة أن أرسل إلى القصر القديم جدته صفية سلطان التي تدخلت بشكل كبير في إدارة شؤون البلاد تحت حكم السلطان مراد الثالث والسلطان محمد الثالث. وشهد عهد السلطان أحمد الأول حروباً في الخارج وثوراتٍ وحركات تمردٍ في الداخل، وانتشر في زمنه التبغُ، الذي حرّمه المفتي أول الأمر ثمّ أباحه بسبب هيجان الانكشاريّة. وعرف عنه شغفه الشديد بالصيد، وكان له اهتمام بالشعر أيضاً. وافته المنيةُ في الثاني والعشرين نوفمبر عام 1617م. انظر:

R. Mantran, «Ahmad I», *Encyclopedia of Islam*, edited by R. Gibb et. al., vol 1 (Leiden: Brill 1960), pp. 267-268.

(3) M. Pasdera, Bon, *Dizionario Biografico degli Italiani* (1969), Istituto Della Enciclopedia Italiana Fondata da Giovanni Treccani, Roma 11/ p. 422.

المسائل المتعلّقة بمهمته السفاريّة، فتمكن من إقرار معاهدة الصُّلح بين البندقية والدولة العُثمانية إبّان تولي السلطان أحمد الأول مقاليد الحكم، وبذلك أنجز بون مهمّةً حَمت تجارة البندقية ضد تدخلات اليهود، والأهمّ من ذلك ضد تنافس الإنجليز والهولنديّين(1).

التزم بون موقفاً سياسيّاً وسطياً، مما جعله أقرب إلى التيّارات السياسية الأكثر اعتدالاً؛ لذا، ومن موقعه في القسطنطينية، وقفَ إلى جانب ليوناردو دونا الذي كان قد أصبح دوق البندقية، ودعم مواقفه في الدفاع عن حقوق بلاده، وفي الوقت نفسه سعى إلى التقليل من حدة الخلاف، مع الكرسي الرسوليّ ممثّلاً بالبابا بولس الخامس. لقد أدرك بون أن موقفاً مغايراً لابدَّ أن يجعل العثمانيين يستغلون الظروف، من أجل التحريض على الحرب بين القوى المسيحيَّة، الأمر الذي سيجعل الدولة العثمانية تتفرَّغ لحربها مع النّمسا. ولهذا رفضَ بون عرضاً قدّمتهُ الدولة للتّحالف مع البنادقة، ضد أي حرب مُحتملة تستهدف تحالف الإسبان والكنيسة؛ وذلك لكي لا تتضرّر مساعي الصُّلح مع الكرسي الرسوليّ التي كان بون يرعاها بحماسٍ شديدٍ(2).

وفي أبريل سنة 1616م عُين بون سفيراً فوق العادة لدى فرنسا، وذلك بعد أن قبلت البندقية الوساطة الفرنسية، من أجل استئناف مفاوضات الصُّلح مع ملك إسبانيا. وقد تجدّدت في ذلك الوقت بعض الأعمال العدوانيّة في جنوب البحر الأدرياتيكي من قبل الجيوش الإسبانيّة، وتمَّ الاستيلاء على بعضِ السفن التّابعة للبندقيّة، وهنا قررت جمهوريّة البندقية الردَّ على هذا التصرف المعيب واستعادة السفن بأي ثمن، وأرسلت إلى السّفير بون في باريس تطلب إليه ألاّ يوقع على معاهدة الصُّلح إلاّ بعد إعادة السفن(3).

---

(1) Ibid, p. 422.

(2) Ibid, p. 422.

(3) Barozzi, Nicolò e Berchet, Guglielmo (1856), *Relazioni degli Stati Europei Lette =*

لم يُسرَّ السفير البندقي بقرار بلاده؛ فقد رأى أن حادثة السفن هذه لا تستحق أن تكون عائقاً أمام توقيع المعاهدة، لأنها لا تعدو شيئاً في مقابل المصلحة التي ستجنيها البندقية من هذا الصُّلح، ومن ناحية أخرى، خشي أن يدفعَ تشبُّث البندقية برأيها في هذه المسألة إلى تحالف فرنسا مع الإسبان، ولذا تفرَّد بون برأيِهِ ووقّع على المعاهدة، ثم أرسل يخبر البنادقة بوجهة نظره والأسباب التي دفعته إلى ذلك[1].

لقد رأت البندقية في تصرُّف السَّفير مخالفةً لأوامر بلاده، فاستدعته وأرسلت من ينوب منابه، ورأى البعض وجوب محاكمته، بينما رأى آخرون أن تُحسنَ معاملته، وكان لذلك عظيمُ أثر في نفس السَّفير، فقرّرَ أن يعتزل العمل السّياسيّ ويتفرَّغ لحياتهِ الخاصة في بادوا.

وفي عام 1619م ساهم بسخاء في تأسيس معهدٍ لتعليم الفقراء وهذا ما أكسبه شيئاً من التعاطف وكذلك أسهم في عودته إلى المشهد السّياسيّ، حيث انتخبهُ مجلسُ الشيوخ في الأول من مارس سنة 1622م حاكماً على مدينةِ بادوا، وكان ذلك في أواخر عمره إذ أتى عليه الزمان، ولازمه المرض وعملت فيه الشيخوخة عملها، حتّى توفي في التَّاسع عشر من ديسمبر سنة 1623م[2].

وقد صنّفَ بون كتابين دوَّنهما خلال إقامته في القسطنطينية، أو ربّما عقب انتهاء مهمّته وعودته إلى البندقية، وأفرد أحدهما للحديث عن سراي السلطان وهو هذا الذي ننشره، وتحدّثَ في الثّاني عن أهم أُسس الحكم عند الأتْراك[3].

= *al Senato dagli Ambasciatori Veneti nel Secolo Decimosettimo*, Venezia, 1/ p. 221

(1) Ibid, p. 221.

(2) M. Pasdera, Bon, *Dizionario Biografico degli Italiani* (1969), Istituto Della Enciclopedia Italiana Fondata da Giovanni Treccani, Roma 11/ p. 423

(3) *Relazioni degli stati europei lette al Senato dagli ambasciatori veneti nel secolo decimosettimo*, raccolte ed annotate da N. Barozzi e G. Berchet, Turchia, Vol. Unico, Parte 1, Venezia 1871, p.8

التّعريفُ بالنص

ينتمي النص الذي نحن بصدد دراسته إلى ما يعرف في الآداب الأوروبية بالتقارير السّفاريّة (Relazioni Diplomatiche)، التي كان يقدمها السفير في نهاية مهمته الدبلوماسيّة، كي يطلع رجال الدولة وأعيانها على ما قام به خلال تلك الفترة، وما أنجزهُ من مهام موكلة إليه. ومن الطبيعيّ ألّا تقف هذه التّقارير عند حدّ الحديث السياسي المحض، بل إنّها غالباً ما تتجاوزُ ذلك إلى مواضيع لا تمتُّ بصلةٍ مباشرةٍ إلى السّياسَة، فقد تصف حياة النّاس وطرائق عيشهم وملبسهم ومأكلهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما قد تصف المدن والقرى والمساكن والحدائق والمظاهر المدنيّة على اختلافها، وربّما تسرد أخباراً تدخل في باب العجائب والغرائب، مما لا يألفهُ أو يعرفهُ قارئ تلك التّقارير، بما يجعلُ هذه النُّصوص موضع اهتمام شريحة أكبر من القرّاء، ومن ثم فإنَّ التّقارير السّفاريّة تشكل مادة تاريخيّة وجغرافيّة هامّة قد لا تُوجدُ في كتبِ التّاريخ والجغرافيا المباشرة.

ولعلَّ الفارق بين التّقارير الدبلوماسيّة والرّحلات السّفاريّة يتمثّلُ في أن الأولى، تلتزمُ بذكر تفاصيل المهمّة السّفاريّة الموكلة إلى المبعوث أو السَّفير وتقدّمُ صورة عن شكل المباحثات وحيثياتها، وتشير إلى النتائج التي أفضت إليها السّفارة، وغالباً ما تكون موجّهةً للنخبة السياسيّة، وتُرسلُ على فتراتٍ كلّ أسبوعين بالنّسبة إلى جمهورية البندقية، مثلاً لأجل اطلاع النُّخبة السياسيّة على سير أعمال البعثة السفاريّة، ومدّهم بالمعلومات الضروريّة التي قد تمسّ السياسة الدَّوليّة. أما الرَّحلات السفاريّة فإنّها قد تتجاوز الأخبار السياسيَّة والبيرقراطية، إلى الحديث العفوي عن مشاهدات السَّفير في البلاد التي زارها، وملاحظاته عن حياة النّاس وأسلوب الحكم ونظام

الإدارة وثقافة السكان والمظاهر المدنيّة؛ ولهذا فهي موجّهة للنخبة السياسيَّة وللقارئ العادي على حدٍّ سواء.

ويعدُّ «تقرير» أوتفيانو بون عملاً فريداً في شكله، فلا يكاد يدخل في باب التقارير السفارية أو الدبلوماسية أو الرحلات الرسميّة، فهو يقدم عرضاً للحياة السياسيّة والإدارية في القسطنطينية، ويعرضُ للجوانبِ الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ويتوقف عند العادات: الدينية منها والتقليدية، ويبدو أن النص موجه للقارئ العادي لا للنخبة السياسيّة.

يأتي تقرير بون على وصف القصر الهمايونيّ المعروف بطوب قابو سراي، أي: «قصر باب المدفع» الذي بناه محمد الفاتح بعد فتحهِ للقسطنطينية وجعلها عاصمةً للدولة، وقد بدأت أعمال البناء حوالي سنة 1465م وانتهت سنة 1478م، وسُمّي بالقصر الجديد؛ وذلك في مقابل القصر القديم الذي أقام فيه السلطان محمد نحو عشرة أعوام قبل أن يأمر ببناء القصر الجديد. وقد شغل ذلك الموقع فيما بعد مقر نظارة الحرب العثمانية، وهو يشغل الآن موقع جامعة إسطنبول. أمّا القصر الجديد أو طوب قابو سراي، فقد ظلَّ مقراً للسّلاطين العثمانيين حتى القرن التّاسع عشر الميلادي عندما انتقلوا إلى قصور جديدة في أماكن أخرى، وذلك بعد سلسلة من الحرائق الكبيرة التي دمرت بعض المباني وخاصّة في الأعوام 1574م و1665م و1862م[1].

ويستهلُّ بون تقريره بتحديد الموقع الجغرافيّ للقصر السلطانيّ، ويصفُ بواباتهِ، ويُسمّي العاملين على خدمة القصر شارحاً المهام المنوطة بهم، ويُسْهبُ في الحديث عنِ الديوان خانه وطريقة انعقادهِ ومهام الصَّدر الأعْظم والباشوات خلال ذلك، ويستثيرُ فضولَ القارئ الأوروبي بوصفهِ للحريم

(1) Lewis, Bernard (1963), *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, Norman, University of Oklahoma Press, pp. 65-66.

السلطانيّ؛ فيأتي على ذكر أجْنحته، وطريقةِ اختيار السلطان لمن تشاركه ليلته، وعن الألقاب التي تمنَح لمن تشارك السلطان فراشه ومن تنجب له ذكراً، وعن زواجه بها إذا ما أراد، ويجيء على ذكر اليهوديّات في القصر ودهائهنَّ، ويُطيل الحديث عن تربية الشُّبان من جنود وغيرهم في مدارس القصر. ويأتي على ذكر المطابخ والمؤن وموائد الطَّعام التي تُعدُّ للسُّلطان ولِمَن هم في السَّراي، ولا يُغْفِلُ بون الحديثَ عن عقيدة الأتْرَاك وشعائرهم وأعيادهم.

لقد أثار القصر العثماني انتباه الأوربيّين، وقد كُتبت أوصاف كثيرة عنه تختلفُ في دقّتها وصحَّتها لتزويد الفضوليّين بالمعلومات. وعلى ما يبدو فإنَّ القليل جداً من هذه الكتابات مبنيٌّ على اطِّلاعٍ مباشر، ومن هذه الأوصاف ما كتبه دومينك المقدسيّ (Domenico Gerosolomitano) وهو حاخام من القدس اعتنقَ المسيحيّة فيما بعد، وعملَ كطبيب خاص للسلطان مراد الثالث (1574–1595م)، ولعلَّ وصفه غير المطبوع لغاية الآن[1] هو أساس الكتابات الكثيرة التي سطَّرها الأوروبيون في القرن السَّابع عشر الميلادي[2]. وقد هيَّأت له مهنته كطبيب من أصل سبعة أطباء كانوا مُعيّنين في خدمة السلطان، فرصة الدُّخول إلى غرف الحريم التي لم يكن يُسمح بدخولها إلاّ للخصيان والأطبّاء[3].

ويبدو أن دخول القصر السلطانيّ كان أمراً صعباً للغاية، والولوج إلى أجنحة الحريم يكاد يكون أمراً مستحيلاً، بل إنّه لم يكن يُسمحُ حتّى للطَّبيب

(1) توجد نسخة من المخطوط في المتحف البريطاني تحت رقم: Harl. MSS., 3408, ff.83-141، وعنوانها: تقرير عن مدينة القسطنطينيّة العظمى (*Relatione della gran città di Costantinopoli*) انظر:

Catalogue of the Harleian Manuscripts in the British Museum (1808), 3/24.

(2) Lewis, *Bernard, Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, p. 66

(3) انظر: Penzar, N. M, *The Harem*, p. 30.

رؤية المرأة التي تعتلُّ فيُدعى لمداواتها؛ إذ كان يُؤتى بها إلى غرفةٍ خارجَ جناح الحريم، وتُغطّى بالكامل ولا يظهر منها سوى ذراعها، لكي يتمكن «الحكيم» من فحصها، وهذا ما يذكره بون بالتَّفصيل[1].

ومع ذلك، فإنَّ أوتفيانو بون يدَّعي أنه دخلَ القصرَ السلطانيّ، واستطاعَ الإفضاء إلى البوّابة الثالثة حيث الغُرف السلطانية، ويذكرُ أن معظم المعلومات المتوفِّرة عن تلك المرافق مصدرها النقل: «وكل ما يُقال عن الأشياء داخل هذه البوابة فإنّ معظمها بالتناقل، لأنّه لا يمكن لأحد أن يراها، وإن استطاعَ أحدٌ أن يرى جزءاً بسيطاً فإنَّ ذلك يتمُّ في غياب السلطان»[2]، ويذكرُ أنه سنحت له فُرصة العبور إلى داخل المرافق السلطانية، منتهزاً غياب السلطان أحمد الأول أثناء خروجه للصَّيد، وذلك بتواطؤ أحد مسؤولي القصر: «ولمَّا اتَّفقَ أن كان السلطان خارجاً إلى الصَّيدِ، وبحُكم الصَّداقة التي كانت تجمعني بالكيخيا، وهو رئيس البستنجي باشي أي رئيس بستانييّ السلطان، فقد أمكنني الدُّخول بمعيَّتِهِ إلى السَّراي من جهةِ البحر من البوَّابة المزخرفة بالنُّقوش، وقادَني لرُؤية عدَّةِ قاعاتٍ يَسْتعمُلها السلطان وعدَّةِ حمّامات وأشياء أخرى جميلة وغريبة، لوفرة الأشياء المشغولة بالذَّهب ولكثرة النَّوافير...»[3]. ولنا أن نتساءل: هل كان المسؤول العُثمانيّ يغامرُ بحياتهِ بهذه السُّهولة، ويُدْخِل «كافراً» إلى السَّراي؟ وإن حدثَ ذلك حقّاً فهل نتصوّر أنّ بون أو غيره ممَّن ادَّعوا دخول القصر رأوا رأيَ العين كلّ ما وصفوه؟

لقد لاحظ الدبلوماسيُّون الأجانب الذين زاروا القسطنطينية شيوعَ ظاهرة الرّشوة بين العثمانيين، وأدْركوا أن الهدايا هي الوسيلة الأنجع لتيسير مهامهم وإنشاء العلاقات واستقصاء المعلومات، ولم يكن المسؤول العثمانيّ

(1) انظر: الورقة 23 ب.

(2) انظر: الورقة 4 ب.

(3) انظر: الورقة 5 أ.

يتحرّجُ من قبول الهدايا بل لم يكن يتحرَّجُ أيضاً من طلبها، وقد بلغ الأمر بأن أصبح في العهود الأخيرة يسجل قائمة بالهدايا التي يرغبُ فيها؛ فقد طالبَ الصَّدْرُ الأعظم داماد إبراهيم باشا[1] سنة 1723م السفيرَ البندقي جوفانّي إيمو (Giovanni Emo) بعددٍ من الهدايا من الثياب والمرايا والأقمشة الفاخرة، كالدمسق المذهَّب وغير ذلك. وقد تمكّن سُفراء البندقية من بناء علاقاتٍ طيّبة مع كثيرٍ من مسؤولي الباب العالي بواسطة الهدايا، التي تعدّت الصَّدرَ الأعظم إلى الرئيس أفندي والبستنجي باشي والجاويش باشي والإمام والمُفْتي وآغا النسوان والمترجمين، وغيرهم من صغار المسؤولين[2]. وكان السبب في شيوع مثل هذه المفاسد توقُّف فتوحات الدولة العثمانية التي أدَّت إلى انقطاع موارد الفتح؛ ممّا زاد في ارتباك الاقتصاد العثمانيّ[3]، وفي هذا السياق يمكننا التَّصديق بأن بون قد سنحت له فُرصة الدُّخول إلى بعض أنحاء القصر السلطانيّ من خلال الرشاوى التي بذلها.

ويلاحظُ أن السَّفيرَ يستهلُّ وصفه لبعضِ الأمور بقوله: «ولقد رأيتُ»، أو «ومن حيث إني رأيتُ... فيمكنني القول...»[4]، وأما في مواضعَ أخرى

(1) ولد إبراهيم باشا سنة 1678م وعمل صانعاً للحلوى في القصر السلطاني، ثم عُينَ في حرس الحريم السلطاني، وقد لفت إليه الأنظار بذكائه ومهارته في التحرير فأصبح كاتبَ الحريم. تعرف إلى الأمير أحمد الثالث قبل أن يتولى العرش، ليشغل منصب كاتم سر رئيس الخصيان سنة 1703م حين تولي أحمد الثالث العرشَ. وفي سنة 1716م قام بأعمال الصدر الأعظم وبعد عامين من ذلك عُينَ صدراً أعظم حتى وفاته. شُنقَ إبراهيم باشا بأمر من السلطان أحمد الثالث سنة 1730م بعد ثورة الانكشارية، واضطر السلطان إلى التنازل عن العرش في اليوم التالي. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، 1:4

(2) Shay, Mary Lucille, *The Ottoman Empire from 1720 to 1734, as Revealed in Despatches of the Venetian Baili*, pp. 46-52.

(3) Stanford Shaw, *History of The Ottoman Empire and Modern Turkey*, Cambridge University, London, pp. 171-172.

(4) انظر: الورقة 4 أ و5 أ و5 ب و6 أ.

فيستعملُ في معرضِ الوصف عبارات مثل «وقد قيلَ لي» أو «كما قيلَ لي»[1]، وهذا يشير ضمنيّاً إلى أن كثيراً مما أتى السفير على ذكره لم تكن له به معرفةٌ مباشرةٌ، بل ربّما هي معلوماتٌ استقاها من كتابات غيره من الرَّحالة والدبلوماسيّين الذين سبقوه، أو معلومات تحصَّلَ عليها من خلال علاقاته برجال الدولة وموظفيها أثناء إقامته في القسطنطينية. وأيّاً كان الأمر، وسواء كانت المعلومات التي قدَّمها بون عن مرافق القصر السّلطانيّ قد جمعها عن اطِّلاعٍ مباشرٍ، أو دوَّنها وفقَ ما بلغه من أخبار من الرحالة والدبلوماسيين ومن موظفي الدولة العثمانيين فإنَّ بون يتجاوزُ ذلك إلى موضوعات أخرى لا تلفُّها السِّريّة والتَّحفُّظ، كطرائق الأتْرَاك وعاداتهم ودينهم وشعائرهم وأعيادهم، وهي بلا شك معلومات حَصَّلها دون مشقَّةٍ، بحكم معايشته لهم خلال الأعوام الأربعة التي قضاها في القسطنطينيّة.

ولطالما شحذ الحريم السلطانيّ خيالَ الأوربيين واستثار فضولهم، ذلك أن فكرة أن يكون للرَّجُل أكثر من زوجةٍ، وما شاءَ من الجواري والسّبايا ليسَ له وجود في الفكر المسيحيّ، لذا كان الحريم موضوعاً شائقاً تناوله الرحالة الأوروبيون وتناقلوه بكثير من المبالغة أحياناً، لأنه كان من الصّعب جداً الوصول إلى جناح الحريم، بل إنَّه من الصَّعب أيضاً رؤية نساء القصر، حتّى عند خروجهنَّ صُحْبةَ السلطان إلى قصور أخرى لأجل الاستجمام، وهذا ما يذكره بون نفسه[2].

ومما يدلُّ على صرامة النِّظام الموضوع لأجنحة الحريم السلطانيّ أنه حدثَ في عهد السلطان مراد الرَّابع (1623 1640م) أن تجرَّأ أحدُ التجار من رعايا جمهورية البندقية، وحاولَ أن ينظر عن بُعْدٍ إلى أجنحة الحريم السلطانيّ

(1) انظر: الورقة 5 ب، 23 أ.

(2) انظر: الورقة 15 ب.

واسْتخدمَ لذلك نظّارةً تقرب المسافات، وسُرعان ما انكشف أمره وهو يقوم بمحاولته هذه، فأمر السّلطان بشنقه فوراً. وتكرَّرت محاولةٌ شبيهةٌ بعد ذلك قام بها أرمني يعمل مُترجماً للسّفير الفرنسيّ في إسطنبول، وألقي القبضُ عليه وشُنق على الفور[1].

وقد أُنشئ الحريم بدايةً في القصر القديم، ثم ألحق بالقصر الجديد في عهد السلطان سليمان القانونيّ، الذي بدأ في عهدهِ بناء هذه الأجنحة. ومنذ ذلك الحين أصبح القصر القديم مأوى للّواتي هنَّ على قيد الحياة، من حريم الملوك السّابقين أو الأمراء المُتوَفّيْن؛ فعند موت أحد السّلاطين كان يجري نقل أُمّه وأخواته وزوجاته وجواريه وخِصْيَانه إليه، لإخلاء المكان لحريم خليفته في القصر الجديد[2].

ولعلَّ من الأجانب القلائل الذين يدَّعُون دخول الأجنحة الداخليّة وتحديد أين يوجد الحريم السلطانيّ بحيث يمكن الوثوق بروايته هو ثوماس دَلَم (Thomas Dallam) الذي وفد إلى إسطنبول سنة 1599م ليقدِّم أُرغوناً[3] كان قد صنعه هدية من الملكة إليزابيث إلى السّلطان محمد الثّالث (1595 1603م)[4]، وقد طُلبَ إليه أن يقوم بتركيب الأرغون في السَّراي، حيث دخل دلَم القصر

(1) الشناوي، (محمد عبد العزيز)، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1980م، ص: 561.

(2) فينشتاين، جيل، «الإمبراطورية في عظمتها، القرن السادس عشر» **تاريخ الدولة العثمانية**، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، ج1، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع، القاهرة 1993م، ص: 265.

(3) الأُرغون (Organ): آلة موسيقية شائعة الاستعمال في كنائس أوروبا وهي من آلات النفخ الميكانيكية، وتبدو في شكلها الخارجي وطريقة استعمالها كآلة البيانو الأوروبيّة ولكنها مجهزة بأنابيب مزمارية ذات صمامات. انظر:

Devoto e Oli, Dizionario della Lingua Italiana: Organo.

(4) انظر:

Lewis, Bernard, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, pp. 75-76.

يومياً لمدَّة شهر وسنحت له الفرصة عندئذٍ للاطلاع عن كثب وتدوين وصفه للسّراي.

وقد كان الحريم في حقيقة الأمر أشبه ما يكون بقرية صغيرة، يُعامَلُ السّلطان داخله كأنه رجل خُلق من طينة أسمى من طينة البشر، فلم يكن من الأصول أن ترفع إحدى السيدات نظرها إليه ما لم يدعها إلى ذلك. وكان على جميع النِّساء أن يختفين عن أنظاره حين مروره بين بيوتهنَّ، ولذلك فقد اعتاد السَّلاطين على أن يَكسوا نعالهم بغطاء من الفضّة، ليكون لها رنين وهم يدبُّون على رخام المسالك والممرَّات إيذاناً للنِّساء باقتراب السلطان منهنَّ[1].

ولا شكَّ أن أوصاف الحريم التركيّ، التي تلقّاها الأوروبيون من كتابات سُفرائهم ورحَّالتهم، شابَها كثيرٌ من المبالغة، واختلطت بقصص الخيال من طراز ألف ليلة وليلة، ولم تَسْلَم ذاكرة الجمعيّة الأوروبية إلى يومنا هذا من شوائب هذه الصُّور النمطيّة تجاه الشَّرق الإسلاميّ.

ولا يخلو النص بطبيعة الحال من إشاراتٍ لنمطِ الحياة الاجتماعيّة وعادات الأتْرَاك وثقافتهم؛ فقد جاء السفير على ذكر الزَّواجِ والطَّلاق وتعدُّدِ الزوجاتِ عند الأتْرَاك، وأشارَ إلى المناسبات الاجتماعيَّة والدينية التي يحتفلون بها، كالختان وعيد الفطر وعيد الأضحى، وتوقَّفَ عند عادات الدَّفن، وتشييع الجنائز، وتحدَّثَ عن المآكل والملبس؛ فأشارَ إلى الأطعمة التي يتناولها العثمانيّون، وتحدث عن الأزياء التركيّة الخاصّة بالرِّجال والنِّساء والموظفين الحكوميّين.

وأسهبَ أوتفيانو بون في ذكر الوظائف العثمانية؛ سواء داخلَ القصر السلطانيّ أو خارجه، وبيَّنَ المهامَ التي يقومُ بها كل موظف ومقدار الأجر الذي يتقاضاهُ، ولا تكادُ تخلو صفحةٌ من ذكرِ هذه الوظائف وتوصيفِ

(1) جب: المجتمع الإسلامي والغرب، 1/ ص: 126.

أصحابها. وقد أبدى السفير مهارةً ودقَّةً في ضبطِ الألقابِ العثمانيةِ وكتابتها بصُورتها الأقربِ إلى الأصل، وهو بهذا يقدّمُ عرضاً دقيقاً للوظائف العثمانية أوائل القرن السَّابع عشر الميلادي: الإدارية والدينيّة منها، وهي وظائف كانت، كما لا يخفى، مُتداخلةً ومتقلِّبةً عبرَ التَّاريخ العثمانيّ، بحيث إنه في كثيرٍ من الأحيان بقيت الألقابُ وتغيَّرت المهامُ.

ويأنسُ القارئُ في ثنايا النص إشاراتٍ غنيَّةً عن الحياة الاقتصاديّة في الدولة العثمانية؛ فثمَّةَ ذكرٌ للوارداتِ التي تصبُّ في خزينةِ الدولة من ضرائب ونحوه، وما يؤول إلى حسابِ السلطان الشَّخصي من واردات مصر، ووارداتِ ما يُباعُ من منتوجاتِ مزارعِ السّلطان وبساتينه، وتوجدُ إشاراتٌ عن طبيعةِ السِّلعِ التي كانت تستوردها الدولة العثمانيةُ من الخارجِ، كالزيتِ والدَّقيق والعسل من الجزر اليونانيّة[1]، والحبوب والتوابل والسُّكر والتمور والفواكه المجفَّفةِ المجلوبة من مصرَ[2]. ويمكنُ أن ينضافَ في هذا السياق ما أورده السفير من كلامٍ على الأنماط الاستهلاكيّة عند الأتْرَاك فيما يخصُّ اللُّحوم والأسماك والألبان والفواكه والتَّوابل وغير ذلك.

ويُحسَبُ لمؤلِّف النص أنّه يتجنَّبُ الانجرار وراء العاطفة الدينيّة لمسيحيي البندقية أواخر القرن السادس عشر الميلادي وأوائل القرن السَّابع عشر الميلادي، الذين كانوا ينظرون بعين الريبة إلى الإسلام، ويُضمرون له كدينٍ منافس الحقدَ والكراهية وخاصة بعد معركة ليبانتو ومعركة قبرص. وهذا لا يختلفُ، بطبيعة الحال، عن الاحتقار التاريخيّ الذي كان يشعر به العثمانيّ المسلم تجاه غير المسلم وخاصة خارج حدود الدولة العليّة. ومع ذلك يمكننا أن نَرْصدَ في ثنايا النَّص بعض العواطف الدينيّة، ومن ذلك أن بون يتحدث

---

(1) الورقة 39 أ.

(2) الورقة 38 ب.

عن الخطر والأذى الذي يلحقُ بالمسيحيّين واليهود في الطرقات، بسبب مزاح الأتْرَاك الثَّقيل خلال أيام عيد الأضحى وعيد الفطر، كما يعبّرُ عن تعاطفه مع المسيحيّين واليهود المساكين الذين يلحقُ بهم الضررُ، نتيجة رفع الضرائبِ عليهم، كما أن بون في معرض الكلام عن وظائف المُفْتي والقُضاة لا يعترفُ بالإسلامِ ديناً، بل يعدَّهُ طائفةً من الطوائف.

ولا يُشيرُ السَّفير بون إلى طبيعة مهمّته السِّفاريّة، والمسؤوليّات التي كان يقوم بها خلال إقامته في إسطنبول، كما أنه لا يأتي على ذكر بلاده البندقية إلاّ في إشارة عابرة[1]. ومن الواضح أن البعثات الدبلوماسيّة الأوروبية كانت تتَّخذ شكلاً مختلفاً عمّا كانت تتبعه الدولة العثمانية لعهود طويلة؛ فقد كان الأوروبيون تُجَّاراً ورعايا يتوافدون إلى القسطنطينيّة، وكان وجود السفراء الأوروبيين متعارفاً عليه، وكانت مهمّتهم خدمة الرعايا الأجانب ورعاية مصالحهم والحفاظ على صورة من صور العلاقات مع العثمانيين، كما أن المبعوث أو السَّفير كان مُطالَباً بتزويد بلاده بالمعلومات عن الدولة العثمانية وتحرُّكاتها، فكان مبعوثو البندقية يرسلون تقريراً كلّ أسبوعين، وكان هذا التقرير يُقرأ في مجلس الشيوخ. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى العثمانيين؛ فلم يكن المسلم العثمانيّ يجد من حاجة للسفر خارج «دار الإسلام»، وربّما لم يكن هناك ما يشدّه إلى التِّرحال إلى بلادٍ مرشّحة للخضوع تحت سيطرة الدولة العليّة، ولهذا لم تكن الدبلوماسيّة العثمانية، كما سيتبيَّن لاحقاً، تتجاوز الرَّسائل الشَّفهيَّة التي ينقلها موظفون غير متخصِّصين في الشُّؤون الدبلوماسيّة، ثم يعودون إلى السَّلطنة بعد انتهاء المهمّة. ولم يكن العثمانيّون حتّى وقتٍ متأخِّر يُوفدون سُفراء دائمين إلى الخارج، ومن هنا فإن السِّفارة الأوروبية على عكس السِّفارة العثمانية، لا تحمل أعباء القيام بمهمةٍ بعينها،

---

(1) الورقة 11 ب.

ولذا فإن التَّقارير التي دوَّنها السفراء الأوروبيون عن العثمانيين تختلف إلى حدٍّ كبير عن التَّقارير السفاريّة العثمانية التي ظهرت في العهود الأخيرة.

وبالإضافةِ إلى ما سبق، فإنَّ أهميّة هذا النص تتأتّى أيضاً من كونه يوثِّق لنا، انطباعات الغرب المسيحيّ عن المشرق الإسلاميّ في أوائل القرن السّابع عشر الميلادي، وهي انطباعات تواترت في كثيرٍ من كتابات الرحالة والدبلوماسيين الغربيّين، وإن لم يكن لعمل بون الذي أفرده لوصف سراي السلطان، وذكرِ مظاهر الحياة المختلفة في الدولة العثمانية نصيبُ الرِّيادة من حيث إنه سبقه لذلك غيره، إلّا أن هذا لا يُقلِّل من قيمة العمل لدقّة المعلومات الواردة فيه، وتطابقها مع المصادر التَّاريخيّة، والتزام الكاتب الموضوعيّةَ على خلاف كثيرٍ ممَّن سبقوه ومن جاؤوا بعده.

وتجبُ الإشارةُ هنا إلى أن بعضَ الرحالة والدبلوماسيين قد التفتوا إلى هذا النَّص، وضمَّنوه في كتاباتهم، أو ترجموه إلى لغاتٍ أخرى، ولم يشرْ بعضهم كما سيتبيَّنُ لاحقاً إلى كاتبه، بل نسبوه إلى أنفسهم، فنجدُه في رحلة تومازو ألبيرتي (Tommaso Alberti) إلى القسطنطينيّة، كما نجدهُ منشوراً بالإنجليزية ومنسوباً لشخص يُدعى روبرت ويذرز (Robert Withers)، ويدلّ ذلك على الأهميَّة والشهرة التي حظي بها هذا النص آنذاك.

التّشابه بين تقرير بون ورحلة تومازو ألبيرتي إلى القسطنطينية سنة ١٦٠٩م

يلاحظُ القارئ للرحلة المنسوبة إلى تومازو ألبيرتي تشابهاً يكاد يرقى إلى درجة التّطابق مع سراي السلطان لأوتفيانو بون، وموضع الاختلاف عموماً يكمنُ في أن ألبيرتي يقدّم مختصراً عن رحلته، ثمّ ينتقلُ فجأةً إلى وصف سراي السلطان، على نحوٍ يكشفُ تبايناً واضحاً في أسلوب الكتابة ومستوى اللغة، بين الجزء الذي أفرده للرحلة والجزء الآخر الذي يصفُ فيه القصر السلطانيّ.

يستهلُّ ألبيرتي رحلته بذكر سَفره بحراً من البندقية «باسم الرب وباسم العذراء الحنون مريم»[1] في التّاسع عشر من مايو سنة 1609م باتجاه القسطنطينية، ويقدِّم معلومات مُقتضبة جداً عن كلّ يوم من أيام الرّحلة، فيذكرُ المواضعَ التي نزل فيها رابعَ يوم سفره بسبب هيَجان البحر، حتّى بلوغه جزيرة زاكينثوس[2] التي أقام فيها ستّة أيام، ورأى قلعتها العظيمة في أعلى الجبل، ويشرح المخاطر التي تعرَّض لها أثناء رحلته حتى بلوغه القسطنطينية في التّاسع عشر من يونيو، ثمّ انتقاله براً من القسطنطينية في أواخر نوفمبر من عام

(1) انظر: الرحلة منشورةً في:

Della Lega, Alberto Bacchi (1969), *Scelta di Curiosità Letterarie inedite o Rare del secolo XIII al XIX: Viaggio a Costantinopoli di Tommaso Alberti*, Bologna 4.

(2) زاكينثوس (Zacynthus) وبالإيطالية زاتشينتو (Zacinto) هي ثالث أكبر الجزر الأيونية في اليونان، وتقع على الساحل الغربي من شبه جزيرة بيلوبونيز (Peloponnese). مُنحت الجزيرة للبنادقة سنة 1485م خشية وقوعها في أيدي العثمانيين، وبقيت تحت حكمهم حتى سنة 1797م عندما تم التنازل عنها لصالح فرنسا. واحتل الروس الجزيرة لفترة قصيرة ثم خضعت بعد ذلك مع الجزر الأيونية الأخرى للوصاية البريطانية، ومنذ عام 1864م أصبحت الجزيرة تابعةً لليونان. انظر:

Zacynthus, *Encyclopedia Britannica*, Micropedia, vol. 12 (U.S.A: W. Benton 1995), p. 882.

1612م إلى ليوبولي[1] مع قافلة بضائع تابعة للبنادقة، محمَّلة بالحرير والسجاد ونبات الرّاوند وربّما بذوره. ويذكر الجمارك العثمانية عند اجتيازهم الحدودَ حيث «دفعوا الضَّرائبَ وصفَّوا حساباتهم مع الأتْرَاك الملعونين بصعوباتٍ كثيرة، وتخلّصوا من أولئك الماكرين من سائقي العربات الأتْرَاك مجتازين الدّانوب ليدخلوا البلاد المسيحيّة»[2]. وعلى غرار ذلك، فإنه يأتي على ذكر المدن والقرى والقلاع التي مرّ بها دون أن يقدّم تفصيلاً إلا فيما ندر، ويصلُ إلى ليوبولي في أواخر يناير من عام 1613م. ويصف ليوبولي بأنها مدينة «ليست جميلة، وجميع بيوتها مغطّاة بالخشب، وهي وافرةُ اللحوم والدواجن والأسماك، ويعزُّ فيها النبيذُ بسبب غلاء أسعاره، ونساء البلدة يفتحنَ الحوانيت ويتعاطين البيع والشِّراء، وأن من عادة أهلها تقبيل النِّساء في الشَّوارع والبيوت بأريحية»[3].

وبعد انتهاء مهمته في ليوبولي، يغادرها مسافراً إلى القسطنطينية مرةً أخرى أواخر أبريل من العام نفسه ليصلها في أوائل يونيو، حيث جُهِّزتْ قافلةُ بضائع أخرى لأجل السَّفر مجدَّداً إلى ليوبولي في أواخر يونيو.

ويذكرُ سفرهُ الثاني إلى ليوبولي، ووصوله إليها أواخر يوليو، ثم سفره منها ومروره بمدن وقرى عديدة حتّى وصلَ إلى البلاد الإيطالية من ناحية الشَّمال،

---

(1) باللاتينيّة ليوبولس (Leoplis) واسمها الحالي لفيف (Lviv) وهي مدينةٌ تقع غربَ أوكرانيا. بُنيتْ على تقاطع طرق التجارة من الشرق إلى الغرب أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، وكانت المدينة تحت حكم البولنديين منذ عام 1340م حتى عام 1772م عندما وقعت في قبضة النمساويين، واحتلها الروس خلال عام 1914 1915م، ثم ضمّت المدينة إلى الاتحاد السوفييتي سنة 1939م، وبعد انهياره صارت جزءاً من أوكرانيا. وتعدُّ المدينة مركزاً ثقافيّاً هاماً في البلاد وفيها جامعةٌ يعودُ بناؤها إلى عام 1661م. انظر:

Theodore Shabad, Lvov, *Encyclopedia Americana*, vol. 21, (U.S.A: Grolier Inc 1978), pp. 876-877.

(2) Alberti: *Viaggio a Costantinopoli*, pp. 22-23.

(3) Alberti: *Viaggio a Costantinopoli*, pp. 29-30.

ووصوله مدينةَ بولونيا التي ربّما تكون مدينته ومسقطَ رأسه.

وفي أواخر أبريل من عام 1614م يذهب إلى البندقية قاصداً ركوب «الغليون»[1] إلى القسطنطينية التي وصلها في أواخر يونيو، وأقام فيها سبعة أعوام، ويكتفي بذلك دون أن يذكرُ شيئاً عن إقامتهِ هذه وما شاهده وعايشه في تلك البلاد.

ثمَّ يجيء على ذكر رحلة العودة برّاً من القسطنطينية إلى البندقية في أواسط مايو من عام 1621، ووصوله البندقيةَ أواخر يوليو، ثم وصوله إلى مدينة بولونيا في أغسطس من العام نفسه.

ويأتي ألبيرتي على ذكر الوظائف العثمانية زمن السلطان عثمان الثّاني (1618–1622م) «خادم الحرمين الشَّريفين: مَكَّة والمدينة، وملك ملوك العالَم، ومالك بلاد العرب والفُرس واليونان وإيران وطوران وبولندا والسويد والأفلاق والبغدان، صاحبُ السّيف والقلم، السلطان عثمان، الملك الحالي وإمبراطور المسلمين يرعاهُ الله تعالى»[2] فيذكرُ العاملين في القصر السلطانيّ وأعدادهم، ثمّ يأتي على ذكر فرقة السّباهية[3] ومراتب منتسبيها، ثم الجيش

(1) الغَليون: بالتركية كاليون (Kalyon)، والكلمة مأخوذة من الإنجليزية (Galleon) وتعني نوعاً من السفن الشراعية الحربية في الأسطول العثماني، وهي أوروبية الأصل وقد صنعت أول مرة عند العثمانيين في عهد السلطان بايزيد الثاني، واستخدمت هذه السفينة في المعارك البحرية، وكان لها عدة أسماء منها: قره قه وبارجه وبروتين انظر: جب، هاملتون وبوين، هارولد، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1، ص: 146؛ المصري: **معجم الدولة العثمانية**، ص: 106.

(2) Alberti: *Viaggio a Costantinopoli*, p. 35.

(3) السباهية: فرقة في الجيش العثماني لها تيمارات كرواتب مقابل الخدمة التي يقدمونها على الجبهة الخارجية، كان يأخذ الضرائب المخصصة له ويتصرف بها، مقابل ذلك عليه إعداد المقاتلين (جبة لو) وتجهيزهم تجهيزاً عسكرياً كاملاً والمساهمة بهم في الحملات العسكرية تحت إمرة البكلربكي والمحافظة على الأمن والنظام في القرية أو المنطقة التي يقيم بها. انظر: فاضل بيات، **الدولة العثمانية في المجال العربي**، ص: 72.

الانكشاري[1]، الذي قَدّر أن عدده ثلاثة وأربعون ألف انكشاري، ويبيّن مراتبه «من أوَّله إلى آخره» ويفصّل أعداد الخدم والخيّاطين والنَّجّارين والرَّسّامين والأطباء الأَتْرَاك والأطباء اليهود، وأعداد غيرهم من الموظفين.

كما يضعُ قائمة بالأقاليم الخاضعة لحكم العثمانيين في آسيا والأناضول، ويذكر أنه يوجد في هذه الولايَات خمسمئة سنجق[2]. ويذكرُ مهامَّ أمين العاصمة (شهِر اميني)، ويشرح مرتبةَ المُفْتي من الصدر الأعظم ويجعلهما في المنزلةِ نفسها، ويذكر الدفترداريين الموزّعين على كبرى الولايَات العثمانية. ويشرح وظائف العاملين في «الديوان الملكيّ» المعروف بديوان خانه، ثم يحصي الجزية والضرائب التي تدفعها البلاد الخاضعة للعثمانيين.

ويذكرُ أسماء السّلاطين العثمانيين من أوَّلهم حتّى السّلطان عثمان الثَّاني، ويصفُ تقبيل يدِ السلطان في يوم العيد[3] والترتيب الذي يلتزمهُ رجال الدولة

(1) الانكشارية: بالتركية (Yeniçeri) وتعني الجيش الجديد، وهي فرقة كان لها مركز قوي بين فرق الجيش العثماني، ظهرت في زمن السلطان أورخان الأول، وقد كان جنودها يؤخذون من الشبّان المسيحيّين الذين كان يتعيّن على المدن المسيحية الخاضعة للسيادة العثمانية أن تُرسلهم سنوياً لخدمة السلطان، وكانوا يُدَرَّبون تدريباً عسكرياً دقيقاً. وقد ظفرت الانكشارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بسلطة قويّة، فكانت تنصّب السلطان وتخلعه كما تشاء، وكانت نهاية الانكشارية على يد السلطان محمود الثاني سنة 1826م وذلك في مذبحة إسطنبول المعروفة بالواقعة الخيرية. لمزيد التوضيح راجع:

R. Murphey, «Yeni Ceri», *Encyclopedia of Islam*, edited by P. J. Bearman et. al., vol 11 (Leiden: Brill 2001), pp. 322-31.

(2) لفظة تركية تعني العلم المنصوب على سارية مدببة الرأس، استخدم إلى جانب اللواء للدلالة على الوحدة الإدارية العثمانية، وتستخدم دفاتر التعيينات مصطلحَ سنجق بكي للدلالة على أمير السنجق عندما تشير على القائمين بإدارة الولاية. انظر: فاضل بيات، **الدولة العثمانية في المجال العربي**، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا مطلع العهد العثماني أواسط القرن التاسع عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007م، ص: 58.

(3) استعملَ الرحالة كلمة (Bairano) وهي تحريف إيطالي للكلمة التركيّة (Bairam) والتي تعني العيد، والكلمةُ برسمها التركي موجودةٌ اليوم في المعاجم الايطالية، واشتقّ منها كلمة (Bailamme) وتعني الجلبة والفوضى والاضطراب الشديد.

في ذلك.

ويُعدِّدُ الألقاب التي يخلعها السلطان على نفسه وأهله، وعلى الوزراء والقضاة وحكام الأقاليم العثمانية (البكلربيكي) والأمراء المسيحيّين.

ويذكرُ أخيراً مقدارَ ما يتقاضاهُ السفراء الوافدون إلى الدولة العثمانية. ومن الملاحظ أن سفير «ملك بلاد فارس» يتقاضى أعلى نسبة بين السُّفراء وهي أربعمئة آقجة[1] في اليوم، وأن مبعوث البندقية هو وحده من بين جميعِ السُّفراء مَن لا يتقاضى شيئاً من الدولة العثمانية، ونجدُ تفسيرَ ذلك في تقرير بون؛ حيث يذكرُ أن البندقيَّةَ رفضت أن يُنفقَ البابُ العالي على سُفرائها سواء بالمال أو الغذاء[2].

وبعد هذه المقدمة المقتضبة وغير المترابطة من حيث الموضوعات وطريقة الطَّرح، نجدُ الرّحالةَ يبدأ وصفه لسراي السلطان على نحو شبه متطابق مع وصف أوتفيانو بون، غير أنه لا يشير إلى هذا الأخير في كتابه البتَّة.

يذكُر الرحالة أنهُ سافر إلى إسطنبول في يونيو سنة 1609م، أيّ أنهُ وصل إليها بعد نحو سنة من نهايةِ مهمة بون السفاريّة، لذا من المتوقّع أنه اطّلع على وصفهِ للسَّراي، وضمَّنهُ في رحلته، وخاصة أنّ تقرير بون لم يكن يحملُ ما لا يمكنُ إفشاؤه؛ لذلك فإنه من غير المستبعد أن يكون اطلع عليه بعض الأوروبيين، من سُفراء البلاد المسيحيّة ورعاياها من تُجَّار وغيرهم، قبل أن يعرضه السفير على البنادقةِ بعد عودته. ومن أولئك الذين منحت لهم

(1) الآقجة (Akçe) هي قطعة صغيرة من الفضة ضربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان (1326-1359م) وكانت تستخدم في الأوساط الشعبية للدلالة على الدراهم أو النقود بشكل عام، ويُذكر أنه لم يضرب بعد سنة 1820م شيء منها، ووجد في وثيقة للحكومة العثمانية تعود لسنة 1866م أن كل ثلاث آقجات تساوي بارة واحدة وكل أربعين بارة تساوي قرشاً واحداً، وكل مئة قرش تساوي ليرة عثمانية ذهباً، فتكون الآقجة هذه جزءاً واحداً من مئة وعشرين ألف جزء من هذه الليرة. انظر: صابان، سهيل: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخيّة**، ص: 20-21.

(2) انظر: ورقة 11 ب.

فرصةُ الاطِّلاع على هذا التَّقرير، دون شك، شخص يُدعى روبرت ويذرز (Roberto Withers) الذي أقام لسنواتٍ طويلة في القسطنطينية، وكان على صِلةٍ بالسفير البريطانيّ لدى العثمانيين، وقد نقلَ ويذرز، كما سيتبيَّنُ لاحقاً، هذا الوصفَ ونُشِرَ بالإنجليزيّة سنة 1625م، ثمّ صدرت ثلاث طبعات أُخرى في أعوام 1650م و1653م و1737م.

ويمكنُ للمرء أن يتساءلَ: لِمَ لا يكون أوتفيانو بون هو من نقلَ عن تومازو ألبيرتي وليس العكس؟ وهنا نقول: إنَّه لا يوجد ذكرٌ لتومازو ألبيرتي في معاجم الأعلام الإيطالية والأوروبية عموماً، بل إن الأستاذ ديلا ليجا (Della Lega) (ت 1924م) الذي حقّق العملَ قبلَ نحو مئة عام بالاعتماد على نسخة مخطوطة وجدها في جامعة بولونيا[1] يشير في تقديمه المقتضب إلى أن ألبيرتي « البندقي أو البولونيّ[2] من رحّالة النصف الأول من القرن السّابع عشر، وأنه لا يُعرف من آثاره سوى تقرير رحلته إلى القسطنطينية»[3]، ولذلك لا تتوفّر لدينا أيُّ معلوماتٍ عن الرحالة. أمّا أوتفيانو بون فقد ورد ذكره في معجم الأعلام وكذلك في وثائق البندقية، حيث يوجد في أرشيف الدولة بالبندقية (*Archivio dello Stato di Venezia*) وثائق ومراسلات لبون.

والأمر الآخر الذي يدفعنا إلى الاعتقاد أن ألبيرتي هو مَن نقلَ عن بون يتعلّق بالازدواجيَّة الواضحة في أسلوب الكتابة؛ فالشِّقُّ الأول من رحلة ألبيرتي الذي يتناول أسفاره في البحر الأبيض المتوسط، وذكره بعض الجوانب المتعلّقة بشؤون الدولة العثمانية يختلفُ اختلافاً كبيراً عن الشِّقّ

(1) يذكرُ ديلّا ليجا أنه وجد المخطوط في المكتبة الجامعيّة التابعة لجامعة بولونيا في مجموعة أوبالدو زانتي (Ubaldo Zanetti) تحت رقم 99، ولم أتمكن من الحصولُ على نسخةٍ من المخطوط أو الاطلاع عليه.

(2) نسبةٌ إلى مدينة بولونيا (Bologna) التي تشتهر بجامعتها والتي تُعدُّ أقدم جامعةٍ في أوروبا ويعودُ بناؤها إلى عام 1088م.

(3) Alberti: *Viaggio a Costantinopoli*, p. 3.

الآخر الذي يتناول فيه وصف سراي السلطان، فالقسم الأول مقتضبٌ جدّاً يذكرُ فيه الحوادثَ بإشاراتٍ يغلب عليها طابع اليوميّات، ولا تبدو طريقةُ طرحه للموضوعات متماسكة أو مترابطة فيما بينها؛ فيجيءُ على ذكر بعض الوظائف العثمانية، ثمّ ينتقلُ إلى الألقاب التي يُخاطَبُ بها السلطان، أو تلك التي يُخاطَبُ بها الأمراء المسيحيّون في المراسلات. وأمّا القسم الآخر فهو متماسكٌ وموضوعاتهُ مُترابطة، والتَّدرُّج في رواية الأخبار منطقيٌّ وواضح، ولذا فإنّ هذه الازدواجيّة الأسلوبيّة تجعل من الصَّعب نسبةَ كلا الشقين إلى الكاتب نفسه.

اقتباسُ روبيرت ويذرز
من كتاب بون

صدرَ في سنةِ 1650م كتابٌ بعنوان «وصف سَراي السيد العظيم أو بلاط الأباطرة الأتْرَاك»(1)، وهو ترجمةٌ إنجليزيّة شبه حرفيّةٍ لكتاب سَراي السلطان لبون، وقد عثرَ على هذه الترجمة في القسطنطينية مستشرق وأُستاذ في علم الفلك بجامعة أكسفورد يُدعى جون جريفز (John Greaves)(2)، فتعهَّدَها بالتَّحقيق والتَّحرير والنَّشر، ومن الواضح أن جريفز لم يكن متأكِّداً من معلوماته حولَ صاحب هذا المخطوط «فلمَّا كان اسم المؤلِّف مجهولاً فقد تحرَّى البحثَ، حتّى تسنّى له معرفةُ صاحبها وهو المستر روبرت ويذرز (Robert Withers) الذي أتيح له خلال خدمته السَّفيرَ الإنجليزيّ الدُّخول إلى

(1) عنوانه في الأصل:

A Description of the Grand Signour's Seraglio, or Turkish Emperours Court.

(2) وُلد جون جريفز سنة 1602م في ألسفورد (Alresford) جنوب بريطانيا، وهو مستشرقٌ وعالم فلك. التحق جريفز بجامعة أكسفورد سنة 1617م وتخرج سنة 1623م، وانتخب في العام التالي عضواً في معهد ميرتن (Merton College) بالجامعة نفسها، وشرعَ في ذلك الوقت بدراسة النصوص الفلكية باللغات العربية والفارسية واليونانية، ويبدو من خلال ما نشره أنّه ألِفَ العربيةَ والفارسيةَ أكثر من اليونانيّة. قام جريفز برحلات إلى باريس والبندقية وبادوا وليدن، وقام بعد ذلك برحلةٍ علميةٍ إلى الشرق لأجل الحصول على الكتب العربية والشرقية ولأجل القيام باستكشافات فلكية، وفي سنة 1637م سافرَ جريفز إلى القسطنطينية حيث واجه صعوباتٍ بالغةً في الحصول على المخطوطات وبرغم ذلك فقد تمكّنَ من الحصول على نسخةٍ جيدةٍ من كتاب المجسطي (Almagest) لعالم الفلك الإغريقي بطليموس، مسروقةً من المكتبة الملكية في السَّراي السلطاني، وقام جريفز برحلاتٍ علمية أخرى إلى الإسكندرية والقاهرة ومدن إيطاليا، ثم عاد إلى بريطانيا سنة 1640م وأصبح بعد ذلك بثلاثة أعوام أستاذاً للفلك بجامعةِ أكسفورد، وقد كان جريفز مهتماً باللغات الشرقيّة فقد نشر في بريطانيا أول كتاب لقواعد اللغة الفارسيّة باللغة اللاتينية، وذلك في سنة 1649م، وافته المنيّة أواخر سنة 1652م. انظر:

Francis Maddison, Greaves, John, *Oxford Dictionary of National Biography*, 23/ pp. 486-487.

السَّراي، وهي حظوةٌ نادرة، وتوفَّرَ له خلال إقامته في تلك النَّواحي سنين عديدةٍ متواصلة الوقتَ والفرصة لتدوين مشاهداته»[1]. والواضحُ أيضاً أن جريفز لم يطَّلع قطُّ على ما دوَّنهُ بون قبلَ نشره المخطوطَ؛ فهو يشير في تقديمه المقتضبِ إلى قيمةِ هذا الكتاب «من حيث دقَّته التي لا نظيرَ لها في أي لغةِ أخرى»[2] ومن المؤكَّد أن جريفز لم يكن يعلم أن النص الإنجليزيّ سبق وأن نُشِرَ قبلَ خمس وعشرين سنة من صدور كتابه، أي سنة 1625م، وذلك في المجلد الثاني من رحلات الحجّ لصموئيل بورتشاز (S. Purchas)، كما ينسب بورتشاز العمل أيضاً إلى ويذرز[3].

ولا يُعْرفُ الكثيرُ عن روبرت ويذرز، ولا تأتي معاجم الأعلام الإنجليزيّة على ذكره، والمعلومات المتوفِّرة عنه لا تتعدّى كونه قضَى في القسطنطينية مدَّة عشرة أعوام، وتلقَّى تعليمه تحت رعاية ونفقة السَّفير الإنجليزيّ في القسطنطينية آنذاك السير باول بندَر (Paul Pindar)[4]، وأنه تعلَّم اللُّغة التركيّة

(1) انظر: (المقدمة) من مؤلف:

Greaves, John, A Description of the Grand Signour's Seraglio, or Turkish Emperours Court, London, 1650.

(2) المصدر السابق: المقدمة.

(3) Warner G. Rice (1928), «*The Grand Signiors Serraglio: Written by Master Robert Withers*», Modern Language Notes, Vol.43, No. 7, p.451.

(4) وُلد السير باول بندَر بمدينة ويلنغبوروف (Wellingborough) في بريطانيا سنة 1565م أو في السنة التي تليها، وتمرَّسَ في التجارة من خلال تدربه على يدِ أحد تجار لندن العاملين في تجارة البنادقة، وأُرسلَ إلى البندقية كوكيلٍ لسيده ثمّ ما لبثَ أن اشتغلَ هو نفسه في التجارة واكتسب معرفةً في نظام البنوك الإيطالي عموماً والبندقي على وجه الخصوص، مما جعله يقترح في السنوات اللاحقة إنشاء بنكٍ وطني بريطاني، عمل بندر منذ عام 1609م في الدبلوماسية التجارية كقنصلٍ للتجار الإنجليز في حلب، وبعد عام 1611م أصبح سفيراً لبريطانيا في القسطنطينية، ونالَ لقب فارس خلال زيارةٍ مطولة قام بها إلى بريطانيا سنة 1620م بعد انتهاء مهمته السفاريّة، ويبدو أنه لم يستقرْ في بلاده إلّا بعد عام 1623م وخلال عمله في التجارة قدَّم بندر سنة 1611م عشرين مخطوطاً عربياً وفارسياً ومخطوطات أخرى لمكتبة بودليان (Bodleian Library)، ولم يتزوّج بندر قطُّ وتوفي أواخر سنة 1650م. انظر:

Robert Ashton, Pinadr, Sir Paul, *Oxford Dictionary of National Biography* 44/ pp. 356-358.

تعلُّماً حسناً على أيدي أساتذة المدارس الأتْرَاك. وكان السير باول بندَر سفيراً لبريطانيا لدى البلاط العثمانيّ خلال الأعوام 1611م و1620م، وكان قبلَ ذلك سكرتيراً للسَّفير هينري ليلّو (Henry Lello) الذي شغل منصب السَّفير من عام 1597م وحتى عام 1607م، وأمّا فيما يتعلَّقُ بويذرز فإنه وصل إلى القسطنطينية سنة 1610م، وتولّاه السَّفير الإنجليزي بالرعاية وقرَّبه منه. وإذا كانت لم تتحْ لويذرز فرصة اللّقاء بأوتفيانو بون بسبب مغادرة الأخير لها قبل وصول ويذرز بعامين، فمن المؤكّد أنّه اطلع على وصفه للقصر السلطانيّ بواسطة السَّفير الإنجليزيّ، الذي كان بدون أدنى شكٍّ على معرفةٍ ودرايةٍ بالبعثات الدبلوماسية لجمهورية البندقية في إسطنبول حتّى قبل إقامته فيها، ذلك أنه سبقَ أن أمضى خمسة عشر عاماً في البندقية، لذا فمن غير المستبعد أن يكون قد وقعَ على كتاب بون، وأطلعَ ويذرز عليه. ومن المحتمل أن الترجمة الإنجليزيّة قد أنجزها كلا الرجلين، وظلّتْ المخطوطة في القسطنطينية حتّى وصول جريفز إلى عاصمة الدولة العثمانية سنة 1638م وعثوره على النص ومن ثم تحقيقه ونَشْره(1).

وإن كان ويذرز قد نقلَ عن بون فإنه لا يشير إلى الأخير في ترجمتهِ ولا ينسبُ إليه أيّ فضلٍ. والحقيقة أن الملاحظات التي توقفَ عندها بنزر (Penzer) حولَ هذه المسألة هي من الأهميّة بمكان؛ فقد عبَّر ويذرز عن المقاييس مستخدماً الميل الإيطالي(2)، كما أنّه تجاهلَ المفردات الإيطالية التي ربّما عَجِزَ عن نقلها إلى الإنجليزيّة، والملاحظة الأخرى هي أن ويذرز نقلَ الكتابَ وتجاهل متعمّداً إشارةً عابرةً تحدث فيها بون عن الوسيلة التي مكّنته

(1) Penzer, Norman Mosley (1937), *The Harem, An Account of the Institution as it Existed in the Palace of the Turkish Sultans with a History of the Grand Seraglio from its Foundation to the Present Time*, Philadelphia, J.B. Lippincott Company 36.

(2) انظر: الورقة 1أ، 3أ.

من دخول السَّراي بمعيَّةِ الكيخيا، حينما صادف خروج السلطان إلى الصَّيد[1] فحذفَ الفقرة برمّتها[2].

(1) انظر: الورقة 5 أ.

(2) Penzer, N. M, *The Harem*, p. 37.

نظرة في
تاريخ الدبلوماسية عند العُثمانيّين

بدايةً لا بدَّ من الإشارة إلى أن مفهوم الدبلوماسية يُعدُّ تقليداً بيروقراطياً قديماً في ثقافات الأوروبيين عموماً. ويرتبطُ ذلك بطبيعة أنظمة الحكم، من حيث وجود مجالس برلمانيّة تمثّل إرادة الشّعب، وشكلاً من أشْكال «الديمقراطية» والتعدديّة السياسية النسبيّة، مقارنةً بما كان عليه النِّظام السياسي العُثماني الذي كان يعتمدُ شكلَ الخلافة الإسلاميّة التي ترى أنّ «السلطان هو ظلُّ الله الممدود في الأرض»[1]. ويتواطأُ في ترسيخ هذا المبدأ رجال الدّين بحيث يستمدُّ السّلطان شرعيّته من نُصوص الشَّريعة الإسلاميّة، وتكون المؤسسة الدينيّة ممثَّلةً بشيخ الإسلام والمُفْتي، على أتمّ الاستعداد لتعديلها متى اقتضت الحاجة أو الرغبة لا فرق بما يتماشى مع مشيئة السلطان[2]. وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن الشَّريعة الإسلاميّة كانت وحدها الذَّخيرة التي اعتمدَ عليها النِّظام العُثمانيّ، بل إنه أفادَ من التَّقاليد الفارسيّة وبشيء من النظريّات

(1) وقصة الظل هذه يذكرها أيضاً الرحالة توماّزو ألبيرتي الذي تقدَّم ذكره سنة 1620م، فيذكر اللقب الذي يخلعه السلطان على نفسه: «خادم الحرمين الشّريفين: مكّة والمدينة، وظلّ الله في الأرض وخليفة رسول الله وملك الملوك....» انظر:
Alberti: *Viaggio a Costantinopoli*, p. 54.

(2) وليس أدلَّ على ذلك من نظام قتل الإخوة الذي انتهجهُ بعض السلاطين حفاظاً على العرش وأقرّتهُ المؤسسة الدينية، وهناك ما يشير إلى وجود نص قانوني زمن السلطان محمد الفاتح يقرر هذه الوسيلة، وينص هذا القانون على أن «أي واحد من أبنائي تؤول إليه السلطنة يحق له أن يقتل إخوته وذلك لأجل الاحتفاظ بنظام العالم، ومعظم العلماء يجيزون ذلك، ولهذا فعليهم أن يعملوا على هذا الأساس» وبقي العملُ بهذا النظام اللاإنساني إلى أنَ حلّ محله نظامُ القفص؛ إذ كان يتم حبس الإخوة مع الحريم حتى يُؤمن جانبهم، وقد أنتجَ هذا الأسلوب سلاطين هم الأضعف والأقل خبرةً في القرنين السابع عشر والثامن عشر. انظر:
Lewis, Bernard, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, p. 47.

السّياسيّة اليونانيّة التي تَرْجمها المسلمون.

وليس هذا هو الحال في معظم البلدان الأوروبية آنذاك، فمثلاً كان في جمهوريّة البندقيَّة منذ أواسط القرن الثاني عشر «مجلسٌ للحُكماء» (*Consillium Sapientis*)، ثم تشكّل ما يشبهُ مجلس الشيوخ منذ أوائل القرن الثالث عشر، وكان يُسمّى بمجلس «المرجوّين» (*Consiglio dei Pregadi*) لأنه كان يُرتجى من أعضائهِ تقديمُ النُّصحِ والمشورة إلى الدوق البندقيّ. وفي أواخر القرن الرَّابع عشر ظهر ما يُعرف بهيئة الحكماء (*Colleggi dei Savi*)، وهو بمثابة مجلس للوزراء كان يهدف إلى تقليص صلاحيّات الدوق، ومن ثَم فقد كان التَّطوُّر المبكِّر للشكل الإداريّ والسّياسيّ في أوروبا يُهيِّئُ لتطوّر «فنّ» الدبلوماسية وخاصّةً عندما أدركت الدول الأوروبية أهميّة الاتِّحاد «المسيحيّ»، وتمتين الرَّوابط ضد المدّ «التُّركيّ» الذي هدّد قلب أوروبا وحاصر أسوار فيينا مرَّتين، بل وصل المدّ الإسلاميّ إلى تخوم روما التي كانت تتشوق إليها أفئدةُ الأتْرَاك، وكانوا يسمُّونها قيزل إلما، أي التُّفَّاحة الحمراء.

أما بالنسبة إلى الدولة العثمانية، فإنّها ولفترةٍ طويلة لم تكن ترى من حاجةٍ إلى الدبلوماسية، ولم تكن ترسلُ سُفراء إلى البلاد التي تربطها بها علاقات سياسيَّة أو تجاريّة؛ فحين كانت الدُّول الأوروبيَة قد أنشأت منذ عهد بعيد سفارات وقنصليات، مقيمة بصفة دائمة في الأراضي الإسلاميَّة وغيرها، لم تكنِ الحكومات الإسلاميَّة تُجاريها في ذلك، فكانت العادةُ أن يُرسلَ الحاكم المسلم سفيراً إلى حاكم أجنبي، إذا أراد إيصال رسالة شفويَّة إليه وأن يستدعيه إلى بلاده بعد ذلك، وقد استمرَّ هذا النِّظام قروناً طويلةً، ولم يكن يوجد في الغرب حتى القرن الثَّامن عشر إلا القليل من أمثال هذه البعثات الدبلوماسيّة[1].

(1) برنارد لويس: **أين الخطأ**، ص: 45.

ولعلَّ السبب في ذلك يعود إلى موقف الدولة السَّلبيّ من إرْسال السُّفراء إلى البلاد الأجنبيَّة؛ حيث كانت ترى في ذلك انتقاصاً لكرامة الدولة العليّة، كما أنها كانت بلا شكّ إمبراطوريةً توسُّعيَّةً، تسعى إلى إخضاع البلاد المتاخمة لها بل والمترامية الأطراف، مما جعل من هذه البلاد في تصوّر العثمانيين «دار حرب» لا يحسنُ أن يرسل إليها السُّفراء.

وقد كشف الرحالة والدبلوماسيون الغربيّون، منذ العهود الأولى عن آرائهم في نظرة العثمانيين للمسائل الخارجيّة وأساليبهم في التَّفاوض، حيث لاحظ بعضهم أن العثمانيين يتجنَّبون الدُّخول في المفاوضات التي تعرِّضهم للمواقف الحرجة، وأنه من الصَّعب التفكير في توقيع معاهدة معهم لإجبارهم على ترك أرض، وأن الحرب عندهم أهون كثيراً من عقد الصُّلح، وأنهم يُشعِرون من يتفاوضون معه بأنهم مستعدُّون للحرب في أي وقت[1]، ويبدو أن العثمانيين كانوا يتجنّبون الوقوع في حبائل الدبلوماسية الأوروبية التي قد تحدُّ من تحرُّكاتهم وتقيّد حريَّتهم.

والملاحظ أن تطبيق الدبلوماسية في الدولة العثمانية حتى أواخر القرن الثَّامن عشر لم يكن بالشكل الذي فسّره الغرب، كما يُلاحظ أن العُنْصُريْن الأساسيّين في الدبلوماسيّة، وهما: قبول المفاوضات والاعتماد على أساس التبادل، لم يكونا موجودَيْن؛ فلم تبعث الدولة العثمانية حتَّى عام 1793م إلى الغرب أو الشَّرق سُفراء دائمين لها، كما لم يكن لديها سُفراء أجانب دائمون إلا في دولتين أو ثلاث، ولم تؤسّس الدولة جهازاً يُعنى بالشُّؤون الخارجيّة إلّا في أواسط القرن التَّاسع عشر، ولهذا بقيت الدولة العُثمانيَّة، لعهود طويلة،

(1) محمد إبشيرلي، «نظم الدولة العثمانية»، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، أكمل الدين إحسان أوغلى (إشراف وتقديم)، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول 1999م، ج1، ص: 233–234.

بعيدة عن المفهوم الأوروبي للدبلوماسيَّة[1].

وخلال القرن السابع عشر بدأت نظرة العثمانيين تجاه العالَم الخارجيّ تشهد تغيّراً، بعد أن أحسَّ العثمانيون بتقدّم العالَم من حولهم في العلوم والفنون والأنظمة العسكريّة والإدارية، وأدركوا خاصّةً بعد الهزائم التي مُنيت بها الدولة من قِبَل النمسا وروسيا أواخر القرن السَّابع عشر، أن السَّبيل للخروج من هذه الأزمة هو الالتفاتُ إلى مُنجزات الدُّول الأوروبية، ومحاولة الإفادة من تجاربهم. ويذكر المستشرق برنارد لويس أن الخسائر الفادحة التي لحقت بالإمبراطورية العثمانية أواخر القرن السَّابع عشر اضطرَّتها إلى التَّخلِّي عن المفاهيم العتيقة، والطُّرق القديمة للتَّعامل مع العالَم الخارجيّ، واكتساب معرفة بالعالم الجديد وعلم الدبلوماسية والتَّفاوض والوساطة[2].

لقد تعلَّم العثمانيّون درساً دبلوماسيّاً عقب معاهدة كارلوفتس سنة 1699م؛ ذلك أن عقد معاهدة مّا في القرون الأولى من التَّاريخ العثمانيّ، كان أمراً يسيراً عندما كانت الحكومة العثمانية تملي شروطها، وكان العدوّ المهزوم يقبلها، لكنهم اضطرُّوا، لأول مرة، إلى اللجوء إلى فنّ الدبلوماسيّة من أجل التَّخفيف من آثار ما ترتَّبَ على الهزيمة العسكريَّة بوسائل سياسيّة. وكانت هذه مهمَّة جديدة يضطلعُ بها المسؤولون العثمانيّون؛ إذ لم يكن لهم بها خبرة قبل ذلك، وقد استعانوا في هذه المهمة بخبرة سفارتين أجنبيتين في إسطنبول هما سفارتا بريطانيا وهولندا[3].

ولم يكن للدولة العثمانية دبلوماسيُّون مُتخصِّصون، فغالباً ما كانت المهام

(1) أوغلى، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ج1، ص: 219.

(2) انظر: برنارد لويس: **أين الخطأ**، (المقدمة).

(3) المصدر نفسه، ص: 36.

السفاريّة تُوكل إلى جاشنكر[1] أو جاويش[2] أو متفرّقة[3] أو في أحسن الأحوال إلى القابيجي باشي[4]، ولم يترك هؤلاء لطبيعة خلفيّاتهم أي أثر يشدُّ اهتمام مؤرّخي الدَّوْلة العثمانية، غير أن الضَّعف الذي شعرت به الدولة، وحاجتها إلى الاقتداء بالغرب أدّيا إلى ظهور جيل من المتخصّصين في التَّفاوض والعمل الدبلوماسيّ خاصّةً في نهاية القرن الثَّامن عشر، بل ظهرت أسماء متخصّصة في نطاق جغرافي محدّد بعينه (روسيا والنمسا مثلاً)، أو في مجال دبلوماسيّ معيّن (المعاهدات، التِّجَارة)، كواصف أفندي وأحمد رسمي أفندي وأبي

---

(1) جاشنكر (Caşengir) هو الخادم الموكل بطعام السلطان والوزراء، أصله من «جشني» بمعنى الذوق لأنه يتذوق الطعامَ قبل تقديمه لمولاه خوفاً من أن يُدسَّ فيه سمّ أو نحوه. وهو كذلك من يشرف على مائدة السلطان ويرأس مجموعةً من الخدم، يقوم بعضهم بإعداد المائدة والبعض الآخر يتذوق الطعام خشيةَ أن يدسَّ فيه سم. كما كان يُشرفُ على تقديم الأطعمة والمشروبات للمجتمعين في الديوان، ولقربه من السلطان فقد كان يحمّلُهُ بعض الرسائل الخاصة والسّريّة إلى الولاة والحكّام والأمراء. انظر: صابان (سهيل): **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخيّة**، ص: 78.

(2) الجاويش يعني التابع أو الرقيب أو الساعي، واستعمل العثمانيون الجواويش أول الأمر بوظائف الحجاب والسعاة والحراس، وأصبح الجواويش في العهود الأخيرة أكثر التصاقاً بخدمة الصدر الأعظم الذي بدأ تدريجاً يصرّف بنفسه وظائف السلطان العامة منهم بخدمة القصر الإمبراطوري. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 378.

(3) أطلق اسم متفرقة على فرقة من الحرس، وبخاصة الذين كانوا مرتبطين بالسلطان، ويُدعى رئيسهم متفرقة آغاسي، وكانت مهام المتفرقة مشابهة لمهام الجاويش، وثمّة تفسيرات عديدة لوظيفة المتفرقة، ولعل أكثرها قبولاً هو أنه لم يكن لصاحب هذه الرتبة مهام بعينها، بل شكلت هذه الفرقة للقيام بمهام متفرقة أي مختلفة، ولعل أشهر من كان من أعضاء تلك الفرقة هو إبراهيم متفرقة الذي يُنسبُ إليه وإلى سعيد محمد سعيد باشا الفضلُ في إنشاء أول مطبعة تركيّة في إسطنبول سنة 1729م. انظر:

J. H. Kramers, «Mutafarrika», *Encyclopedia of Islam*, edited by M. Th. Houtsma et. al., vol 3 (Leiden: Brill 1936), p. 778.

(4) القابيجي: هو بواب القصر السلطاني، وكان في العهود المتأخرة يقوم بأعمال التشريفات في المآدب التي يقيمها القصر، كما كان يُعهد إليه نقل الرسائل السرية أو الهامة إلى الأقاليم، وكان اثنا عشر فرداً من القابيجيّة يرافقون موكب السلطان في طريقه لأداء صلاة الجمعة. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 376.

بكر راتب أفندي، واضطرّت الدولة العثمانية، على ضوء التَّقارير التي رفعها هؤلاء المبعوثون إلى إيفاد سُفراء دائمين إلى هذه البلدان، في خطوةٍ قادت إلى استحداث ما بات يعرف في القرن التَّاسع عشر بـ«نظارت الأمور الخارجيّة»، وسنَّ الباب العالي تقليد «السَّفير المقيم» أو الدَّائم، وهو ما يُعتبرُ تحوّلاً مهمّاً في التَّعامل العثمانيّ مع الغرب.

وقد شمل الأمر في البداية البلدان الصَّديقة، وتعدَّاها فيما بعد إلى البُلدان التي كانت على خلاف مع الدولة العثمانية، وكانت أولى هذه السّفارات تلك التي استحدثت في لندن عام 1793م، وأوكلت إلى يوسف آغا (Yusuf Aga) الذي ترك، عقب عودته، تقريراً أقرب إلى يوميَّات دبلوماسيّة منه إلى السفارتنامه (Sefâretnâme) أي: كتب السفارات. وفي هذا التَّقرير يستعرضُ الأحداث الهامَّة التي ميَّزت إقامته في العاصمة البريطانيّة والمراسلات المرتبطة بها، وفي سنة 1794م عُيّنَ سفيرٌ مقيم آخر في فيينّا ثم في برلين سنة 1795م، وأخيراً في باريس سنة 1797م، وتمّ التراجع عن تقليد السَّفير الدَّائم بعد عزل السلطان سليم الثَّالث واغتياله فيما بعد ولم يعد العمل بهذا التَّقليد إلا في الثَّلاثينيات من القرن التَّاسع عشر، عندما هبّت ريح التنظيمات على الدولة العثمانية وقد كان لذلك بالغ الأثر في تراكم الكتابات عن أوروبا، وبخاصّة الكتابات السفاريّة التي كان آخرها ما كتبه محمد صديق رفعت باشا (Sadık Rıfat Paşa سنة 1838م عن رحلته إلى إيطاليا، والذي صنفه مُعظم الدَّارسين في خانة السياحتنامه وليس السفارتنامه، باعتبار أن صاحبها لم يُعيّن سَفيراً إلى إيطاليا بل إلى فينا، وذهب في مهمّة قصيرة المدى إلى إيطاليا[1].

ولعلَّ من أشهر الدبلوماسيّين العثمانيين الذين تركوا لنا بواكير التقارير

---

(1) لمزيد التوضيح انظر: بنحادة، عبدالرحيم «بين الرحلة السفاريّة والتقرير الدبلوماسي: السفارتنامه العثمانية»، **التاريخ والدبلوماسيّة، قضايا المصطلح والمنهج**، تنسيق عبدالمجيد القدّوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الرباط، 2003م، ص: 106–124.

السفاريّة، التي حاولت أن تعرّف العثمانيين بمنجزات الغرب، وأسهمت إسهاماً كبيراً في حركة التّغريب التي شهدتها الدولة في مختلف مجالات الحياة السّياسيّة والثقافيّة والعسكريّة بل والفنيّة والمعماريّة، هو محمد جلبي أفندي يكرمي سكز[1]؛ إذْ يُعَدُّ ثاني سفير عثماني يدوّن تقريراً سفارياً، مما أصبح يعرف لاحقاً بالسفارتنامه (Sefâretnâme). ولم يسبقه في ذلك سوى السّفير قرّه محمد باشا (Kara Mehmet Paşa)، الذي قيّد تقريراً مُقتضباً حول سفارته في فيينّا سنة 1665م[2]، وقد عبّر يكرمي سكز الذي اكتسبَ مهارته الدبلوماسيّة، خلال المفاوضات التي سبقت معاهدة بساروفتس[3] سنة 1718م عن مهمّته بأسلوب دبلوماسيّ رصين، مخاطباً الملك لويس الخامس عشر قائلاً: «إنَّ أُستاذي السلطان أرسلني إليك قاصداً لتنمو وتزدادَ المحبَّةُ

(1) وُلدَ محمد جَلبي أَفندي يكرمي سكز في مدينةِ أدرنه، ولا يعرفُ تاريخُ مولدهِ على وجهِ التّحديدِ، ولكنّه حينما أُرسلَ سفيراً للدولةِ العثمانيةِ لدى فرنسا أواخرَ سنةِ 1720م كان عمره حوالي خمسين عاماً، وبالتّالي لا بدَّ أنه وُلدَ خلالَ العقد السادس من القرن السّابع عشر. التحقَ محمد أَفندي بالمدرسةِ التّابعةِ للباب العالي ممّا خوّله أن يُلقَّبَ بأَفندي، ثم انخرط في الجيشِ الانكشاري وانضمَّ إلى الفرقة الثّامنةِ والعشرين، ولذلك لُقِّبَ يكرمي سِكز (Yirmisekiz) أي الثّامن والعشرين، وترقّى في خدمةِ الدولة ليصبحَ في رتبة چورباجي، ثم بعد ذلك رُقّي ليصبحَ في رتبة مُحضرِ آغا ثم ناظر ضربخانه. أُوكلت لمحمد أَفندي مسؤولياتٌ إداريّةٌ وماليّةٌ في الجيشِ حيث أصبح ناظر طُبْخَانَه، ثم مفتشاً للترسانة، ليصبحَ أخيراً باش محاسبجي وذلك سنة 1719م، ولم تُبعده مهامّه العسكريّةُ والإداريّةُ عن الحراك الثقافيّ؛ فقد كان رجلَ دولةٍ مثقفاً وكان يمتهنُ كتابةَ الشّعرِ تحتَ اسم فيضي، وانتهى به المطاف حاكماً على قبرص حيث توفي فيها سنة 1732م. انظر: G. Veinstein, «Mehmed Yirmisekiz», *The Encyclopedia of Islam*, edited by C.E. Bosworth et. al., vol 6 (Leiden: Brill 1990), pp. 1004-6.

(2) يوجد نص التقرير السفاري لقره محمد باشا في تاريخ راشد (1282)، إسطنبول، ج1، ص: 120-125.

(3) عقدت معاهدة بَسَارُوفِتْس (Passarowitz) بين الدولة العثمانية وكل من النمسا والبندقية، في يوليو 1718م بعد مضي ثلاث سنوات على الحرب بين الطرفين، وقد تخلّت الدولة العثمانية بموجبها عن بانات والقسم الغربي من الأفلاق وشمال الصرب والبوسنة إلى النمسا. انظر: المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ص: 145، صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 52.

والصُّحبةُ ما بين المملكتين، ولكي يَظْهرَ الاعْتبارُ والرِّضا والمحبَّةُ الخصوصيَّةُ التي لهُ نحوَ سُلطان فرنسا عالي الشَّأن»[1].

والحقيقة أنّ سفارة محمد جلبي أفندي جاءت في فترة أدركت فيها الدولة العثمانية، أنها أصبحت ترزحُ تحت وطأة الهزائم المتلاحقة والقُصور ورجعيّة أنظمة الدولة العسكريّة والمدنية، في مقابل الثَّورة العلميّة والثقافيّة والعسكريّة التي شهدتها أوروبا، وبالأخصّ فرنسا منذ القرن السَّابع عشر. ولهذا جاءت هذه الرِّحلة السِّفاريّة محمَّلة بمشاعر الدّهشة والإعجاب تجاه التقدُّم الذي أحرزتهُ فرنسا في مختلف مناحي الحياة، ومع أنّ يكرمي سكز يتجنّبُ المقارنةَ المباشرة بين الدولة العثمانية وفرنسا، إلّا أنه لا يُخفي مشاعره تجاه هذه الفجوة الكبيرة بين هذين العالَمين، فيعبّر عن ذلك بعاطفة دينيّة واضحة: «فتحقَّقتُ أن الدُّنيا سجنُ المؤمنين وجنَّةُ الكافرين»[2]. وقد استثارتْ هذه الرحلة العثمانيين، فأخذوا يحاولون مُحاكاة النموذج الأوروبي على ضوء مشاهدات السَّفير ووصفه، للحدائق والقُصور ومصانع السجَّاد والزُّجاج وأنظمة الجيش والعُلُوم الفلكيّة والهندسة والطب وغير ذلك.

(1) انظر: يكرمي سكز، **سفر نحو فرنسا**، مخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحتَ رقم 2296، وتوجدُ منه نسخة مصورة محفوظة على ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، شريط رقم 463، الورقة: 9 ب.

(2) المصدر السَّابق: الورقة 17 ب.

رعايا البندقية في إسطنبول

سبقت الإشارة إلى أن البنادقة كانوا من أوائل الأوروبيين الذين وجدوا طريقهم إلى الشَّرق الإسلاميّ، وإلى البلاد الخاضعة لسيطرة الإمبراطورية الرُّومانيّة الشَّرقيّة. ومن المعلوم أنه كانت تربطهم بالبيزنطيّين علاقات تجاريّة، حتّى قبل ظهور العثمانيين على السّاحة السّياسيّة، حيث كانت البندقية، لعهود طويلة من الزمان، مركزاً تجاريّاً هاماً، نتيجة موقعها الاستراتيجيّ في البحر الأبيض المتوسّط؛ ففي سنة 1082م مُنح البنادقة امتيازات خاصّة، إضافة إلى إقطاعهم حيّاً من أحياء بيزنطة لأجل تسهيل أنشطتهم التجارية، وبلغَ عدد البنادقة المقيمين في المدينة خلال القرون التي أعقبت الحملة الصَّليبيّة الرَّابعة أوائل القرن الثّالث عشر أكثر من عشرة آلاف نسمة. وتمكّن البنادقة، بحلول القرن الخامس عشر، من إضعاف القوى الرئيسة المنافسة لهم، وسيطروا على التِّجارة في شرقيّ البحر الأبيض المتوسط[1].

وفي ثالث يوم عقبَ فتح القسطنطينية في التَّاسع والعشرين من مايو سنة 1453م أعلنَ السلطان محمد الثَّاني الأمانَ، وتعهّد لِمَن يعودُ من الهاربين خلال فترة محدّدةٍ بالحريةَ في استعادة بيته وممارسة دينه، ولم يشملْ هذا الأمان البنادقة؛ فأُعدمَ المبعوثُ البندقيّ جيرولامو مينوتّو (Girolamo Minotto) بسبب وجوده في عاصمة البيزنطيّين، خلال حصار العُثمانيين لها ومساندتهِ للبيزنطيّين ضد العثمانيين[2]، كما أعدم ابنه، وتمَّ افتداء تسعةٍ وعشرين أسيراً من نبلاء البنادقة، وتمَّ تجنيد أولادهم الذكور في صفوف العجم أوغلان ولم يسُمح للبنادقة بالاستقرار والاتِّجار إلا بعد نحو سنة من الفتح، وتحديداً بعد

(1) Dursteler, Eric. R, *Venetians in Constantinople*, p. 23.

(2) Maria Pia Pedani, Bailo, *Encyclopedia of Ottoman Empire*, p. 73.

إقرار الامتيازات لهم في أبريل من عام 1454م[1].

وحرص العثمانيُّون بعد فتحهم عاصمة البيزنطيّين، على القيام بالدور الذي كانت تضطلع به الإمبراطورية الرُّومانيَّة الشَّرقيّة فيما يخصُّ التِّجارة في البحر الأبيض المتوسّط. فعمدوا إلى تجديد الامتيازات التجارية الممنوحة للتُّجار الإيطاليّين، وبخاصّة البنادقة والجنويّين، كما حرَصَ السلطان محمد الفاتح على إعمار المدينة، وجعلها مركزاً تجاريًّا وثقافيّاً يليق بمكانة الدولة العليّة على خريطة السِّياسة الدولية، فاتَّخذ إجراءات تُشجّع هجرة الرعايا الأجانب، وبخاصَّة ذوي الخبرات التجاريّة والحرفيّة من المدن الأخرى إلى العاصمة الجديدة، وشملت هذه الإجراءات الإعفاءات الضريبيَّة المؤقتة، وتوزيع المساكن، وتوفير فرص العمل، بل إنّه حينما لم تكن هذه الإجراءات كافيةً في نظر صانعي القرار العثمانيين لجذب السكان إلى عاصمتهم الجديدة، كانت تتخذ قرارات للتّوطين القسريّ عُرفت باسم سورغون (Sürgün) حيث أُجبرت أعداد من العائلات المسلمة والمسيحيَّة واليهوديّة على الانتقال من الأناضول والروملي إلى إسطنبول[2]، وأُجبر البنادقة، بعد فتح القسطنطينية، على الانتقال إلى حي غلطة (Galata) حيث يقيم الجنويّون.

ويجدُ الباحثُ صعوبةً في أن يتتبَّعَ على نحوٍ من الدقة نشاطَ الرعايا البنادقة، الذين كانوا يقيمون بصورة دائمةٍ أو مؤقَّتةٍ في الدولة العُثمانيّة؛ ذلك أنه لم يكن للأقليّات من وجهة نظر العثمانيين هويّةُ مواطنةٍ واضحةُ المعالم، بل كان يُنظرُ إليهم من زاوية المعتقد الدينيّ، وكانوا جميعاً أهلَ ذمَّةٍ مُستأمنين في «دار الإسلام» على دياناتهم وثقافاتهم وأحوالهم الشَّخصيَّة.

وكان في إسطنبول بالإضافة إلى التجار البنادقة المقيمين في المدينة فئة لا

(1) H. Inalcık, «Istanbul», *The Encyclopedia of Islam*, edited by E. Van Donzel et. al., vol 4 (Leiden: Brill 1978), p. 225.

(2) Ibid, p. 225.

تقلُّ أهميةً عن التُّجّار، بل إنّ وجودها أصلاً كان نتيجةً النشاط التجاريّ وضرورة من ضرورات هذا النشاط، الذي كان يستدعي وجود هيئة مخوَّلة من الدولة لرعاية مصالح الجالية وحمايتها، وهذه هي فئة البعثات الدبلوماسيّة، وكان المبعوث البندقيّ يُعرف باسم بايلو (Bailo)، ويرجع تاريخ هذه البعثات إلى القرن الحادي عشر وكانت مهام المبعوث (Basileus) تتمركزُ أوَّلَ الأمر حول شؤون التجار البنادقة على امتداد الإمبراطورية الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة، ومع مرور الوقت عُهِدَ له القيام بمهام ذات طابع سياسيّ ودبلوماسيّ، وآخر الأمر أصبح سفيراً فعليّاً لبلاده[1].

تشير المصادر التَّاريخيّة إلى أن أوَّل بعثة دبلوماسيّة لجمهوريّة البندقية أُرسلتْ زمن السلطان مراد الأول (1362–1389م) لتهنئته بعد أن استولى على مدينة أدرنه[2] وجعلها عاصمةً للدَّوْلة، وأوكلتْ هذه المهمّة لاثنين هما ليوناردو كونتاريني (Leonardo Contarini) ومارينو فينير (Marino Venier)[3]، وكانت المدَّة التي يقضيها السَّفير البندقيّ في القسطنطينية عادةً ثلاث سنوات[4]، وبلغَ مجموع عدد السُّفراء البنادقة الذين تمَّ إرسالهم إلى

---

(1) Dursteler, Eric. R, *Venetians in Constantinople*, p. 28.

(2) تقع مدينة أدرنه في أقصى الجهة الغربية من تركيا اليوم، وكان لموقعها الجغرافي بين أوروبا وآسيا الصغرى دور بارز في تشكيل تاريخها، وذلك بعوامل الحروب والهجرة والتبادلات التجارية، وكانت المدينة في بداية القرن الثاني الميلادي معقلاً عسكرياً ومركزاً تجارياً هاماً للإمبراطورية الرومانية في الشرق. وفي سنة 1361م فتح العثمانيون المدينة وصارت عاصمة للدولة في عهد مراد الأول سنة 1362م، واستمرّت كذلك حتى فُتحت القسطنطينيةُ ونُقلَ مقرُّ الحكم إليها. انظر:

Yunus Uğur, Edirne, *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, p. 195.

(3) M. P. Pedani Fabris, Maria Pia Pedani (2010), *Inventory of the «Lettere e Scritture Turchesche» of the Venetian State Archives*, Koninklijke Brill NV, Leiden, (introduction).

(4) Maria Pia Pedani, Bailo, *Encyclopedia of Ottoman Empire*, p. 73.

الباب العالي منذ عام 1360م وحتّى عام 1797م مئة وثمانية وتسعين سفيراً[1].

استقرّ السُّفراء البنادقة خلال القرن السادس عشر في وسط القسطنطينية أو في الحي اليهوديّ، وكان لهم كذلك منزل في حي غلطة (Galata)، وهو حيٌّ اعتادَ الرعايا الأجانب عموماً والأوروبيون خصوصاً على الاستقرار فيه، وذلك بسبب وجود سفارات بلادهم فيه. وأسّس السُّفراء البنادقة في عام 1527م مقراً لهم في الجانب العلوي من تلّة غلطة في موضعٍ يُدعى «كروم بيرا» (Le Vigne di Pera)، وأصبح هذا الموضع أخيراً مسكنهم الرئيس، وهو الموضع نفسه حيث توجد القنصليّة الإيطالية في إسطنبول اليوم. ومع سقوط جمهورية البندقيّة سنة 1797م لم يعد هناك وجود لمكتب السَّفير البندقيّ[2].

لقد كانت البندقية، لقرون عديدة من الزمان، حاميةً للمسيحيّين اللاتين في مستعمراتها، وفي الدولة العُثمانيّة والدِّيار المُقدَّسة في فلسطين، ومن ثم شكّل الجانب الدينيّ حيّزاً من مهام المبعوث البندقيّ. وكان من مظاهر هذه الحماية فداء الأسرى البنادقة لدى الدولة العُثمانيّة الذين قدّر عددهم أواخر القرن السّادس عشر بألفين وخمسمئة أسير، ومنذ القرن السَّابع عشر انتقلت هذه «الوصاية» الدِّينيّة تدريجيّاً لمصلحة فرنسا[3].

وكان من الطبيعيّ أن يُرافق المبعوثَ البندقي في مهمته مسؤولون وخدَمٌ لإعانتهِ على القيام بواجباته، وكان يطلق على هؤلاء اسم العائلة (Famiglia) وإن لم تكن تجمعهم أي صلة قرابة، وكان عدد أعضاء هذه الجالية الرسميّة يتراوح عموماً ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين، وتتألفُ من سكرتير

(1) انظر: قائمة هؤلاء السفراء ونبذة موجزة عن حياتهم في:

Pedani, Maria Pia (2002), «Elenco degli inviati diplomatici veneziani presso I sovrani ottomani" *Electronic Journal of Oriental Studies* No. 5/4, pp. 1-54.

(2) Maria Pia Pedani, Bailo, *Encyclopedia of Ottoman Empire*, p. 73.

(3) Dursteler, Eric. R, *Venetians in Constantinople*, pp. 30-31.

أو مساعد للسَّفير ومحاسب وقس وطبيب وحلّاق ومترجمين وشُبَّان اللغة[1] وخدم ومرافقين وسعاة البريد. وكان معظم أعضاء البعثة من البنادقة، أمّا صغار الموظَّفين كالخَدَم فكان من الممكن أن يكونوا من الأجانب من المدن الإيطالية والفرنسيّة ومن الأرمن واليونانيّين.

ولم تخلُ سفارة جمهورية البندقية من المستخدمين العثمانيين، فقد تولّى هؤلاء تدريس اللُّغة العثمانية لشُبّان اللُّغة البنادقة، وكان يُطلق على المدرِّسين العثمانيين اسم خواجه، كما أن الدولة العثمانية كانت تتكفَّل بحماية السِّفارات الأجنبيَّة على أرضها، وكان يتولّى حراسة سفارة البندقية ما لا يقل عن أربعة من جنود الانكشارية وكانوا يُعرفون بين عامَّة المسلمين باسم «رعاة الخنازير» وذلك بسبب عملهم بين «الكفّار»[2].

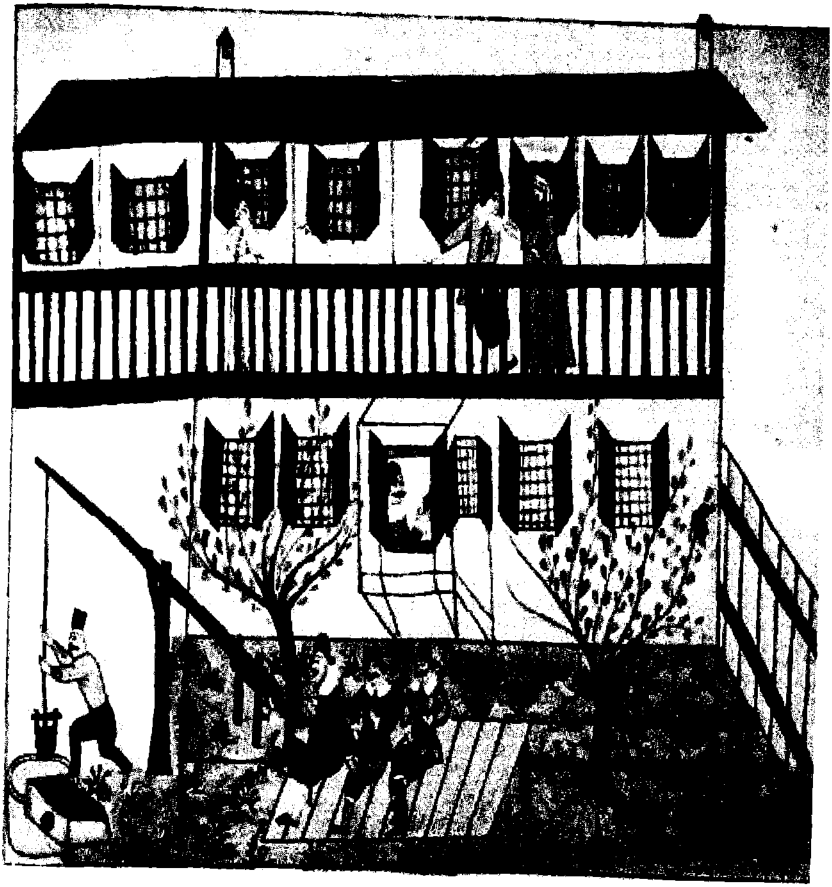
---

(1) كان هؤلاء الشبان يتلقون تعليمهم في مدرسةٍ تابعةٍ للسفارة، كي يصبحوا مترجمين ماهرين وموثوقين، وكان الهدف من إنشاء هذه المدرسة هو رغبة البندقية، في أن يكون لها من رعاياها المخلصين من يكون قادراً على شغل أهم المناصب ولكي يتخلص البنادقة من اعتمادهم على مترجمين من غير أبناء جلدتهم. تأسست هذه المدرسة بمرسومٍ من جمهورية البندقية سنة 1551م بناءً على اقتراحٍ من السفير البندقي في القسطنطينيّة ألفيزي رينير (Alvise Renier). لمزيد المعلومات حول تاريخ هذه المدرسة انظر:

Francesca Luchetta, «La Scuola dei ‘Giovani di Lingua’ Veneti nei Secoli XVI e XVII» *Quaderni di Studi Arabi*, Vol 7 (1989) pp.19-40.

(2) لمزيد التوضيح حول أعضاء البعثة السفارية لجمهورية البندقية انظر:

Dursteler, Eric. R, *Venetians in Constantinople*, pp. 31-40.



رسم للمنزل حيث كان يقيم سُفراء جمهورية البندقية، ويتكوّن من حديقة وممرّ في الأعلى وتوجدُ أسفل هذا الممرّ غُرف يقطنها «شُبّان اللغة» البنادقة.

المصدر:

F.Taeschner, *Alt-Stambuler Hof- und Volksleben. Ein Türkisches Miniaturenalbum aus dem* 17. Jahrhundert, Hannover 1925

العثمانيون في البندقية

سبقت الإشارة إلى أنّه لم يكن هناك، لعهود طويلة من الزمان، ما يُغري المسلم العُثمانيّ بالسَّفر خارج ديار الإسلام، فقد جعلت انتصارات الدولة وتوسّعها الفردَ العثماني يشعر بتفوّقه على من سواه من شعوب الأرض، ومن ثم عدم رغبته في معرفة الآخر والاطّلاع على ثقافته أو حتّى تعلم لُغته؛ فمن المعروف أن العثمانيين لم يولُوا تعلُّم اللُّغات الأجنبيَّة عظيم أهميّة؛ بل ظلُّوا يعتمدون حتّى وقتٍ متأخِّر على مُترجمين من غير المسلمين، ولما كانت الحاجة تستدعي إرسال رسالةٍ مّا إلى إحدى البلاد المسيحيّة كانت هذه المهمَّة تُوكلَ غالباً لموظَّفين من غير المسلمين، وبخاصَّةٍ اليهود.

ولَمَّا كانت القسطنطينية مدينةً متعدِّدة الأعراق والثَّقافات، فقد تعايشت جميع الجاليات الأجنبيَّة، واستقرَّت مصالحها في مناخ عثمانيّ منفتح. وأفادَ العثمانيُّون من خبرات هذه الجاليات في المجالات الاقتصاديّة والحرفية وفي إعمار المدن وتنميتها، كما سمح العثمانيّون للأجانب القادمين إلى أراضي الدَّوْلة العُثمانية، وخاصة التجار منهم بإنشاء مساكن دائمةٍ لهم، وكان يطلقُ على هذه المنازل اسم فندق[1]، وكانت هذه الفنادق مهيَّأة للمبيت، ومزوَّدة بأمكنة للدَّواب وبالمخازن، ولا شكَّ أن وجود هذه الفنادق يشير إلى ديمومة السَّفر إلى الأراضي العثمانية.

ولعلّ المثيل الوحيد لهذه الفنادق في أوروبا هو ما عُرِفَ بفندق الأتْرَاك

(1) الفندق لفظة معربة من أصل لاتيني اقتبسها العرب خلال الحروب الصليبيّة وأطلقت على المباني التجارية المنشأة داخل المدن وعلى محطات القوافل المقامة على الطرق العامة، وشاع استعمال الفندق في بلاد الشام بشكلٍ خاص منذ القرن الثاني عشر الميلادي. انظر: الريحاوي، عبد القادر، **المنشآت الاقتصادية التاريخية ببلاد الشام**، منشورات وزارة الثقافة السوريّة، دمشق 1979م، ص: 39.

(Fondaco dei Turchi)[1] في البندقية حيث تشير المصادر الإيطالية إلى وجود جالية صغيرة من التجار العثمانيين في البندقية في أواخر القرن السادس عشر؛ فعَقِبَ اندلاع الحرب بين البنادقة والأتْرَاك سنة 1571م، وبعد أن بلغَ مجلسَ الشيوخ البندقيّ خبرُ اعتقال سفيرهم ماركانتونيو باربرو (Marcantonio Barbaro) مع بعض التجار البنادقة في إسطنبول، قرّرَ المجلسُ أن يتمَّ اتِّخاذ الإجراء نفسه تجاه الرعايا الأتْرَاك وبضائعهم بالبندقيَّة، بحيث يُسَهِّل اعتقالُ هؤلاء ومصادرة بضائعهم استعادةَ رجالِ البندقية وممتلكاتهم. ويبدو أن عدد هؤلاء التجّار وقيمة بضائعهم كان معتبراً، بحيث إنّ محمد باشا عرض على البنادقة تبادل إطلاق «الأسرى» وبضائعهم، ولعله ليس من المستبعد أن يكون العثمانيون معنيين، بالدرجة الأولى، بالبضائع القيِّمة التي كانت بحوزة التجَّار اليهود الموجودين آنذاك مع العثمانيين، وأيّاً كان الأمر فقد تمّ تسريح الأسرى من جانب الطرفين، وعاد التجار العثمانيّون لممارسة أعمالهم في الحي المعروف باسم «ريالتو» (Rialto) بالبندقية[2].

وتحفلُ المصادر التّاريخيَّة الإيطاليَّة بإشاراتٍ تدلُّ، على وجود التجار الأتْرَاك في البندقية منذ أوائل القرن السادس عشر، ويبدو أنه لم يكن لديهم مساكن خاصَّة بهم آنذاك، بل كانوا يقطنون في بيوتٍ وخاناتٍ مملوكةٍ لغيرهم، ومن هذه الإشارات ما توردهُ المصادر من اعتقال مجموعةٍ من الأتْرَاك أواخر سنة 1537م[3].

ولا ندري إن كانت هناك قبل ذلك الزمان جاليةٌ عثمانيّةٌ مستقرّةٌ أو متنقِّلة في البندقيَّة؛ فليسَ هناك فيما تيسر لي الاطلاع عليه من مصادر أيُّ إشارةٍ

(1) ما يزال فندق الأتراك في البندقية قائماً إلى اليوم، ويشغل الآن متحفَ التاريخ الطبيعي للبندقية.

(2) Preto, Paolo (1975), *Venezia e i Turchi*, Firenze, Sansoni, pp. 128-129

(3) Ibid, pp. 128-129.

تاريخيّة لوجودهم قبل النصف الأول من القرن السادس عشر، ولكن يبدو أنهم وإن وُجدوا فهم من القلّة بمكان، ويدلّل على ذلك الفضولُ الشَّعبي لدى البنادقة تجاه الأتْرَاك المسلمين؛ فقد كان أهل البندقيّة توّاقين لرؤيةِ «التُّركيّ» وهو يعبرُ السَّاحات والطُّرقَ رِفْقةَ أصحابه؛ فلمَّا اجتازَ علي بك ساحةَ سان ماركو في فبراير من عام 1514م «كان الجميعُ يجري رغبةً في رؤيته»[1].

وثمَّةَ إشارة أخرى على وجود التجار العثمانيين في البندقية، إذ يذكر أحد المؤرِّخين الإيطاليّين أنه بعد انتصار الأسطول المسيحيّ في معركة ليبانتو، هرب العثمانيّون من حي ريالتو، حيث كانوا يمارسون أعمالهم التجاريّة إلى حيّ كانَّارجُّو (Cannareggio)، واختبأوا في بيوت آل باربرو (Barbaro) التي مُنحت لهم لأجل الإقامة فيها[2]، وأغلقوا على أنفسهم البيوتَ أربعةَ أيام خشيةَ أن يرجمهم الأطفال بالحجارة، وبعد أن تمَّ الصُّلح بين البنادقة والعثمانيين في مارس من عام 1573م ازداد عدد العثمانيين من أرباب المصالح في البندقية، وطالب الأتْرَاك في أغسطس من العام نفسه بمكانٍ مخصَّص لهم لأجل تيسيرِ أعمالهم التجارية أسوةً بأحياء اليهود، وفي العالم التَّالي كتب شخص يُدعى فرانشيسكو دي ديميتري ليتينو (Francesco di Dimitri Litino) رسالة إلى الدوق البندقي يشير فيها بناءً على معرفته بعادات الأتْرَاك وطرائقهم إلى مساوئ أن يكون الأتْرَاك مُبعثرين في أرجاء المدينة؛ «فهم لا يتوقَّفون عن الخداع وإغواء الأولاد، وممارسةِ الرَّذيلةِ مع الفتيات المسيحيَّات، وأنهم أنفسهم يتعرَّضون في الوقت نفسه للخداع والقتل»، ويقترحُ على الدوق أن يتمَّ تزويدهم بمكان خاصٍ بهم، وقد أخذ مجلس الشيوخ بهذا

(1) انظر: Preto, Paolo, *Venezia e i turchi*, p. 122، نقلاً عن مذكرات سانوتو: Sanuto, *i diarii*, XVII, col. 525.

(2) Gallicciolli, Giovanni Battista (1795), *Delle Memorie Venete Antiche, Profane ed Ecclesiastiche*, Venezia, C. Fracass, pp. 101-102.

الاقتراح في أواخر سنة 1575م، ومُنح الأتْرَاك فندقاً شبيهاً بالفنادق التي ينتفعُ منها التجار المسيحيون في الدِّيار المسلمة. وفي أوائل أغسطس من عام 1579م تمَّ اختيار موضع أوستريّا ديل آنجلو (Osteria dell'Angelo) ليكون فندقاً للأتراك، وبقي كذلك حتّى سنة 1621م، حيث منحتهم حكومة البندقية مكاناً آخر أوسعَ ما زال يعرفُ إلى اليوم بفندقِ الأتْرَاك، وقد شغل العثمانيُّون هذا الفندق أكثر من قرنين من الزمان.

ولم تسلم فكرةُ منحِ فندق للأتراك من المعارضة؛ فقد قدَّم مجهولون عريضةً لحكومة البندقية في أبريل من عام 1602م، يعبّرون فيها رفضهم الشديد للمشروع انطلاقاً من معطياتٍ دينية وسياسية واقتصاديّة، ويحذرون من خطر تجمع أعداد كبيرة من الأتْرَاك في مكانٍ واحد، لأن ذلك قد يؤدي إلى بناء مسجد يصلّي فيه أتباع النبي محمدٍ، وهذا يسيءُ للمدينة أكثر مما أساء إليها اليهود والبروتستانت الألمان، وأن تصرُّفات الأتْرَاك الفاحشة كفيلة بأن تحوّلَ الفندق إلى وكر للرذيلة وبؤرة للخطيئة، ولم تلقَ هذه الاعتراضات آذاناً صاغية لدى المسؤول البندقيّ[1].

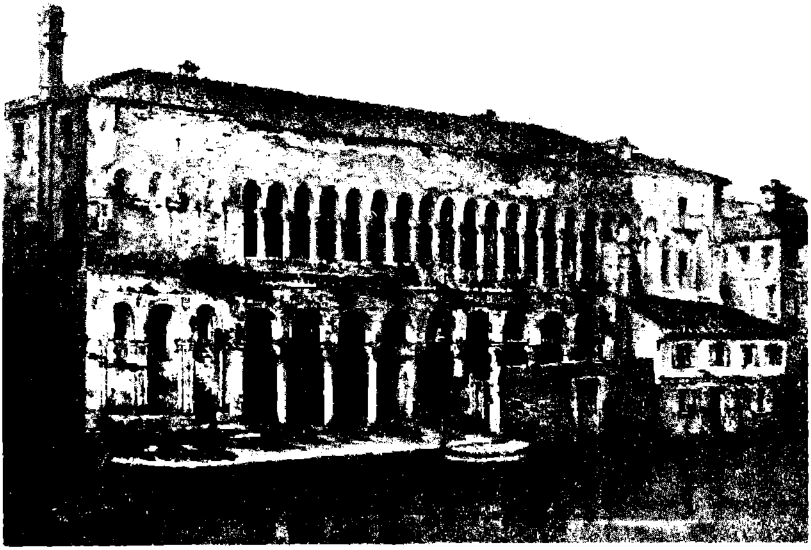
وشهد القرنان السَّابع عشر والثامن عشر تراجعاً في نشاط الفندق التركيّ؛ فقد كان يُغلق، من وقت إلى آخر، بسبب نشوب النزاعات بين جمهورية البندقيّة والإمبراطوريّة العثمانية، وغالباً ما كانت عملية إعادة فتحه تتأخَّر، كما كانت عودة التجار العثمانيين بطيئة ومحدودة، ويعود تراجع أعداد التجّار العُثمانيّين، منذ أواخر القرن السابع عشر، إلى الركود الاقتصاديّ الذي مُني به كلا الطَّرفين[2].

---

(1) لمزيد التوضيح حول تاريخ الجالية العثمانية في البندقية راجع:

Preto, Paolo, *Venezia e i Turchi*, Firenze, Sansoni, pp. 126-145.

(2) B. Lewis, *The Muslim discovery of Europe*, pp. 121-122.



رسم لفندق الأتْرَاك في البندقية

المصدر:

Sagredo, Agostino e Berchet, Federico (1860), Il Fondaco dei Turchi in Venezia, *Studi Storici ed Artistici*, Milano, C. Civelli, 101

النُّسخ المعتمدة في التّحقيق والتّرْجمة:

اعتمدتُ في تحقيق النص وترجمتهِ على النسخة الأصل التي أقدّر أنها خُطَّت بيدِ السَّفير نفسه أوائل القرن السّابع عشر، وهي محفوظةٌ في مكتبةِ متحفِ الكورّير (Biblioteca del Museo Correr) بمدينة البندقيَّة، تحت رقم: 292 Correr، وعنوانها «سراي التُّركي» (*Seraglio del Turco*)، ويقعُ المخطوط في ثمانٍ وسبعين ورقةً من القطع المتوسط، وفي كلّ ورقةٍ قرابةُ خمسةٍ وعشرين سطراً وفي كلّ سطرٍ قرابة ستّ كلماتٍ، وهو مكتوب بخطٍّ صغيرٍ واضحٍ وجميلٍ، وليس فيه شطب أو طمس أو اضطراب، غير أنه يبدو مبتوراً في آخره. وقد وُضعت أرقام أوراق المخطوطة بين حاصرتين، بحيث يتسنّى للباحث الرُّجوع إليها بسهولة إذا ما أراد[1].

وإن كنتُ قد اعتمدت المخطوطةَ الأصلية، فإنني قد استعنت بالنصِ الإيطاليّ المطبوع بالبندقية سنة 1871م، وقابلته على الأصل، وأشرتُ في الحواشي إلى مواضع الاختلاف بين النصِ المخطوط والمطبوع وأثبتُّ الرَّاجحَ، وأتممتُ منه الجزءَ المبتورَ من الأصل، وقد أشرتُ إلى هذه النُّسخة بالرمز (ب).

منهجُ التَّرجمة والتّحقيق:

بعد قراءة النص قراءةً عميقةً، عمدتُ إلى تحليلهِ وفهمهِ، ثم نقلته إلى العربيّة متوخّياً الدقَّةَ والضَّبطَ، حتّى لو كان ذلك على حساب رصانةِ الكَلِم وسلامة التَّعبيرِ وحسن الألفاظ وجزالتها، واجتهدتُ في التَّرجمةِ على نحوٍ يبرزُ هذا العملَ بصورةٍ يستسيغها القارئُ العربيّ عموماً، والمهتمّ بالشَّأن العُثمانيّ على وجه الخصوص، مستأنساً نَفَسَ الحقبةِ التَّاريخيَّة؛ فمثلاً جعلتُ الملك (Re)

(1) أودعتُ نسخةً عن مخطوطة الأصل لدى مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية بتاريخ 15 ديسمبر 2011م

والسَّيدَ العظيمَ (il Gran Singor)[1] والإمبراطور (Imperatore) في النصِ سُلْطاناً[2]، والوزيرَ الأولَ (primo Visir) صَدْراً أعْظم، والتزمتُ ذلك حيثما تعلَّقَ الأمر بالدولة العثمانية، ولا يتنافى ذلك في ظنّي مع مبدأ الأمانة العلميّة.

ولمّا كان النص في أصلِه حافلاً بالمفردات مما قد يَسْتغلقُ فهمهُ على القارئ وأكثرها من الألفاظ العثمانية، فقد اجتهدتُ في شرح هذه المفردات وبيان معانيها مع الإحالة إلى المصادر والمراجع التي أخذت عنها.

وأمّا الأعلام والمواضع الواردة في النّص على قلّتها، فقد عمدتُ إلى شرحها في الهامش مع الإحالة إلى المصادر والمراجع التي أخذتُ عنها.

وقسَّمتُ النّصَّ حسبَ الموضوعات، وجعلتُ له عناوينَ من أجل التَّسهيل على القارئ من حيث حسن الإخراج وسهولة الرُّجوع إلى الموضوعات الواردة في النص.

وضمَّنتُ النص صُوراً ورسوماً توضيحيّةً لبعضِ المواضعِ والشُّخوص المتَّصِلة بمتن الكتاب، مع الإحالة إلى المصادر التي أخذتُ عنها. كما أعددتُ للعمل فهارس تحليليّة تُعين على البحث في ثناياه.

* * *

(1) كانت الأدبيات الأوروبية، لعهود طويلة من الزمان، تطلقُ على السلطان العثماني لقبَ السيد العظيم أو التركي العظيم.

(2) لأنني أحسبهُ اللقبَ الأشهرَ والأقدمَ لآل عثمان؛ فقد انتقل إليهم عن طريق السلاجقة، وإن كان اختلف في أول من تلقب به، فقيل: إن سكة أورخان كانت تحمل لقب سلطان وقيل إن مراد الأول هو أول من لقب نفسه بالسلطان في النقوش، وقيل إن محمد الأول هو أول من لقب من آل عثمان بهذا اللقب، وقيل هو بايزيد الأول بعد أن حصل على هذا الحق من الخليفة العباسي في القاهرة، والثابت أن أورخان لقب نفسه بهذا اللقب بل خلعه على أبيه، ففي نقوش جامع بروسه الذي بناه أورخان بن عثمان سنة 1334م نجد أنه يلقب نفسه بـ«السلطان بن سلطان الغزاة». انظر: (بركات)، مصطفى، **الألقاب والوظائف العثمانية**، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات 1517م–1924، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2000م، ص: 35.

وأخيراً؛ فإنَّ الفضل والمنّةَ لله من قبل ومن بعد، ولا بدَّ لي من توجيهِ الشُّكر والعرفان إلى المستشرقة الإيطالية البروفسورة ماريا بيا بيداني (Maria Pia Pedani) أُستاذة التَّاريخ الإسلاميّ بجامعة كافوسكاري في البندقية (Università Ca' Foscari Venezia) التي أمدّتني بمادّةٍ علميَّةٍ أفدتُ منها في إعداد الدراسة التمهيديّة للكتاب.

وعليَّ واجبُ الشُّكر إلى الصَّديقة الأستاذة لوريدانا ماركوتشا (Loredana Marcoccia) التي أعانتني على قراءة ما تعذَّر عليَّ قراءته، وتيسير ما استغلقَ عليَّ فهمهُ من النص الايطالي المخطوط، وأمدّتني بمراجعَ قيّمةٍ أفدتُ منها، لقد كانت خدماتها جليلة مقدَّرة، سهلت عملي طيلة إقامتي في إيطاليا، قبل أن أنتقل إلى إسطنبول، فأبدأ مرحلة جديدة من البحث والتنقيب.

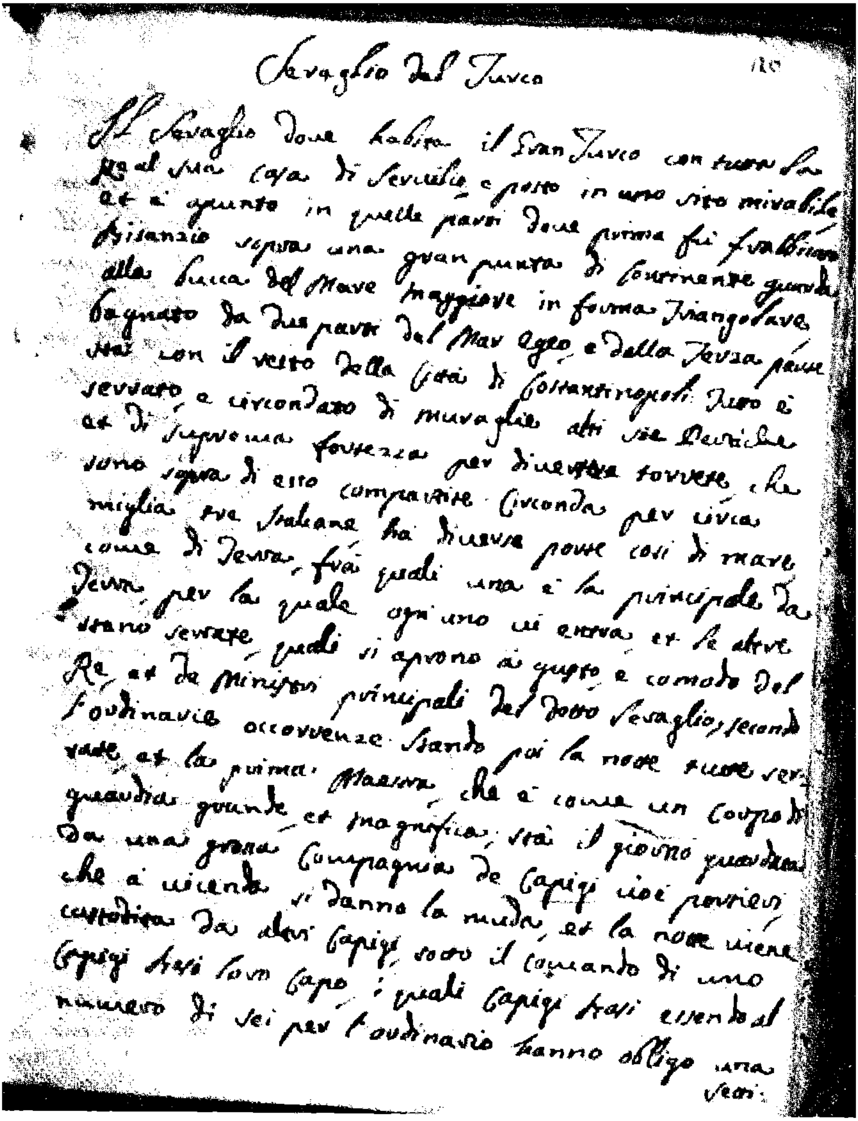
وإني لمدينٌ للأخ الصَّديق الدكتور محمود جرن، أُستاذ الدِّراسات الإيطاليَّة بالجامعة الأردنيّة، الذي تكلّفَ مشقَّة مراجعَةِ العملِ، فأعاد مقابلةَ النُسخِ، ودقّقَ الترجمةَ وقوّمَ ما فيها من خَلَل، ونبَّهني إلى ما وقعتُ فيه من هفواتٍ، وأشارَ عليّ بما وُهِبَ من معرفةٍ عميقةٍ باللُّغة الايطالية وذوقٍ رفيعٍ في العربيّة، بكثيرٍ من الآراء والمقترحات بما أثْرَى العملَ وأغناه.

كما أشكرُ العاملين في مكتبةِ متحفِ الكورّير (Biblioteca del Museo Correr) بمدينة البندقيَّة لحسنِ تعاونهم وأريحيّ تعاملهم، وأخصُّ بالشُّكر الأُستاذ بييرو لوكّي (Piero Lucchi).

وقد اجتهدتُ في إنجاز هذا العمل قدرَ طاقتي خدمةً للباحثِ في الشأنِ العثماني تاريخاً وإدارةً ونظامَ دولةٍ، فإن أحسنتُ فمن فضلِ الله، وإن أسأتُ فما أبرّئ نفسي، والله أسألُ أن يستثيرَ هذا العملُ المتواضع همّةَ العارفين بالإيطالية على وجه الخصوص، فيُقْبِلون على دراسة الوثائق التي دوّنها الأوروبيون عن العالم الإسلاميّ من تقارير سفارية ورحلات ومراسلات

وغير ذلك مما تحفلُ به خزائن المخطوطات ودور المحفوظات في أوروبا والعالم أجمع.

ولله الحمدُ والمنّة



Serraglio del Turco 110

Il Serraglio dove habita il Gran Turco con tutta la
Real sua casa di servitù e posto in uno sito mirabile
et è appunto in quelle parti dove prima fù fabbricata
Bisanzio sopra una gran punta di continente guarda
alla bocca del Mare maggiore in forma triangolare
bagnato da due parti dal Mar Egeo e dalla terza parte
stà con il resto della Città di Costantinopoli. Questo è
serrato e circondato di muraglie alti sei braccia
et di suprema fortezza per diverse torrette che
sono sopra di esso compartite. Circonda per circa
miglia tre Italiane ha diverse porte così di mare
come di terra, frà quali una è la principale da
terra per la quale ogn'uno vi entra et le altre
stanno serrate, quali si aprono à gusto e comodo del
Re et de ministri principali del detto serraglio, secondo
l'ordinarie occorrenze. Stando poi la notte tutte ser-
rate et la prima [illegible], che è come un corpo di
guardia grande et magnifica, stà il giorno guardata
da una grossa compagnia de Capigi cioè portieri
che à vicenda si danno la muta, et la notte viene
custodita da altri Capigi sotto il comando di uno
Capigi Bassi loro Capo, i quali Capigi Bassi essendo al
numero di sei per l'ordinario hanno obligo una
volta.

الورقة الأولى من نسخة الأصل

سراي السُّلْطَان

[موقع السَّراي]

يقعُ السَّراي حيث يقيمُ السلطان مع كلِّ حاشيتهِ الملكيّة في موضعٍ رائع[1]، تماماً في ذلك الجُزء حيث القَلْعةُ البيزنطيَّة سابقاً، على مُرتفعٍ عالٍ من البرّ يُطلُّ على مصبِّ البحر الأسْود، وعلى شكل ثلاثي بحيث يحفّهُ بحرُ إيجة[2] من جانبين، ومن الجانب الثَّالث يتَّصلُ بما تبقّى من القسطنطينية.

والسَّراي كلّه مُغْلقٌ ومُحاطٌ بسُورٍ عالٍ جداً محصَّنٍ بعدّةِ أبراج موزَّعةٍ في أعلاه، ويبلغ مُحيطه ثلاثة أميالٍ إيطاليّة، ولهُ عدَّة بَوَّابات من البرِّ والبحر.

[الباب الهمايونيّ]

وإحدى هذه البوَّابات هي البوَّابة الرَّئيسة من البرّ حيث يَدْخلُ منها الجميعُ كلَّ يوم، في حين تبقى البوَّابات الأخرى موصدة، وتفتحُ بمشيئةِ السلطان وكبار موظفي السَّراي حينما تقتضي الحاجةُ، أما في اللَّيل فتكون كل البوّابات مغلقةً.

وتَحرس هذه البوّابةَ الرَّئيسةَ الكبيرةَ والرَّائعةَ فرقةٌ كبيرةٌ من القابيجيَّة الذين يتناوَبون الحراسةَ فيما بينهم خلال النَّهار، وتتولَّى الحراسةَ في اللّيل

---

(1) في الأصل (Mirabile) رائع، وفي (ب) (Miserabile) منعزل، والحقيقة أن الموضع لا شكَّ رائع من حيث وقوعه على مرتفعٍ مطل على مضيق البسفور وبحر مرمرة، وهو كذلك منعزلٌ بسبب ارتفاعه واتصاله بالبرّ من جهةٍ واحدةٍ فقط.

(2) بحر إيجة هو أحد فروع البحر الأبيض المتوسط بين اليونان من الغرب وآسيا الصغرى من الشرق، وهو يتصل عن طريق الدردنيل ببحر مرمرة والبحر الأسود، ويبلغ طوله 400 ميل وعرضه 200 ميل. انظر:

Aegean Sea, *Encyclopedia Britannica*, vol. 1, (U.S.A: W. Benton 1972), p. 216

و Aegean sea, *The Encyclopedia Americana*, vol. 1, (U.S.A: Grolier Inc 1978), p. 212.

فرقةٌ أخرى من القابيجيّة، أي البوّابين، تحت إمرةِ قائدهم قابيجي باشي، وهؤلاء القابيجي باشي من حيث إن عددهم ستة في العادة، يتوجَّب على كلٍّ منهم المبيتَ بالتّناوب لمدّة أسبوع [1 أ] داخل السَّراي من أجل رعايتهِ وتأمينهِ جيّداً.

وإلى جانب هؤلاء القابيجيَّة، يُرابطُ في بيتٍ خشبي صغير خارجَ هذه البوَّابة بعض جنود الانكشاريّة، ويبقون مُتيقِّظين ومُراقبين لكلِّ الأمور ليتمكنوا من تنبيه أولئك الذين في الدّاخل، ونَقْل الأخبار حين تقتضي الحاجةُ. وتوجد حول أسوار السَّراي أبراج على مسافات متباعدة حيث يبيتُ فيها بعض العجمي أوغلان(1) أي الشُّبَّان الأغْرار، الذين يتولّون الحراسةَ ومراقبةَ من يقترب ليلاً من جهة البرِّ أو البحر، وينصبون بعض المدافع خصوصاً من جهة البحر، تكون جاهزة للاستخدامِ متى اقتضتِ الحاجة لكبح تهاون أو طيش أيِّ سفينةٍ تقتربُ من السَّراي.

وتوجد في هذا السَّراي غُرفٌ ملكيّةٌ كثيرة للسُّكنى في مختلفِ فصول السَّنة، ومعظمها مشيَّدةٌ على سَويّ الأرض، وبعضها فوقَ مرتفعات طبيعيّة، وأخرى منشأةٌ على البحر، وتسمّى الأكشاك، أي الغرف المُطلَّةُ، حيث يلوذُ بها السّلاطين للاستجمام وحدهم أو رفقةَ النِّساء.

ومن بين هذه الغُرف ثمَّةَ قاعةٌ يستقبلُ فيها السلطان جميع السفراء

(1) العجمي أوغلان (Acemi Oğlan) هم الأولاد المجلوبون من النصارى عن طريق نظام الدَفْشرمة، أو المأخوذون من بين الأسرى بغية استخدامهم في الجيش الانكشاري، ويتكون المصطلح من كلمتين؛ العجمي وتعني غير المسلم، كما يُراد بها من لا يمتلك المهارة والخبرة في العمل، وأوغلان وتعني الولد أو الفتى. وكان أكثرية العجمي أوغلان من غير المسلمين سوى عدد قليل من المسلمين وبخاصة من البوسنيين الذين دخلوا الجيش الانكشاري بمحض إرادتهم. وكان عمر العجمي أوغلان عند إلحاقه بالانكشارية يتراوح ما بين أربعة عشر عاماً وثمانية عشر عاماً، وقيل ما بين خمسة عشر عاماً وعشرين عاماً، ويُذكر أن إيجاد هذا الجيش قد تم في عهد السلطان مراد خان الأول (1362–1389م) وأُلغِي مع إلغاء الانكشارية سنة 1826م. صابان، **المعجم الموسوعي**، ص: 151.

وجميع الباشوات في أيام الديوان العام، وخصوصاً أولئك الذين يستأذنون للذهاب إلى المهامّ الموكلَة إليهم، وأولئك الذين يعودون [1 ب] بعد انتهاء مهامهم.

وتوجدُ هذه القاعةُ في فناءٍ صغيرٍ مُستقلٍّ، مزينة من الخارج ببعض النَّوافير الفخمة جداً حسبَ عاداتهم، ويوجد داخل القاعة صوفا، أي العرش، وهو موقد بوافر السجاد المذهب، إحداها بالأخصّ من المخمل القرمزي والمطرّز باللؤلؤ الكبير جداً، وعلى هذه الصُّوفا يجلسُ السلطان(1).

وجدرانُ القاعة مرصَّعة بأحجارٍ بيضاءَ مُزخرفة بألوان مختلفة على شكلِ أوراق الأشجار والأزاهير، وجميعها متَّسقة جيّداً بعضها مع بعض، ولمَّا كان الحائط كلّه مرصعاً بهذه الأحجار فإنَّ ذلك يجعلُ المنظر جميلاً جدّاً.

ويوجد أيضاً موقد مغطى بصفائح الفضَّة المُطعَّمة بالذَّهب، وأمّا أرضيّة القاعة فمفروشةٌ بسجاد فارسي من الذهب والحرير وافر وجميل جداً.

وبالإضافة إلى هذه الغُرف الملكيّة الكثيرة والموزّعةِ في أماكن مختلفة من السَّراي التي هي مهيأة لخدمةِ السلطانِ وحدَه، يوجد جناحٌ خاصٌ بالنِّساء حيث تقيمُ الخاصيكي سُلطان والسلطانات وجميع النسوة الأخريات من إماء السلطان، وتتوفَّرُ في هذا الجناح كل سبل الرَّاحةِ من غرف نومٍ وصالات طَعامٍ وقاعات وحمَّامات وكلّ أنواع المرافق الأخرى مما يلزم للعَيْش.

ولهذه الأجنحة الملكيّة حدائق فسيحةٌ من الأزهار وأشجار الفاكهة، وشوارعها محاطة بأشجار السّرو؛ جميلةٌ جداً، وتوجد نوافير بأعداد وافرة، بحيث يمكنُ القول إنّها تتوافرُ تقريباً لجميعِ [أ 2] الغرف على نحو رائع

---

(1) صوفا: تعني قاعة أو أريكة للجلوس، والكلمة من أصل عربي، من الصوف يكون مثل الوسادة، وقد دخلت الكلمة اللغات الهندوأوروبية خلال القرن الثامن عشر. انظر: Devoto e Oli, *Dizionario della Lingua Italiana*: Sofa، ولعلَّ الصوفا لم تكن معروفةً في الإيطالية آنذاك، ولذا فإنّ بون يشرحها للقارئ ويجعلها العرش الذي يجلس عليه السلطان.

ومريح. وتوجد بالقُرب منها قاعات مستقلّة ينتفع منها ليس كبار الموظفين والمتوسطين منهم فقط، بل أيضاً صغار الموظفين بحيث لا يعوزُ أحداً فيها أيُّ شيء.

ويوجد من بين هذه المباني، مَبْنَيان فاخران وكبيران ومنيعان جداً، أحدهما للخَزْنة، والآخر للملابس السلطانيَّة، وهما محصَّنان جيّداً لأنهما مبنيّان بجدران سميكة للغاية، وبعددٍ قليلٍ من النَّوافذ الحديديّة، ولكلٍّ منهما باب واحدٌ من الحديد قويّ، وهذه الأبواب تظلُّ موصدة دوماً، أما مبنى الخزنة فمختومٌ بالختم السلطانيّ، ويتبعُ لهذين المبنيين الفخمين غرفٌ منفصلةٌ في الدورين العلوي والسفلي.

وتوجدُ في هذا السَّراي مساجدُ حيث تُقامُ الصَّلوات، وحمّامات ومدارس ومستودع للأسلحة وأنابيق[1] للتَّقطير وإسطبلات ومطابخ ومخازن للمؤونة وأماكن حيث تجري الخيل، وساحات للقتال ورمي القوس والاستعراض، ومحصِّلةُ القول إنه يوجد في السَّراي كلّ سبل الرَّاحة التي يشتهيها المرء.

وجديرٌ بالذِّكرِ أن الذي يُضفي على هذا السَّراي الجمالَ والرّوعةَ هو ذلك النِّظام الموضوعُ لهُ؛ فثمّةَ أوَّلاً بوّابة كبيرةٌ وفخمة عند مدخل السَّراي، وتحت سقفه ترابطُ فرقةٌ قوية من خمسين رجلاً مزوّدين بأسلحتهم من البنادق والأقواس والسُّيوف بكميَّة وافرةٍ، وبعد عبور [2 ب] هذه البوّابة، التي يمكن للباشوات وكبار موظفي الدولة الدُّخول منها على ظهور الجياد، يفضي المرء إلى فناء كبيرٍ طوله ربع ميل إيطاليّ وعرضه قرابة ذلك، ويوجد فيه من ناحية الشّمال مظلَّة واحدةٌ جُعلت لكي تأوي الخدمَ والخيلَ في أوقات المطر.

ويوجد في هذا الفناء الكبير في النَّاحية اليمنى مستشفى يقومُ على خدمة كلّ مَن في السَّراي، وهو مُجهَّزٌ بكل اللّوازم الضَّروريّة، ويشرفُ عليه أحد

(1) جمع إنبيق: أداةٌ للتقطير.

الخصيان ومعهُ عدَّةُ موظفين لرعاية المرضى، ويوجد في النَّاحية اليسرى مبنى عظيمٌ يحوي أخشاباً وعرباتٍ وغير ذلك من الأمور الضّروريّة لأجل الاستعمال والخدمة لدى السراي، وفوق هذا المبني صالةٌ كبيرةٌ، حيث توجدُ بعض الأسلحة القديمة، كالخوذات والأتْرَاس الواقية والبنادق والرّماح التي تستخدمُ لتسليح الانكشاريّة وموظفي الترسانةِ، وثمَّةَ ملابس من أجل استقبال السلطان والباشَوات الكبار أثناء المراسم الرَّسميّة لدخُولهم القسطنطينية.

[الباب الأوسط]

وبعد تجاوز هذا الفناء، يفضي المرء إلى بوّابة أخرى أصغر قليلاً من سابقتها، ولكنها تشبهها من حيث الشَّكل، وهي أجمل وأكثر زخرفةً، وتحتها مظلةٌ للحرّاس [3 أ]، وهي كذلك تحت إشراف قابيجي ومزودة بالأسلحة كما أسلفنا، وينتقلُ المرء من خلال هذه البوّابةِ إلى فناء آخر أصْغر بقليلٍ من سابقه ولكنَّه أجملُ منه؛ إذ يوجد فيه العديد من النَّوافير الفخمة والمتنزّهات التي تحيطُ بها أشجار السَّرو العالية، وبعض المروج الخضراء حيث تنمو الأعشابُ فترعى بعض الغزلان وتتكاثرُ، وتُربّى لما تجلبه من بهجة.

ويسيرُ الجميع مترجِّلين في هذا الفناء، ما عدا السلطان، فإنّه ينتقل حتّى البوّابة الثَّالثة ممتطياً صهوةَ جوادهِ، ويوجد على طرفي الفناء رواقان منصوبان على أعمدةٍ فخمةٍ يقف خارجهما بانتظامٍ الجاويشيّة وفرق الانكشاريّة والسَّباهيّة بثيابٍ فخمةٍ جداً، عند دخول بعض السفراء الذين يعبرون لأجل الدُّخول على السلطان وتقبيل ثوبه، وذلك حينما ينعقدُ الديوان العام.

وتوجد في هذا الفناء من ناحية اليمين جميعُ المطابخ وعددها تسعةٌ،

وجميعها منفصلةٌ بعضها عن البعض، ولكلٍ منها مخازن للمؤونة وموظفون، وأوّل هذه المطابخ وأكبرها خاصّ بالسلطان، والثّاني بالسلطانة الوالدة، والثّالث بالسلطانات، والرّابع بالقابي آغا، والخامس بالديوان، والسادس والسَّابع بصغار الموظَّفين، والثَّامن بالنِّساء، والتَّاسع بموظفي الديوان وحرسه والقائمين عليه.

ويوجد من ناحية الشّمال إسطبل السلطان [3 ب] وفيه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين جواداً جميلاً للغاية، يستخدمها السلطان عند ممارسة الرِّياضَة والألعاب مع المقربِّين له داخل السَّراي، وفوق هذا الإسطبل عددٌ من الغرف حيث تحفظُ جميع لوازم الخيل، وحيث إنّي رأيتُ هذه الغرف، فيمكنني القول: إنها من الجمال والرّوعة ما هو فوق العادة، وذلك بما تحويه من الأسْرجة واللُّجُم والمعدَّاتِ والأغطية المزركشةِ بكل أنواع الجواهر بروعةٍ وصنعةٍ عظيمتين، وبكميّةٍ وافرةٍ مما يثيرُ الدَّهشةَ في نفس مَن يراها لأنها تطلقُ العنان لخياله.

ويوجد بمحاذاة هذا الإسطبل بعض المباني يستخدمها موظفو الديوان، أي مكان الاستقبال العام، وبعد عبور ثُلثي هذا الفناء توجدُ قاعة الديوان العام، يلتصق بها مبنى الخزنة التي تسمّى الخزنة الخارجيّة وعندما تكون مغلقةً فإنها تُختمُ بختم الباشا الوزير الأوّل[1]. وتوجدُ في السّاحة نفسها بمحاذاة الديوان تقريباً، ولكن خلفهُ من ناحية الشمال، البوّابةُ التي تؤدّي إلى النِّساء، وتُسمّى بوابة السلطانة، ويُشْرفُ عليها بعض الخصيان السُّود.

---

(1) يُقصدُ بالباشا الوزير الأول الصدرُ الأعظم، وهو رئيس الوزراء في الدولة العثمانية، وكان وكيلاً مطلقاً للسلطان، وللتفريق بينه وبين غيره من الوزراء أطلق عليه الوزير الأعظم، كما لقب بالصدر العالي وصاحب الدولة، غير أن لقب الصدر الأعظم انتشر أكثر من غيره واستمرّ استخدامه حتى اضمحلال الدولة، وكانت لديه صلاحيات كافّة الأمور في الدولة، وكان لديه ختم السلطان، ويطلقُ على الدائرة التي يعملُ فيها الصدر الأعظم باب الباشا أو الباب الآصفي. انظر: صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 143–144.

[باب السّعادة]

وينتهي هذا الفناءُ المُذْهل والجميلُ عند البوّابة الثَّالثة التي تُدعى باب السلطان[1] والتي من خلالها [4 أ] يَلجُ المرء داخل السَّراي حيث الغرفُ المخصصة فقط لاستعمال السلطان الشَّخصي والخدم الذين يقومون على خدمتهِ، ولا يمكن لأحد أن يدخل من هذه البوَّابة دون مشيئة السلطان، هذا إذا ما أردنا الحديث عن كبار الشخصيّات، أمّا من يقومون على الخدمة كالأطبّاء أو القائمين على مخازن المؤونة والمطابخ فيمكنهم الدُّخول بإذنٍ من القابيجي آغا وهو كبير الحرس، وتوكل إليه مهمة حراسة هذه البوَّابة، وحيث إن مسكنهُ قريبٌ، فإنَّه يوجد دائماً هناك مع آغواتهِ الخصيان مثلهِ، وكل ما يُقال عن الأشياء داخل هذه البوَّابة فإنَّ معظمها بالتناقل، لأنه لا يمكنُ لأحد أن يراها، وإن استطاعَ أحدٌ أن يرى جزءاً بسيطاً فإنَّ ذلك يتمّ في غياب السلطان، وذلك من خلال إحدى بوَّابات البحر، وبواسطةِ أحدِ المقرَّبين إلى السلطان، ويتمُّ بصعوبةٍ بالغة بسبب الإجلال الذي يريدون أن يحيطَ بالسلطان وبغُرفهِ.

وبعد عبور هذه البوّابة، التي لها أيضاً مظلَّة فخمة ولكن دونما حرس، يمكنُ القول: إنه يتمُّ الدُّخول إلى القاعة آنفة الذكر المخصَّصة للاستقبال العام؛ حيث يستقبلُ السلطان السفراء والباشوات، وعند الدُّخول إلى هذه القاعة تظهرُ باحةٌ فخمةٌ مغطَّاة كلّها بالمرمر الرَّقيق والمشغُول بشكل فسيفسائي، وتوجدُ في كلّ الجهات نوافير وغُرف فخمة جداً، لأنّه عادةً [4 ب] ما

(1) ويُدعى باب السّعادة أو الباب العالي، وهو الباب الثالث من أبواب القصر يفصل بين الأندرون والبيرون، وكان يطلق عليه كذلك باب الأغوات البيض، ويتكون من بابين متداخلين مقابل رواق يستند على أعمدة رخامية حيث يجلس فيه السلطان في مراسم الأعياد. انظر: صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 48—49.

يستعملها السلطان للسُّكنى والأكل والاسْتجمام.

ولمَّا اتَّفقَ أن كان السلطان خارجاً إلى الصَّيدِ، وبِحُكم الصَّداقة التي كانت تجمعني بالكيخيا وهو رئيس البستنجي باشي[1] أي رئيس بستانييّ السلطان، فقد قيض لي الدُّخول بمعيَّتِه إلى السَّراي من جهةِ البحر من البوَّابة المزخرفة بالنقوش، وقادني لرؤية عدَّةِ قاعاتٍ يستعملُها السلطان وعدَّةِ حمّامات وأشياء أخرى جميلة وغريبة لوفرة الأشياء المشغولة بالذَّهب ولكثرة النَّوافير. ورأيتُ بالأخصّ جناحاً من الغُرف الصَّيفيّة مقاماً فوق ربوةٍ مكوناً من صالةٍ وغرفةٍ، وهو رائعٌ من حيث موقعه؛ إذ يبدو وكأنهُ مكانٌ مُعدٌّ لإقامة ملكٍ عظيم، وهذا هو الديوان، أي الصَّالة المفتوحة من ناحية الشَّرق، ويقعُ فوقَ هضَابٍ جميلةٍ للغاية تُطلُّ على بحيرةٍ مربَّعة الشَّكل مصطنعةٍ من بعضِ النَّوافير وعددها ثلاثون نافورة منصوبةً، وموزعةً فوق ممرّ مرصوف بالمرمر الرَّقيق يحيطُ بهذه البحيرة، وهكذا ترسل النَّوافيرُ الماءَ من الممرِّ إلى البحيرة ويصبُّ ماؤها في بعض الحدائق التي تجعل هذا المكان جميلاً للغاية. ويتسعُ هذا الممرّ لرَجُلَين معاً، ويمكنُ التنزُّه والتَّمتُّعُ بالنَّوافيرِ وبصوت خريرها العذب [5 أ].

ويوجد في هذه البحيرة يختٌ صغيرٌ، وقد قيل لي: إنَّ جلالة السلطان غالباً

---

(1) كان البستنجي باشي يتمتع بنفوذ واسع في القصر، فقد كان يشرفُ على تأديب الموظفين المخالفين وعلى عقابهم، ويندرج تحت إمرته أكثر من ألفي رجل يقومون بمختلف الأعمال، وكان رجاله يعرفون بالبستانيين أو البستنجية لأن وحدتهم نشأت في الأساس لتحويل الأراضي المهملة حول القصر إلى حدائق وبساتين، ومع هذا فالواقع هو أن القليل منهم فقط كان يعمل في البستنة أما غالبيتهم فكانوا مراقبين أو حراساً على الأبهاء المتناثرة في القصر وعلى بعض أبواب السور المحيط بالقصر أو على الموانئ الصغيرة، كما كان البستنجي باشي يشرف على تجهيز الطيور والأغنام إلى مطبخ السلطان وإزالة الأوساخ من القصر وما حوله، كما كان يُشرف على شؤون المنجمين والموسيقيين وغيرهم ممن يحضرون لتسلية السلطان وحاشيته. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 134–135.

ما يركبه برفقةِ المهرّجين من أجل أن يقوموا بالتّجديفِ[1] في أثناء استجمامهِ، وكي يمازحهم فيلقي بهم في الماء، مثلما يحدثُ في كثيرٍ من الأحيان حين يتمشّى معهم في الممرّ، ويُمازحهم ويُدَحْرِجهم قبل أن يُلْقي بهم في البحيرة.

[غرفة نوم السلطان]

وقد رأيتُ أيضاً من نافذة هذا الديوان غرفةَ نومِ جلالتهِ وكانت عاديّة الحجم، وجدرانها مرصّعة كالعادة بالأحجار، أي بالميوليق[2] الرّقيق جداً الذي يُظهرُ أشكالاً ووروداً بألوان مختلفةٍ مما يجعل المنظرَ رائعاً للغاية. وتوجد فوق الأبواب ستائر كما المعتاد ولكن من قماش بورصا[3] الذَّهبي المُزَخرف بالمخمل القرمزيّ والمطرَّز بالذَّهب والمُطَعَّم بوافر اللؤلؤ.

وأمّا سرير السلطان فهو يشبهُ المظلّة الرُّومانيّة، ويقوم على أعمدةٍ من الفضَّةِ مخدَّدةٍ، وتوجدُ في أطرافه أشْكال الأُسُودِ من الكريستال، والأغطية من الكساء المذهَّب والأخضر من بورصا أيضاً ولكن بدون زركشة، حيث توجد في موضعٍ مّا الزَّخارف المطرَّزة المشغُولة باللؤلؤ، ويظهر أنها مشغولات ذات قيمة عظيمة ومصنوعة بإتقان.

وأما الفُرُش فهي مرتفعة قليلاً عن الأرض قدرَ شبرٍ، وهي أيضاً مطرَّزة

---

(1) وكان يقوم بمهمة التجديف بقوارب السلطان قسم من البستنجيّة كان يُطلقُ عليهم الصندلجيّة. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 134–135.

(2) الميوليق ضرب من الخزف الإيطالي خلال عصر النهضة الأوروبية مزخرف ومطلي بالمينا.

(3) نسبةً لمدينةِ بورصا، وكانت من أهم وأوسع المراكز شهرة في صناعة المنسوجات الحريرية في الإمبراطورية العثمانية، وكانت المركز التجاري الرئيس للحرير الإيراني المتّجه إلى المدن الإيطالية، كما تطوّرت صناعة الحرير المحلي في المدينة لتزويد القصور العثمانية والأسواق الأخرى في الشرق الأوسط وأوروبا بالأقمشة المطرّزة و بالحرير. انظر:

Halil Inalcık, *An Economic and Social History of the Ottoman Empire*, p. 19.

بالذَّهَبِ كما هو الحال بالنِّسبة إلى الوسائد. وأرضيّة هذه الغرفة، كغيرها من الغرفِ مغطّاة بالكامل بالسجاد الفارسي الفاخر والمشغول بالحرير والذّهب، وتوجدُ فيها الأرائكُ، حيث [5 ب] يجلسُ جلالتهُ، مرتفعةً عن الأرض قرابةَ نصفِ ذراعٍ، وفرش الجلوس ووسائد التوكّي كلها مُطرّزة بالذّهب والحرير بشكلٍ جميلٍ للغاية.

ورأيتُ في وسط الديوان فانوساً دائري الشّكل ومائلاً وكبيراً جداً، وأطرافه من الفضّةِ المطليّةِ بالذّهبِ ومليئة بالفيروز والياقوت والزّمرد، وأمّا الوسط فمن الكريستال الرَّقيق مما يجعلُ منظره بديعاً.

ويوجد حوضٌ صغيرٌ لغسل اليدين، وله وعاءٌ من الذَّهب الخالص المطعَّم بالفيروز والياقوت الجميل للغاية مما يجعلُ المنظرَ رائعاً.

ويقعُ خلف هذا الديوان مكانٌ للرَّمي بالنشاب حيث يوجد الكثير من الأقواس والسهام الجميلة للغاية، وقد أُطْلِعْتُ على أهدافٍ نالتها سهام السلطان بذراعه القويَّة، وهذه الأهداف كبيرة جداً مما أثار دهشتي.

[الديوان خانه]

والقاعة المسمّاة الديوان العام هي عبارة عن جناح تمّ بناؤه قبل أعوامٍ قليلة، وهو مربّعُ الشّكل، ومساحته ثمانية أقدام مربّعة، وله غرفة خلفيّة للخِدْمَة، وأخرى بمحاذاتها من جهة اليمين عند المدْخل يقسمها فقط الديوان بنهايات تفضي إليها. ويوجد خارج بوّابة الديوان كوخانِ موضوعان مؤقّتاً لسكنِ الموظّفينَ، وبعض الأكواخ الأخرى القريبة والمعدَّة [6 أ] للنَّظر في الدَّعاوى المرفوعة.

ويخصَّصُ لهذا الديوان الذي يسمى كما أسلفت الديوان العام لأن أي

شخص من العوام يمكنهُ المشاركة فيه، والدُّخول إليه خلال الأيام المحدَّدة وذلك لطلبِ العدالة والفصلِ في الادّعاءات والمنازعات أيّاً كان نوعها أربعةُ أيامِ من الأسبوع هي: السَّبتُ والأحد والاثنين والثلاثاء، وينتهي يومَ الجمعةِ لأنهُ يومُ العُطلةِ.

ويحضرُ الديوان الصَّدْرُ الأعظم مع الوزراء الآخرين وقاضي عسكر الرّوملي وقاضي عسكر الأناضول[1]، وهما رئيسا جميعِ القضاةِ في هاتين المقاطعتين، والقُضاةُ هم رجالٌ عمدة في القانون، ولما لهم من ميزةٍ فإنّهم يحكمون كولاةٍ على كلّ مناطق ومدنِ الإمبراطورية.

ويحضرُ الديوان الدَّفتردارون الثَّلاثة، وهؤلاء هم مثل رجال القانون الرُّومان، يتولون جبايةَ الإيرادات الملكيّة ودفعَ كلّ الأموال للجنود ولموظفي الباب، والنشانجي وهو الذي يختمُ المراسيم والرَّسائل بطغراء السلطان، وكُتَّابِ جميع الباشوات وكبار رجالات الدولةِ مع عددٍ كبيرٍ من الكَتَبَةِ الذين يقفون دائماً على باب الديوان آنف الذكر. والجاويش باشي وهو رئيس الرُّسل ومعهُ عددٌ لا بأس بهِ من الجاويشيَّة آنفي الذكر الذين يُطيعون أوامرَ الجاويش باشا الذي يحملُ في يدهِ عصا من الفضّة [6 ب]، بالإضافةِ إلى آخرين مهمّتهم المناداةُ على النَّاس، وحمل الرَّسائل والحراسة، ونحو ذلك من المهام، وجميعُ هؤلاء يحضرون الديوان في الفجر.

وحين يدخل جميع الباشَوات إلى الديوان، فإنَّهم يجلسون قبالةَ المدخل من الجهة اليمنى، على دكَّةٍ مثبّتةٍ بالجدار كلٌّ حسبَ مرتبتهِ عن يمينِ الصَّدْر

(1) كان منصب قاضي عسكر في عهد السلطان محمد الفاتح هو المنصب الوحيد الذي يمكن أن يصدر فتاوى الأحكام الشرعية، غير أنه منذ عام 1481م انفصل «قضاء عسكر» إلى اثنين: قضاء عسكر الروملي وقضاء عسكر الأناضول، فإذا ترقَّى قاضي إسطنبول في المنصب يصبح قاضي عسكر الأناضول، وهذا إذا ترقى أصبح قاضي عسكر الروملي، وهو المنصب الذي يأتي بعد المشيخة الإسلامية مباشرةً، وكانت وظيفة قضاة عسكر تتمثل في إصدار الأحكام والفتاوى الشرعية، والرد على الاستفسارات الموجهة إليهم من أفراد المجتمع. صابان، **المعجم الموسوعي**، ص: 174.

الأعظم، ويجلسُ فوقَ الدكة نفسها من الجهةِ اليسرى القاضي عسكر كلاهما، قاضي عَسكر الرُّوملي أوَّلاً، من حيث إنها المقاطعة الأشرف والأهمّ، ثمّ قاضي عسكر الأناضول، ويجلس في الجهة اليمنى من المدخل الدَّفتردارون الثَّلاثة، ويكون وراءهم في الغُرفة آنفة الذكر جميعُ الكَتَبَة الذين يجلسون على الأرض وبأيديهم الورق والأقلام، مُستعدِّين لكتابةِ كلّ ما يلزم وكلّ ما يُؤمرون به.

ويجلسُ في النَّاحيةِ الأخرى من القاعةِ فوقَ دكّةٍ أيضاً قبالةَ هؤلاء الدَّفتردارين النشانجي باشي وبيدهِ القلم، ويحيطُ به موظفوه، ويقفُ وسطَ القاعةِ كل أولئك الذين يريدون الاستماعَ لهم.

وعندما ينعقدِ الديوان فإنَّهم يستهلُّون بالفصل بين أصحاب المطالب الحاضرين دونما محامين؛ لأن العادةَ أن يتقدَّموا بادِّعاءاتهم بأنفسهم، ويجعلوا الصَّدْرَ الأعظم حاكماً بينهم، الذي بإمكانه– لو يشاء– أن يفصلَ في كلّ شيءٍ، ذلك أن جميع الباشوات الآخرين لا يتكلَّمون [7 أ] بل ينتظرون أن يطلبهم الصَّدْرُ الأعظم، أو أن تُوكلَ إليهم مهمةُ القضاء، وهذا ما يحدث غالباً، لأن الصَّدْر الأعظم بعد أن يعرف جوهر الادِّعاء فإنه يريح نفسه؛ فإن كان الأمر يتعلَّقُ بالأحوال المدنيَّة فإنه يُحيله إلى القاضي عسكر، وإن كان يتعلَّق بالحسابات فيُحيله إلى الدَّفتردار، وإن كان يتعلَّق بالاحتيال كما يحدثُ غالباً فإنه يُحيله إلى النشانجي، وإن كان الادِّعاء بشأن العقود التجارية حيث تكونُ هناك مشكلة كبيرة فيُحيله إلى أحد الباشوات الآخرين، وهكذا يتخلَّص الصَّدْر الأعظم إن شاء من هذه المسؤوليَّات، ليتفرَّغ لمصالح أكثر أهميّةً بين الأمم الأجنبيّة والتي يمكن لها أن تعود عليه بالنَّفعِ.

[وقتُ الغداء في الديوان خانه]

ويبقى الجميعُ على هذا المنوال حتّى منتصفِ النّهار حيث تحينُ ساعةُ الغداء، فيبرزُ أحد الخدم المخصَّصين لهذه الخدمة، ويستأذنُ الصَّدْرَ الأعظم لإحضار الطَّعام له، ويُصْرَفُ في الحال جميعُ المتخاصمين، وحينما تخلو القاعةُ فإنَّ الموائد توضع على النَّحو الآتي: تُقدَّمُ فوق منضدةٍ صغيرةٍ أمام الصَّدْر الأعظم صينيةٌ من النُّحاس المطلي بالقصدير؛ مستديرة وكبيرة كقاع برميل، يأكل فيها الصَّدْر الأعظم مع واحد أو اثنين من الباشوات الآخرين، وتُجهَّزُ مائدةٌ مشابهة للباشوات الآخرين الذين يأكلون معاً، ومثلها للقاضي عَسكر وللدَّفتردارين والنشانجي. ويضعُ عددٌ من الخدمِ مناديلَ على ركبِ الجميع من أجل المحافظة على الملابس، ويُحضرون الأطباق بعد أن يكونوا [7 ب] قد ملأوا حولهم عدداً من الصّواني بوافر الخبز من مختلف الأنواع، وجميعه طريّ وطيِّب، ويؤتى بالأطباق واحداً تلو الآخر، وتوضع وسطَ تلك الصّينيَّة في طبق يُسمُّونه الطَّاس[1] وهو منيع وكبير، وعندما يَفْرغُ أحد الأطباق فإنَّه يُرفعُ ويُؤتى بآخر.

ويكون طعامهم عادةً، لحم الضأن والدَّجاج والحمام ولحم الإوز ولحم الخراف والفِراخ وشوربة الأرز والحبوب المُعدَّة بطرق مختلفة، ثمّ الحلوى بعد الأكل، وهكذا يقوم الخدمُ بتقديم الطَّعام بسرعةٍ، ويأكلُ مما تبقّى من هذه الموائد كل موظفي الديوان، ويؤتى لهم من المطابخ زيادةً من كلّ ما يحتاجون إليه، ويؤتى بالشّراب مرَّةً واحدةً للباشوات وكبار رجالات الدولة، وهو عبارة عن «شربة» في طواس من البورسلان كبيرة موضوعة فوق أطباق من المادّة نفسها ومُزخرفة بالذَّهب من الخارج، أما الآخرون فإنّهم لا يشربون أو

(1) الطَّاسُ كلمةٌ عربية الأصل، وقد دخلت إلى اللغة التركيّة (Tas)، وكذلك الإيطاليّة (Tazza).

أنهم يرسلون مَن يأتيهم بالماء من الينابيع القريبة إن كانوا عطشى.

وفي الوقت نفسه الذي يتناولُ فيه رجالات الديوان طعامَ الغداء فإن كلّ الموظفين والحُرَّاس يتناولون طعامهم أيضاً، ولا يقلّ عدد هؤلاء عادةً عن خمسمئة رَجُلٍ، ولا يُقدّمُ لهم سوى الخبز والشوربة، أي الحساء مع القليل من اللّحم.

[الدُّخول على السلطان]

وعندما يفرغُ الموظفون والانكشاريّون والسّباهيَّة [8 أ] القائمون على شؤون الديوان من الغذاء، يتفرَّغُ الصَّدْر الأعظم للشُّؤون العامَّة، وبعد التَّشاور فيما يرى ويحبّ مع الباشوات الآخرين، فإنّه يبتُّ بنفسه في كلّ شيء حسب رغبته، ويستعدُّ للمثول بهِ أمام السلطان، لأن العادة جرت أن يتمّ إطلاع جلالتهِ على جميع الشُّؤون، التي تم الفصلُ فيها في يومين من أيام الديوان الأربعة، وهما الأحد والثلاثاء، ولأجل ذلك فإن السلطان يجري المقابلة، وبعد أن يكون قد فرغ من غدائه هو أيضاً، فإنه يمرُّ بغُرَفِهِ داخل ديوانهِ حيث يجلسُ، ويرسلُ لهذا الشَّأن حاجبهُ الذي يتولَّى مهمّة المناداة للدُّخول على السلطان، وهو قابيجي لير جاويشي، الذي يحملُ في يده عصى طويلةً من الفضّةِ، فيدعو أوَّلاً القاضيي عسكر اللذين ينهضان وينحنيان احتراماً للصَّدر الأعظم، ثم ينصرفان برفقة القابيجي الآنف الذكر ورئيس الجاوشيّة، وفي يد كلٍ منهما عصا من الفضّة ويسيران أمام القاضي عسكر، ثم يدخلان على السلطان، ويُطلعانه على ما تخوّله لهما مسؤوليتهما، وعندما يتمّ الفصل في هذه الشُّؤون فإنهما ينصرفان، ثم يعودان إلى بيوتهما.

وبعد القاضي عسكر، يُنادى على الدَّفتردارين الذين يَدْخلون على

السلطان بالأسلوب نفسه، وحينما يتمّ الفَصْل في شُؤونهم فإنَّهم ينصرفُون ليفسحوا المجالَ للباشوات الذين يدخلون أخيراً وقد اصطفوا واحداً وراء الآخر، ولما يدخلون الديوان في حضرة السلطان وأكفهم مضمومة ورؤوسهم مطأطأة كما يفعلُ الآخرون [8 ب] جميعهم، فإن الصَّدْر الأعظم هو وحدهُ من يتحدَّث ويطلع السلطان على ما يشاءُ، ويُطْلعهُ على كلّ التَّقارير واحداً واحداً، ثمّ يُدخلها في حقيبةٍ من السَّاتان القرمزيّ، ويضعها بتواضعٍ جمّ إلى جانب السلطان. وإذا لم يطلبْ إليه شيءٌ آخر، دون أن يتكلَّم أيٌّ من الباشوات الآخرين البتَّةَ[1]، فإنَّ الصَّدْر الأعظم وجميع الآخرين يَنْصرفُون، ويركبون الخيل خارجَ البوَّابة الثَّانية آنفة الذكر، يرافقهم مَن هم تحتَ إمرتهم وغيرهم، صُحبةَ الصدر الأعظم على وجه الخصوص[2]، ويعودون إلى بيوتهم، وهكذا يكون الديوان قد انتهى لهذا اليوم، إذ يكون المساءُ قد حلَّ.

وجدير بالذكر أنه في كثيرٍ من الأحيان يذهب إلى هذا الديوان كلّ من آغا الانكشاريّة وقبطان البحر، عندما يصادفُ وجودهما في القسطنطينية، ولديهما أعمالٌ يقومان بها، ويكونُ ذلك فقط في اليومين اللذين [9 أ] يتمُّ فيهما الدُّخول على السلطان، فيدخُلان هما أيضاً مع الباشوات من أجل اطلاع السلطان على الشُّؤون المناطة بالترسانة والجيش، ويجلسُ القبطان على الدَّكَّةِ نفسها التي يجلس عليها الباشوات، ولكنَّه يجلسُ آخراً، وإن كان في رُتبةِ باشا وزير، كما هو الحال في أغلب الأوقات، فإنّه في هذه الحالة يجلسُ في مكانه المخصّص له حسبَ رُتبتهِ ثانياً أو ثالثاً.

(1) يشير بون في تقريرٍ آخر أن من يجرؤ على عرض مسألةٍ على السلطان دون رغبة وموافقة الصدر الأعظم فإنه يفقد هيبته وقد يفقد حياته أيضاً. انظر:

Pedani, Maria Pia (1996), *Relazioni di Ambasciatori Veneti al Senato*, vol. XIV, Relazioni inedite, Costantinopoli (1508-1789), Padova, 1966.

(2) يذكرُ ويذرز أن حاشيةً كبيرة من مئة فردٍ من الجاويشيّة ترافق الصدرَ الأعظم في عودته إلى بيته.

وأما آغا الانكشاريّة الذي لا يجلس في الديوان، بل يدخل من البوّابة الثّانية من السَّراي مُتَّجهاً إلى الأمام مباشرةً تحتَ الرِّواق، فإنه حينَ يتوجَّب عليه الذهاب إلى الديوان، يُقدِّم دخولَه على آنفي الذكر جميعهم، وعندما ينتهي من رؤية السلطان، يعود ليجلس في موضعهِ حتى ينقضي الديوان، ويكون آخر من يغادرُ من كبار المسؤولين.

وقد درجَ السَّلاطينُ السَّابقون على حضور مجالسِ الديوان، وأمّا السلطان الحالي[1] فإنَّه أحياناً ينتقلُ من غُرفهِ إلى نافذةٍ تطلُّ على الديوان فوقَ رأس الصَّدْر الأعظم، ويكونُ على النَّافذةِ شبكٌ بحيث يمكنُ للسّلطان أن يَرى ولا يُرى، ويشاهِدُ جلالته من خلال هذه النَّافذة ويفهم كلّ ما يجري في هذا الديوان، وخاصة عندما يتوجَّب عليه استقبال سفير أحدِ كبار الأمراء، لأجل رؤيته يأكلُ مع الباشوات ولكي يفهم ما يتمّ تداوله، وهذا الأمر يصبُّ في مصلحةِ العدالة؛ ذلك أن الصَّدْرَ الأعظم يخافُ دوماً على رأسه أن يُقْطعَ، ولذا فإنهُ يكون دائماً شديدَ الحذر[2].

---

(1) وهو السلطان أحمد الأول.

(2) كان السلاطين في العهود الأولى يترأسون مجالس الديوان، بيد أنهم امتنعوا عن ذلك عندما بدأوا يقلدون البلاطات الإسلاميّة المبكرة في المراسيم ومظاهر الأبهة، وكان أول من ترك هذا التقليد هو السلطان محمد الثاني متخلياً عنه للصدر الأعظم، والسبب في ذلك حسبَ رواية المؤرخين العثمانيين أن فلّاحاً من المتظلمين دخلَ أثناء انعقاد الديوان وقال: «من منكم السلطان؟ لديّ شكوى» وكان في ذلك إهانةٌ للسلطان فانتهزَ الصدرُ الأعظم كديك أحمد باشا ذلك واقترح على السلطان أن يتجنّب هذا الحرج وألّا يحضرَ إلى الديوان شخصيّاً، وبدلاً من ذلك فإن بإمكانه أن يراقب الإجراءات من وراء ستارة أو حاجز، وبقي الأمر كذلك حتى زمن السلطان سليمان القانوني الذي امتنع عن الحضور حتّى بهذه الطريقة تاركاً الأمر كلّه للصدر الأعظم. انظر:
Lewis, Bernard, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, pp. 86-87.

[استقبال السفراء في الديوان خانه]

يتوجَّب على سُفراء الملوك تقبيل ثوب السلطان ويتمُّ ذلك غالباً في أيام الأحد والثّلاثاء، وهي الأيام المخصَّصة لمقابلة السلطان، وذلك تجنُّباً لإزعاج جلالته في الأيام الأخرى، ولذا فإنَّ الصَّدْر الأعظم يدعو إلى الديوان العام، وهذا يعني دعوة جميع كبار الدولة، وجميع الجاويشيّة، وجميع السِّباهيَّة وهم جنود يركبون الخيل، وجميع الانكشاريَّة وهم جنود رُجّال والذين هم جميعاً تحت إمرة رؤسائهم، مأمورون بأن يرتدوا أفضل ما يمكنهم ارتداؤه، وأن يتَّجهوا إلى مواقعهم في الباحة الثَّانية، موزّعين على الجانبين بطريقةٍ تُضْفي على مظهرهم جمالاً أخّاذاً، وذلك لأن ملابسهم فاخرة، وهم يعتمرون العمائمَ والقلنسوات الجميلة للغاية والمزيَّنة بالرِّيش من كلّ نوع.

وحينما ينعقد الديوان حيث يتمّ إنجازُ القليلِ من الشُّؤون في ذلك اليوم، فإنَّ الصَّدْر الأعظم يُرسلُ الجاويش باشي مع كثير من أتباعه الجاويشيَّة راكبين الخيل لأجل إحْضار السَّفير.

وعندما يُؤتى به إلى الديوان، فإنّه يجلس قبالة الصَّدْر الأعظم في مقعدٍ مُزَخرفٍ بالتَّطاريز، وبعد شيءٍ من الحديث اللَّطيف، يأمر الباشا أن يؤتى بالطَّعام الذي يجيء به رئيس الطَّبّاخين بالطَّريقة نفسها آنفة الذكر، فيأكل السَّفير مع الصَّدْر الأعظم وواحد أو اثنين من الباشوات الآخرين، ولا يكون هناك أي اختلاف عن العادة سوى أن الصّينيَّة تكون أكبر، وكلها [10 أ] من الفضَّة، وتكون الأطعمةُ أوفر وأطيب، وينفق جلالة السلطان على كلّ مائدةٍ ألف سكود[1] من الذَّهب لرئيس المؤونة.

---

(1) السكود (Scudo) عملة نقدية من ذهب أو نحاس جرى تداولها في فلورنسا والبندقية بداية القرن السادس عشر، وقد أطلق عليها الأميرُ فخر الدّين المعني الثاني أثناء إقامتهِ في إيطاليا الشكوت وشكوة. انظر: المعنيّ الثاني، الأمير فخر الدين، **رحلة الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني**=

ويكون التُّرْجُمان حاضراً على المائدة دائماً، حتى يفهم كلّ ما يلزم ويبقى كذلك، حتّى يرسل السلطان داعياً إلى المثول بين يديه وبعد أن ينتهي غداء حاشية السَّفير[1]، الذين تُمدُّ مائدتهم على الأرض تحت رواق وفوق جلود بُلغاريّة، وتكون الأطعمة شهيَّة وبسيطة.

وبعد أن تكتمل كلّ تشريفات المائدة، يتَّجهُ السفير مع حاشيتهِ إلى مكانٍ ما قُرب باب السلطان، حيث يجلس ريثما يكون الجميعُ قد قابلوا السلطان وخرجوا من عندهِ، باستثناء الباشوات، فإنّهم يبقون في الديوان خدمةً وإكراماً لجلالة السلطان.

ثم ينادي رئيس التَّشريفات على السّفير، ويُرافقه حتى الباب حيث يوجد القابي آغا، فيتمّ إدخاله إلى قاعة السلطان التي يكون على بابها اثنان من القابوباشي، فيأخذان بذراع السَّفير ويرافقانهِ لكي يقبِّلَ ثوب جلالتهِ، ويعودان به إلى الوراء باتِّجاه جدار القاعة، حيث يقف السفير ريثما يفرغُ هذان القابوباشي من مرافقةِ كلّ أولئك الذين يستعدُّون لتقبيل ثوب السلطان واحداً تلو الآخر، وعندما يتمّ تقديم [10 ب] التُّرْجُمان يعرضُ مهمّته للسلطان شفوياً، ولا يجيب السلطان بأي كلمة في كثير من الأحيان، بل يقولُ الصَّدْرُ الأعظم بضع كلماتٍ بما يتناسب والحالَ لأجل صرفهِ، وهكذا

= إلى إيطاليا، حقَّقها وقدَّم لها قاسم وهيب، دار السويدي والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، أبو ظبي، بيروت 2007، ص: 44.

(1) عُرِفَ عن العثمانيين أنهم يأكلون بسرعة، ويلتزمون الصمتَ كُلياً، وقد كان الرحالة الأوروبيون يُصدَمون بالسرعة التي يقدم فيها الطعام قبل الاستقبال الرسمي، فبالنسبة للفرنسيين فإنهم كانوا يقضون وقتاً طويلا عل المائدة، ويتبادلون الكثير من الحديث أثناء تناولهم الطعام، ويرون أن العجلة في الأكل هي علامة على عدم الاحترام. انظر:

Göçek, Fatma Müge, «Encountering the west, French embassy of Yirmisekiz Çelebi Mehmet Efendi 1720-1721», *IIIrd congress on the social and economic history of Turkey*: Princeton University 24-26 August 1983/ proceedings edited by Heath W. Lowry and Ralph S. Hattox 80.

يغادرُ السّفير، ويحيي السلطان برأسه دون أن يرفع (بُرنيطته)[1].

ومن الجدير بالملاحظة أنه ليس من شخص سَفيراً كان أو غير ذلك، يذهبُ لتقبيل ثوب جلالة السلطان إلّا ويرتدي من الثياب المقدَّمةِ إليه من السلطان، ولأجل ذلك فإن الصَّدْر الأعظم، وقبل أن يتَّجهَ السفراء إلى الديوان، يرسلُ إلى السّفير وحاشيتهِ ثياباً بالعدد المبيَّنِ في القوانين، ويؤتى بهذه الثياب مطويةً [ولا تُلْبس إلا حين الدُّخول][2] إلى الباب المؤدِّي إلى السلطان.

وتكون هذه الثياب من أنواع مختلفة: نوع أو نوعان للسَّفير من القماش الرُّوسيّ[3] المطرَّز بالذَّهَب والحرير، وأمّا الأنواع الأخرى فإنّها، وإن كانت من مشغولات روسيا[4]، إلا أنها قليلة الثَّمنِ والقيمة.

والحقيقة أنّه ليس من سفير يذهبُ لمقابلة السلطان، وليس من باشا يعودُ بعد إنهاء مهمَّةٍ في الخارجِ إلّا ويقدِّمُ للسلطان حينَ تقبيل ثوبه الهدايا المقدَّرةَ في دستورهم، دون الإخلال بذلك خشيةَ ضياع هذه التّقاليد، وبسبب هذه الهدايا فإنَّ ما يدخل على القصر من وارداتٍ هو أكثر بكثيرٍ مما يخرجُ منه؛ ذلك لأن الباشوات [11 أ] يقدمون للسلطان، زيادةً على ما هو واجبٌ عليهم عادةً، الهدايا الكثيرة والفخمة من الأشياء الفاخرة والنَّادرة، ويرافقُ هذه الهدايا في بعض الأحيان بحسبِ مرتبةِ السفراء أموالٌ لكي تكونَ لهم الحظوةُ عند السلطان.

وأمّا سُفراءُ الأمراء الأقلِّ شأناً، فإنَّهم، وإن كانوا يلبسون الثيابَ المهداةَ لهم من السلطان إلا أنهم لا يدخلون إلى الديوان بهذه الأبَّهة، ولا يُدعون

(1) آثرتُ استخدام الكلمة نفسها «البرنيطة» كما وردت في النص، والبرنيطة (Berretta) هي القلنسوة الأوروبية وقد وردت المفردة في كثير من كتابات الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا.

(2) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل.

(3) في ب: بورصة وفي رحلة تومّازو ألبيرتي: بروسيا.

(4) في ب: بورصة وفي رحلة تومّازو ألبيرتي: بروسيا.

إلى مأدبة الغداء، بل يذهبون فُرادى مثل كبار الشَّخصيَّات الأخرى حاملين معهم الهدايا، ويجلس بعضهم في حضرة الباشوات، وآخرون لا يجلسون حتى تتمّ مرافقتهم إلى السلطان على النَّحو الآنفِ الذكر.

ولا بدَّ من العلم بأن جميع سُفراء الأمراء ذوي الشَّأن، والسُّفراء العاديين وفوق العاديين، باستثناء سُفراء بلادنا البندقية، بسبب رفضها الأمرَ منذ البداية أقول: إن جميع هؤلاء السفراء يتمّ الإنفاق عليهم حسب قانون الباب العالي؛ فيُصرفُ إليهم من مخازن السلطان القمحُ والعلفُ والحبوب والحطبُ والفحمُ وكلّ ما يلزم لبيت السَّفير، ويُعطي لهم الدَّفترداريّة الكثير من الآقجات يومياً، مما يجعلهم في سعةٍ من العيش، وإن لم يكن الأمرُ سهلاً إلّا أنه بواسطة هديَّةٍ مّا وبالإلحاح يمكنُ لهؤلاء السفراء في نهاية الأمر أن يحصلوا على الجزء الأكبر من مستحقَّاتهم.

[موظّفو السَّراي]

[11 ب] وبعد أن أتيتُ حتّى الآن على وصف السَّراي والمباني التي توجد داخله وفقَ ما تمكنتُ من رؤيتهِ وسماعه، مع ذكر بعض التَّفصيل عن وظيفتهِ، فسآتي على ذكرِ جميع أولئك الذين يقيمون في هذا السَّراي وعن وظائفهم. وأقول بدايةً: إنَّ كلّ مَن في هذا السَّراي من رجال ونساء هم عبيد للسلطان، وكذا الأمر بالنِّسبة إلى جميع الرعايا الخاضعين لإمبراطوريته العُظْمى؛ ذلك أن السلطان هو الحاكم الأوْحد في هذه الإمبراطورية. ويقرُّ كل واحدٍ منهم بأن ما أوتي من خير إنّما هو بفضلِ السلطان ومشيئته، ويمكن فعلاً التأكيد والقول بأن هذا السَّراي يُعدُّ بمثابةِ ملتقى لأولئك الذين، تبعاً لمهاراتهم وميولهم وبتخويلهم مرؤوسين في خدمة الدولة، يقومون بما يوكل إليهم من

مهام رئيسة لإدارة شؤون الإمبراطورية الواسعة والممتدّة.

[حريم السلطان]

وأعتقد بحسبِ ما لديّ من معلوماتٍ أن عددَ كلِّ مَن هم داخل البوّابة الثّالثة المسمّاة الباب السلطانيّ من بين رجالٍ ونساءٍ لا يتجاوزُ الألفين[1]، وعدد النِّساء نحو ثلاثمئة[2] من بين فتيات شابَّاتٍ لأجل أن ينظر إليهن السلطان ويعانقهنَّ، ونساء كبيرات لأجل التَّربية، وأخريات من أجل الخدمة [12 أ].

وجميعُ اللواتي يقمن هناك من الفتيات الجميلات هنَّ أجنبيَّاتٌ أُخذنَ أو سُبينَ، فتتم تربيتهنَّ على الأخلاق الحميدة، وعلى العزف والغناء والرَّقص والخياطة. ثمّ يُمنحُ كثيرٌ منهنّ إلى السلطان كهديَّة فاخرةٍ؛ لأنهن عذارى عفيفات، ويحظين بعظيم التَّقدير عند الأتْرَاك، ويزداد عدد هؤلاء الفتيات يومياً، وفقَ ما يتمّ إرساله كهدايا إلى السلطان والسلطانة الوالدة من التَّتَار ومن الباشَوات وكبار المسؤولين. (ويقلُّ عددهنَّ حسب مشيئة السلطان؛ إذ إنه ولسببٍ ما ينقلُ بعضهنَّ من هذا السَّراي إلى السَّراي القديم[3] الذي هو أيضاً مكان رحبٌ للغاية، كما هو الحال بالنِّسبةِ إلى سراي السلطان)[4].

(1) في ب: الخمسة آلاف.

(2) في ب: ثلاثة آلاف.

(3) كان السراي القديم (Eski Sarayı) بناية بيزنطية قديمة رمَّمها السلطان محمد الفاتح واتخذها مقراً له بعد الفتح مباشرة، ثمّ ابتنى له السراي الجديد عام 1468م، وأصبح هذا السراي يعرف باسم طوب قابو سراي، أما السراي القديم فقد كان في الموقع الذي تشغله الآن جامعة إسطنبول، وكان السلاطين، حتى زمن السلطان سليمان القانوني، يتنقلون بين السرايين حينما يكونون في إسطنبول، ولم يتخذ السراي الجديد المقرَّ الدائم والوحيد إلا بعد ذلك. جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 124.

(4) ما بين القوسين ساقط من ب.

وعندِ دخول هؤلاء الفتيات إلى السَّراي فإنهنّ من أي دينٍ كنَّ يُعتبرنَ فوراً مسلمات، ولا يُلزم لذلك سوى أن ترفع الواحدة منهنَّ إصبعها وتقول: لا إله إلا الله محمَّد رسول الله[1]، وتوضعُ الفتياتُ في غرفةٍ للسُّكْنى والعيش مع المساوياتِ لهن في العمر والميول، وتتولّى مهمّةُ توزيعهنَّ حسبَ العُمر والميول امرأةٌ عجوز، تُسمّى كيخيا قادن أي كبيرة رئيسات الخدم.

ولا بدّ من العلم بأنه في أجنحة الحريم تعيشُ الفتياتُ كما في [12 ب] الأديرة الكبيرة؛ فتوجد حُجراتٌ للطَّعام وللنَّوم وهي طويلة للغاية، ويمكنها أن تستوعب حتّى مئة من تلكم الفتيات، وينمنَ فوق الأرائك الممتدّة على طول القاعة من الجانبين، ولهذا يوجد في الوسط متَّسعٌ كبيرٌ بحيث يمكن للمرء أن يمشي خلاله.

وتتكوّن أَسرَّةُ هذه الفتيات من بطانيات الصُّوف الخشن والأغطية الخفيفة، وتنام صُحبةَ كلّ عشرة فتيات امرأةٌ عجوز، وفي اللّيل تظلُّ الفوانيس موقدةً في الغرفة ومتدليةً من السّقف، وموزَّعة بحيث يتمكن المرء من رؤيةِ كلّ شيء بأريحيّة، ومن أجل إبعاد الفتياتِ عن الفسوق، وكذلك لأجل ما يمكن أن يلزم من الحوائج ليلاً.

وتوجد بجانب هذه الغُرف المطابخُ والحمَّاماتُ مع وافر النَّوافير لأجل الحاجة إلى الماء، وثمّة قاعات أخرى فوق هذه الغرف، حيث تقوم الفتيات بالخياطة وحيث يضعنَ صناديقهنَّ[2] لحفظ الملابس.

وتتناول الفتيات وجباتهن في مجموعاتٍ فوق الجلود البلغاريّة، في قاعةٍ من قاعات الطَّعام تكون فوق الطابق حيث توجد الأرائك، (وتوجد في هذه

---

(1) في رحلة تومازو ألبيرتي: وتقول: محمد.

(2) استخدم السفير كلمة صندوق كما هي بالعثمانية والعربية وصاغها على الجمع بالإيطالية (San-dughi) ثمّ شرح معناها هكذا: أي الصناديق.

القاعة موائد مرتفعة قدر درجةٍ في الطابق العلوي)[1] وتقوم على خدمتهنَّ نساء أخريات حسب الحاجة، ولا ينقصهنَّ أبداً [13 أ] أي شيء، ولهنَّ أماكن مخصّصة للدّراسةِ حيث يتعلّمنَ القراءة والكلام بالتُّركيَّة والخياطة والعزف. ويعشنَ مع مربِّياتهنَّ الكبيرات في العُمر ويقين طيلة النَّهار، ويروّحنَ عن أنفسهنَّ بعض الوقت لأنهن لا يعدمنَ الحدائق والمسرَّات.

[اختيار السلطان لمن تشاركهُ ليلته من الحريم]

والعادةُ أن السلطان لا يَرَى ولا يقاربُ هؤلاء الشّابات إلّا عندما يُقدَّمن إليه، وفي حال أنه يريد واحدة لنفسه، أو لأجل أن ينظرَ إليها وهي تلعبُ، أو يستمع إليها وهي تعزف، فإنه لأجل ذلك يُعلمُ القادن المربِّية[2] برغبته فتجعل الفتيات اللاتي ترى أنهن جميلات للغاية يصطففن بانتظام على طرفي القاعة، ويتقدَّم السلطان مارّاً خلالهنَّ أكثر من مرة بالقدر الذي يشاء، ويستقرُّ نظرهُ على التي تُعجبهُ أكثر من غيرها، وعندما يريد أن ينصرفَ، فإنه يُلقي منديلاً في يدها، وهذه إشارةٌ إلى أنه يُريدها أن تمضي معه اللّيلة.

وإذا ما حظيت هذه الفتاة بالمبيت مع السلطان، فإنَّ القادن تتعهَّدها بالزِّينةِ قدرَ المستطاع، وتعطِّرُها وتقومُ على رعايتها، وتقضي ليلتها مع السلطان في الغُرف الملكيّة في جناح الحريم، الذي يكون دائماً مجهزاً لهذه الغاية، وحينما تكون في السَّرير مع السلطان، فإنَّ القادن تخصّص لها بعض الخادمات

(1) ما بين القوسين ساقط من ب ومن رحلة تومازو أليبرتي.

(2) وتُسمَّى الكيخيا قادن (Kahya Kadın) وهي المرأة الآمرة لجواري القصر وكانت تابعةً لفرقة والدة السلطان، وكانت علامة إمرتها عصا فضيّة تحملها بيدها، وختماً من أختام السلطان. انظر: صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 194، وانظر: شمس الدين سامي، **المعجم التركي التراثي**، مكتبة لبنان، بيروت 1989م، ص: 1019.

السوداوات الكبيرات واللواتي يبقين بالتّناوب مثنى كلَّ ثلاث ساعات في [13 ب] الغرفة عندها حيث يضيءُ مصباحان دائماً: أحدهما بباب الغرفة حيث تكون واحدة من تلكم الخادمات السوداوات الكبيرات، والثّاني عند أرجل السَّرير (حيث تكون الخادمة الأخرى)[1] وتتناوبُ الخادمات دونما فوضى بحيث لا يمكنُ للسلطان أن يشعرَ بأي إزعاج.

وحينما يستيقظُ السلطان في الصّباح، فإنّه يُبدّل ثيابه، ويتركها للفتاة مع كلّ ما يوجد من مالٍ في الصُّرَّة، وبعد أن يمرّ بغرفه الأخرى فإنّه يُرسل إليها الهدايا من الثياب والجواهر والأموال حسبَ ما تحصَّل له من الرّضى والمتعة معها، وهذا شأنه مع كلّ الأخريات اللواتي يُعجبنه، ويستمرّ مع إحداهنَّ أو غيرها حسبَ ما تهيّئُ له من المتعة والودّ، والتي تحملُ منه فإنها تُلقّب مباشرةً خاصيكي سلطان أي السلطانة الملكة، فإن أنجبت ذكراً فيصارُ إلى تأكيدِ لقبها هذا باحتفالاتٍ عظيمةٍ للغاية[2].

ولهذه السلطانة جناحها من الغرف الفخمة للغاية، ويُهيأ لها حالاً من يقومُ على خدمتها في كلّ شيء، ويُخَصّصُ لها السلطان دخلاً كافياً جداً، لكي تهبَ وتُنفقَ بسعةٍ في كلّ ما تحبُّ وتشتهي، وكلّ نسوة السَّراي يعترفن بها كملكةٍ بوافر التبجيل والاحترام [14 أ].

وأما النّسوة الأخريات، وإن كنَّ يُنجبنَ، فإنّهن لا يُلقَّبنَ بالملكات، بل

(1) ما بين القوسين ساقط من ب.

(2) كان يُطلقُ على النساء اللواتي يعاشرهنَّ السلطان اسم قادن لر، وتسمى الواحدة منهم قادن، وتزداد مكانة القادن إذا ما أنجبت طفلاً للسلطان، وتزداد مكانتها أكثر إذا كان المولود ذكراً، وعندئذٍ تُدعى خاصيكي سلطان، أي أنها تكون في مرتبةٍ قريبة من مرتبة السلطانات، أي الأميرات، أما التي تنجبُ أنثى فيُكتفى بتلقيبها بخاصيكي قادن، وأعلى منزلة يمكن أن تصل إليها القادن هي أن تكون أُماً للسلطان الحاكم فتسمى آنذاك والدة السلطان، وكان من المتعارف عليه أن توجه السلطانة الوالدة أوامرها إلى الصدر الأعظم مباشرةً. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب**، 1/ ص: 123–124.

يُلقَّبنَ فقط بالسلطانات بسبب مبيتِ السلطان معهنَّ، وتحظى بلقب الملكة فقط تلك التي تكون أُمّاً للأمير ولي عهد الإمبراطورية.

وتُخصُّ السلطانات اللواتي تمتَّعَ بهنَّ السلطان بهذه الميزة أيضاً؛ فيتمّ نقلهنّ فوراً من عند عموم الجواري الأخريات إلى جناح مُستقلّ، وتخصّص لهن غرفٌ مع الخدمةِ، كما يُخصّصُ لهن الكثيرُ من الآقجات يومياً من أجل حاجاتهنَّ، ولا تعوزهنَّ الثياب الجميلة من كلّ نوعٍ لكي يظهرن بأرقى المظاهر بين الأخريات من النِّساء.

وتتعاملُ جميع هؤلاء السلطانات فيما بينهنَّ بكثير من الأُلْفة والكتمان، وذلك كي لا يتسبّبن في إزعاج السلطان؛ فمن حيث إنهنَّ إماء ويعشنَ في خوف شديد[1] وغيرةٍ، فإنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ تجتهدُ لكي تقعَ في قلب السلطان موقع الرّضا، فتكون الأكثر حظوة ودلالاً بين الأخريات.

وفي حال توفي ابنُ السلطانة الأولى الذي هو ولي العهد وأنجبت أخرى الابنَ الثّاني، فإن هذه الأخيرة التي يصبح ابنها ولياً للعهد تصبحُ ملكةً والأولى تظلُّ سُلطانةً، وهكذا ينتقلُ اللّقبُ من سُلْطانةٍ إلى أخرى وفقَ من تُهَيَّأُ له خلافة السلطانِ من الأبناء.

[زواج السلطان بالسلطانة أم ولي العهد]

ويتزوّج السلطان بالسلطانةِ أحياناً، وأحياناً أخرى تظلُّ دونما صداق ودونما مراسم الاحتفال بعقد الزَّواج، وعقد الزّواج هذا حسبَ عادةِ الأتْرَاك لا يتجاوز حضور مُفْتيهم الذي هو بمثابة البابا [14 ب]، وإعطاء موافقته على

---

(1) في الأصل: مع السود (Con more) وفي ب: بخوف شديد (Con gran timore) فأثبته لأنه الأنسبُ في هذا السياق.

الزّواج، وتُعمل لأجل ذلك حُجّةٌ، وهي طريقةٌ رسميّةٌ ليس من أجل الإعلان عن رغبة المتعاقدين فحسب، بل لإعلان الهبات التي يُخصّصها السلطان للسلطانة.

والسَّبب وراء ندرة الزّواج بالسلطانات هو كي لا يُقتطعَ من المال السلطانيّ مليون ونصف المليون زكينو[1] سنوياً كراتبٍ للزّوْجة، وهي سُنَّةٌ استنَّها السلطان سليم[2] وصارَ مشرَّعاً في القانون وجوب إعطاء الأموال لزوجات السلطان بحيث يُنفقنَ بسعةٍ؛ فيبنين المساجد والمشافي ويحظينَ بالاحترام والتّقدير. ولمّا كانت هذه الأجور الآنَ توظَّفُ في أشياءَ أخرى، فلا يكاد كبارُ الباشوات ينصحون السلطان بالزَّواج، بل إنّهم يسعون قدرَ طاقتهم لإقناعه بالامتناع عن ذلك، لأنهم لا يرون بعين الرّضا سوى حاكم واحدٍ للإمبراطورية، ولكن مع كلّ هذا فإنهنّ كأمهاتٍ للأمير ولي العهد يُلقَّبنَ بالسلطانات، سواء كن متزوجات أو غير متزوجات، وعلى هذا الأساس فإن

(1) زكينو (Zecchino) عملة نقدية من الذَّهب، جرى تداولها في جمهورية البندقية في أواسط القرن السادس عشر.

(2) وهو السلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد الثاني، ولد سنة 1470م، وكان خلال السنوات الأخيرة لحكم أبيه حاكماً على طرابزون، وقد حظي سليم بتأييد الجيش لما امتازَ به من بأسٍ وإقدامٍ على الحرب، مما مكنه من الإطاحةِ بأبيه المعروف بميله إلى السلم، وآلت السلطة إليه سنة 1512م، وقضى السنة الأولى من حكمه في ملاحقة إخوانه وأبنائهم والقضاء عليهم ليأمنَ جانبهم. وشهد عهد السلطان سليم الأول توسعاً كبيراً للإمبراطورية العثمانية وذلك بخضوع بلاد الشام ومصر والحجاز للحكم العثماني، وقد أرسل السلطان سليم الأول في سبتمبر سنة 1517م كساءً للكعبة المشرفة لأول مرة كهديةٍ من الدولة العثمانية، ومنذ ذلك الحين خُلعُ على السلطان سليم لقب خادم الحرمين الشريفين مما أكسبه مكانةً مهمةً في العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً. وعُرف السلطان سليم بحبه للشعر وله ديوانٌ شعر بالفارسيّة. توفي سنة 1520م بعد إصابته بمرض مفاجئ، وخلفه ابنه السلطان سليمان القانوني. انظر:

J. H. Kramers, «Selim I», *Encyclopedia of Islam*, edited by M. Th. Houtsma et. al., vol 4 (Leiden: Brill 19346), pp. 214-217.

الجميع يعترفون بهنَّ ويكرمونهنَّ بالهدايا الفاخرة[1]، وتبقى السلطانة معزَّزةً مكرَّمةً، فيكون ببابها آغا الخصيان وهو خصي أسود وكبير الخصيان السُّود، وجميعهم خِصْيَان، ويتعهّدُ آغا الخصيان مع نحو ثلاثين من أمثاله هذا البابَ وخدمةَ السلطانات الأخريات [15 أ] اللواتي لا يخرجنَ البتّةَ من هذا السَّراي إلا مع السلطان، الذي يصطحبهنَّ جميعهنَّ أو بعضهنَّ بالقدر الذي يشاء إلى قصور أخرى للاستجمام، وتغلقُ الطُّرقات التي يعبرنها بالسَّتائر، ولا يوجد في القوارب التي يركبنها رجالٌ آخرون أبداً سوى آغا الخصيان السُّود إلى حين يركبن ويُغلقُ عليهن في مؤخّرة القوارب بحيث لا يراهنّ أحدٌ أبداً تماماً، كما لا يقربهنّ أحدٌ من الرّجال ما خلا جلالة السلطان وحده.

[محارمُ السلطان وزواجهنّ]

وتقيم عمَّات السلطان وأخواته وبناته في السَّراي نفسه في أجنحتهنَّ مخدوماتٍ بانتظام، ويرتدينَ ثياباً فاخرةً للغاية، ويعشْن معاً في سُرورٍ فيما بينهنَّ إلى أن يشاء السلطان تزويجهنَّ، وفي هذه الحالة فإنهنَّ يغادرن هذا القصر مع الصّندوق، وهكذا يسمّونه، وهو من جلالة السلطان وفيه الثياب والذَّهب والجواهر بقيمةٍ لا تقلّ عن مئة ألف سلطاني[2] أي زكينو، ويأخذنَ

(1) كان من عادة السلاطين الأوائل أن يتزوجوا زواجاً شرعياً من بنات الأمراء المسلمين منهم والمسيحيين، وكانوا يكثرون من الزوجات على ألا يتجاوز عددهنَّ أربع زوجات في آنٍ واحد، وكان السلطان محمد الفاتح آخر من اتبع هذا التقليد في الزواج الشرعي، ودرجَ السلاطين على اتخاذ الجواري (قادن لير)، وكانوا يكتفون بأربع منهنَّ، كنَّ يحظين بالتقدير والاحترام، وكان لكل واحدة منهنَّ جناح خاص في الحريم ولها عدد من الوصيفات والخدم الخاصين بها، وكنَّ يصنفنَّ حسب الأسبقية؛ فهناك القادن الأولى والثانية والثالثة أو القادن الكبرى والصغرى. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 123.

(2) تطلق كلمة سُلطاني على مسكوكات الذهب العثمانية المضروبة في مصر وطرابلس وتونس والجزائر، ولم تطلق على المسكوكات المضروبة في الأناضول والروملي. صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 135.

معهنَّ كلَّ ما يمكنهنَّ الاحتياط عليه من الأشياء الثمينة التي وُهبت إليهنَّ، والتي تبلغ أحياناً قيمةً كبيرة، مما يجعلهنَّ في سعةٍ من العيش طوال حياتهن، وإن كنَّ يحظينَ بمودَّةِ السلطان، فإنَّهنّ يأخذن معهنّ بالقدر الذي يَشَأْنَ من الإماء، أي خمس عشرة أو عشرين، ويأخذنَ أولئك الخصيان الذين هم [15 ب] أعزُّ لديهن، وذلك لأجل الخدمة.

يحتفظ هؤلاء النسوة اللواتي يُلقَّبن أيضاً بالسلطانات بأجورهن التي كن يتقاضينها داخل القصر، أي ألف آقجة في اليوم، ومنهنّ مَن تتقاضى ألف وخمسمئة آقجة، أي ما يعادل اثني عشر زكينو، ويُعطى لهن كذلك من الإماء والخصيان، من أجل القيام على خدمتهنَّ، وتوفير كلّ ما هو ضروري كي يعشنَ في سعة تليق بمكانتهنَّ كسُلطانات، ولهذا فإنَّ حياتهن خارج القصر هي أفضل منها في داخله، وإن كان الباشا الزوج لا يملك قصراً منيعاً وفخماً فإنّ السلطان يهبُ إليه واحداً من قصوره الكثيرة، من أجل أن يحافظ على منزلةِ السلطانات بما يتناسبُ مع مكانتهنّ الرَّفيعة.

وعند الزَّواج بإحداهنَّ، يقدم لها الزوج مهراً بما لا يقلُّ عن مئة ألف سُلطانيّ وهدايا من ثياب وجواهر وريش، وغير ذلك من اللّوازم الضَّروريّة بقيمةٍ معتبرة جداً.

وكسوة السلطانات وإن كانت ثوباً من عموم ما ترتديه الأخريات، ويشبه الذي يرتديه الرِّجال، إلّا أنهُ على الرَّغم من ذلك رائعٌ جداً وثمين، وتكون تكلفتهُ كبيرة على الزوج، ولا يرافقن الرجال أبداً، بل النسوةَ الأخريات فقط، وغالباً النسوة من السَّراي نفسه، والذي كما أسلفنا متى خرجنَ منه لا يمكنهنَّ الدُّخول إليه بعد ذلك إلّا بإذن جلالة السلطان.

والسلطانات زوجات الباشوات قوّاماتٌ على أزواجهنَّ، ويأمرن كما

يَشأْن، ويحملن دائماً [16 أ] خنجراً[1] مرصعاً بالجواهر كعلامةٍ على الغَلَبة. وتعتبرُ الواحدةُ منهنَّ زوجها عبداً، وتُحْسنُ له أو تسيءُ إليه حسبَ ما تنالهُ منه من الرّضا، وحسب السُّلْطة التي تستمدُّها من السلطان، وأحياناً تُطلِّق زوجها لأجل الزَّواج بغيره، ولكنّها لا تفعلُ ذلك أبداً دون موافقة[2] السلطان، وفي هذه الحالة ينتهي الأمر بانتكاس الزوج وموته.

تعيش النسوة الأخريات اللواتي لا يُقدَّرُ لهن أن يكن من محظيّات السلطان في حجرة مع غيرهنَّ من النسوة، ويبدّدنَ شبابهن بسوء الأفكار فيما بينهنَّ، ولّما يصبحن طاعنات في السنّ فإنهنّ يعملن كمربِّيات ورئيسات للفتيات اللواتي يؤتى بهن كلَّ يوم إلى السَّراي. وفي مثل هذه الظروف السَّيئة فإنهنَّ يَعتبرن إرسالهنَّ لسببٍ مّا خارج السَّراي القديم هو من حسن الحظ، لأنه في هذا القصر يمكنُ للواحدة منهنَّ الزَّواج حسب محبّة المربِّية لها، وحسبَ ما يتوفّر لديها مما يُدَّخرُ وما يتبقّى من الأجور والهدايا التي وُهِبتْ لها، وهو ما يمكن أن يكون ذا قيمة مُعتبرة؛ لأن السلطانات في السَّراي يهبنَهنَّ أشياء كثيرة، فضلاً عن الأجر الذي يُصرفُ لهن من خزنة السلطان بقيمة خمس آقجات إلى خمس عشرة آقجة للوسيطاتِ، ومن ثلاث إلى خمس آقجات إلى الأدنى، وتُصرفُ لهن أجورهنَّ كلّ ثلاثة أشهر دون تأخير، تماماً كما هو الحال بالنسبة إلى السلطانات، وفقَ المخصّصات التي يُقررها لهن السلطان وهي من ألف إلى ألف وخمسمئة آقجة في اليوم، ويكون لهن فضلاً عن هذا من الثياب بالقدر الذي يشأن [16 ب] ومن الجواهر بالقدر الذي يود أن يهبه

(1) يستعملُ بون الكلمة التركيّة نفسها (Cangiaro)، ويشرحها هكذا: أي الخنجر، وإن كانت المفردةُ موجودةً في بعضِ المعاجم الإيطالية اليوم إلا أن الراجح أنها لم تكن كذلك زمن هذا التقرير.

(2) في ب: دون علم.

السلطان لهنَّ.

واللّواتي يُناط بهنَّ القيام بالخدمة في السَّراي يُعطى لهن أيضاً ثوبان من الصُّوف في السنة وقطعة قماش خفيفة للقمصان [من عشرين ذراعاً][1] وأخرى أخفّ منها لأجل المناديل من عشرة أذرع.

ولأجل البايرام أي الكرنفال[2]، يعطى لكلّ واحدةٍ منهنّ ثوب من حرير، مع شيء آخر حسب سخاء السلطان والسلطانة، والذي من عادته في هذا الوقت أن يوسّعَ على النسوة؛ فيهبُ للسلطانات ثياباً مكسوة بالفرو الثّمين للغاية، وحلياً مشغولةً بالذَّهب والجواهر التي تُوضع على الجباه، وريشاً وأقراطاً وأساور لليدين والرجلين، وأشياءَ مشابهةً مما يتوفَّر لدى السلطان، بسبب الهدايا التي تُقدّم إليه بشكل لا يوصف.

وفي ذلك اليوم، تُقدّمُ الهدايا لهؤلاء السلطانات أيضاً من الباشوات ومن سلطانات أخريات من الخارج، ويفعلون ذلك لأجل الحفاظ على مكانتهم لدى السلطان، فيقدّمون الهدايا الجميلة والفاخرة جداً والأموالَ، والتي هي أعزُّ الأشياء بالنِّسبة إليهن، وذلك من حيث إنهن بخيلات للغاية فإنهنَّ يكنزن الأموال ويُنفقن بتقتيرٍ في الأشياء الأخرى التي يرغبن فيها، ولكنهنَّ يتدبرن بالأخص أمر الاحتياط على هذه الأموال لأي عارضٍ قد يعرض، وخصوصاً حينما يموتُ السلطان، ذلك أن السلطانة أمّ الأمير ولي العهد تبقى في السَّراي بينما تفقدُ كل الأخريات اللواتي فُضَّتْ بكارتهنَّ لقب السلطانة، ويتم إرسالهنَّ فوراً إلى السَّراي القديم، ويتركن أولادهنَّ وبناتهنَّ، إن كان لديهن، [17 أ] في سراي السلطان كي تتعهّدهم بالرِّعاية نساء أخريات مخصَّصات

(1) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل.

(2) البايرام هو عيد الفطر أو عيد الأضحى، وتشبيهه بالكرنفال الذي تشتهر به البندقية لم يكن تشبيهاً موفَّقاً.

لهذه المهمّة، وفي هذه الحالة تُهيأ لهن الفرص كثيراً وبهذا يتزوَّجن بسهولةٍ من رجالٍ ذوي شأن أو متوسّطي الحال، وذلك حسبَ ممتلكاتهم وحسب رغبة المربّيات في السَّراي القديم، وبموافقة السلطان الذي غالباً يريدُ أن يعرفَ فضلاً عن معرفةِ الزوج المتقدِّم مقدار المهر الذي يُقدمه، لأن العادة أن يقدم الرِّجال المهر للنِّساء، وهو النقيض تماماً لما جرت عليه العادة عند المسيحيّين، ويلتزمون ذلك لأجل جعلِ الطّلاق عسيراً؛ ففي حال طُلِّقتْ الزّوجة دون موافقتها فإن الزوج يخسرُ المهرَ ويصبحُ من نصيب الزّوجة، وهكذا يُصبحان طليقين، ويحدثُ في كثير من الأحيان أن تكون بنتُ أحدِ الملوك زوجةً لأحد الباشَوات، في حين تكون أُمّها متزوّجةً من فردٍ أقلّ مرتبةً ومالاً من زوجِ البنت.

[اليهوديّات في سراي السلطان]

ويُؤتى في السَّراي الملكيّ بواسطة السلطانات، وبإذن السلطان ببعضِ اليهوديّات لأجل الإفادة منهنَّ في تعلُّم عملٍ مّا أو صنع دواء مفيدٍ، ويحظينَ بالمودَّةِ عن طريق الهدايا الكثيرة التي يقدمنها للخصيان الموكَّلين بحراسة باب السلطانة، بل ويصبحن سيدات على كلّ تلكم النسوة وينقلنَ داخل السراي وخارجه ما شئن لأجل البيع والشِّراء. ولهذا السَّبب فإنَّ كلّ اليهوديَّات اللواتي أقمن في السَّراي قد اغتنينَ؛ ذلك أنهن حين يَجْلبنَ شيئاً داخل السَّراي [فإنهنَّ يبتعنهُ بثمنٍ بخسٍ][1] ويبعنهُ بثمنٍ عالٍ [17 ب]، وينقلنَ إلى الخارج بشكلٍ سريّ الجواهرَ من كلِّ الأصناف وهي في معظم الأحيان جميلةٌ للغاية،

(1) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل

ويبعنها للغُرباء ويقلنَ للنسوة البسيطات: إنهنَّ يخشينَ أن ينكشف أمرهنَّ حين يخرجن في الخفاء.

وبهذه الأساليب تخرجُ من السَّراي أشياء جميلة للغاية، وبأسعار معقولة بالرَّغم من أن مصيرَ هؤلاء اليهوديّات التَّعِسَات يكون في النّهاية بائساً نتيجة أعمالهن؛ ذلك أنه حين يُكتشفُ أنهن ثريّات ومحتالات فإنهنَّ يسلمن أشياءهن وحياتهن إلى يد الباشوات والدّفتردار، الذين يجتهدون في تعقّبِ هؤلاء الفتيات بغية إعادةِ ما تمّ الاستيلاءُ عليه ونهبهُ إلى السلطان.

وتتمُّ معاقبة نساء السَّراي بقسوة بالغة حسبَ الجرم الذي اقترفنهُ، فيضربهنَّ الموكَّلون بالإشْراف عليهنَّ، وإن كنَّ غير مطيعاتٍ ووقحات ومتهوّرات، فيتمّ إرسالهنَّ بأمر السلطان إلى السَّراي القديم بسبب عصيانهنَّ، ويبقين عارياتٍ بالقدر الذي تريده الكخيا قادن، وإنْ ثبت أنهن مُذنباتٍ لأجل حماقةٍ ارتكبنها أو جرمٍ عظيمٍ اقترفنه، فإنهنَّ يُقيَّدنَ ويوضعنَ في كيس، ويتمّ إرسالهنَّ ليغرقنَ ليلاً بحيث يقبلنَ البقاء مطيعاتٍ جداً وأن يلتزمنَ حدودَ الأمانة والشَّرف، هذا إن كنَّ يُردنَ أن تمرَّ حياتهن على خير، ولذا فلا يجوز لأي أحد أن يقحمهن في أمرٍ يمكن أن يهيئ لهن الإخلال بالأمانة والشّرف، [18 أ] وإن أردن أكل اليقطين أو البطّيخ[1] فإنه يُوزَّعُ عليهنَّ في الداخل، كي لا تُتاح لهن الفرصة للفسوق، لكونهنَّ فتيات شابّات ليّناتٍ وميّالات للأمور المرغوبة[2].

---

(1) في ب: الخيار.

(2) في ب: وبلا شك ميّالات للأسوأ.

[العجم أوغلان]

والآن، وقد تكلمت عن النساء، فسأتحدثُ عن عدد العجم أوغلان الذين يخدمون في السراي ووظيفتهم، إذ يمكن أن يبلغَ عدد هؤلاء نحوَ سبعمئة، وأعمارهم من اثني عشر عاماً[1] إلى خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين عاماً كحد أقْصى، وأغلبهم من المسيحيّين المرتدّين عن دينهم، الذين يُؤْتى بهم كلّ ثلاث سنوات من مورة ومن كلّ مناطق ألبانيا، ويوزع عُشْرهم بهذه الطريقة:

يمَكن أن يكون عدد هذا العُشْر من العجم أوغلان ألفين، ويزيدُ هذا العدد أو ينقصُ بناء على الوصف الدقيق للبايا باشي، أي رؤساء فرق الانكشاريّة، ويؤخذ العجم أوغلان من أُسرهم، ولهذا فإنّهم يشعرون بالأخوَّة فيما بينهم، ومن بين هؤلاء يتم دائماً انتخاب الأجمل والأكثر أهلية وملاءمةً لخوضِ الحرب، بحيث لا يتجاوزُ عمره اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، ويتم تعهّدهم بالرعاية بشكل مستقلٍّ، ثم يتمّ إرسالهم إلى القسطنطينية لأجل توزيعهم على النحو الذي سنذكره.

وحينما يكون جميع هؤلاء الفتْية على باب السراي فإنهم يلبسون ثياباً من قماش سالونيك[2] بألوان مختلفةٍ، وعلى رؤوسهم قبّعات مخروطيّة الشَّكل من اللباد[3] الأصفر، ويُؤتى بهم في حضرة [18 ب] الصدر الأعظم، والذي يرافقه لأجل هذه الغاية الباشوات وكبار موظفي السراي الآخرين، ويختار منهم الأجمل والأكثر أهلية لخدمة سراي السلطان، وبعددٍ وفيرٍ بحيث يسد

(1) في ب: 10 وفي رحلة تومّازو ألبيرتي: 17.

(2) سالونيك (Salonica) مدينةٌ تقعُ في شمال اليونان اليوم، وقد كانت تحت حكم العثمانيين منذ عام 1430م وحتّى مطلع القرن العشرين.

(3) تلبد الشعر والصوف والوبر أي تداخل ولزق، واللُّبَّادة ما يُلبسُ على الرأس من صوف ونحوه للمطر. انظر: لسان العرب، مادة: لبد.

حاجة السراي في مقابل النَّقص الحاصل نتيجة وفاة بعضٍ موظفيه وخروجِ بعضهم الآخر إلى الحرب، وبعد أن يتمّ اختيارهم فإن هؤلاء الفتية يُدعون في الحال أعجمي أوغلان، ويُدخلهم إلى السراي البُستنجي باشي وهو رئيس البستنجيّين، ويُوزَّعون على رؤساء الفرق حيثما وجد نقص، ويُخْتَنون ويُحوَّلون إلى الإسلام[1] ويتهيأون لتعلُّم اللّغة التركيّة وحسب ما تكشفهُ ميولهم فإنّه يتم تعليمهم القراءة والكتابة، بيد أنهم جميعاً دون تمييز يتم تعليمهم القتال والجري والوثب والرّمي بالنشاب والرُّمح، ومحصِّلة الأمر أنهم يتعلمون كلّ الأمور الضرورية للحرب.

والآخرون الذين يتبقّون– أقصد من العُشْر– فإن الصدر الأعظم يتولى بنفسه توزيعهم على كل الحدائق والقصور الأخرى التي يتَّخذها السلطان للاسْتجمام، وعلى السفن التي تجري بمشيئة السلطانات، أو التي تجلبُ الحطب واللوازم الأخرى للسراي، ويتمّ تسليم هؤلاء الفتية إلى أسيادهم على أن تتمَّ إعادتهم متى اقتضتِ الحاجة إليهم. [19 أ] ويعمدُ الصدر الأعظم كذلك إلى توزيعهم على ذوي الخبرةِ والمهارةِ، بغية أن يتعلموا مهاراتٍ يمارسونها في الثّكنات حينما يصبحون في صفوف الانكشاريّة، كما يوزع منهم في وقت الحرب على وجه الخُصوص. ويعطي أيضاً لكلّ الباشوات الآخرين ولكبار مسؤولي القصر بالقدر الذي يشاؤون لأجل خدمتهم، ويسلّمهم لهم وفق الاسم والعمر والعلامة[2]، ويُقيَّدُ ذلك في كتاب مخصص

(1) تقتضي الأمانةُ أن نُشيرَ إلى أن العبارة وردت على النحو الآتي:«Vengono ritagliati e fatti turchi» أي «يختنون ويُجعلون أتراكاً» والمراد أنهم يعتنقون الإسلام بعد ختانهم، وقد كان المسيحيّون لوقتٍ طويلٍ يرفضون اعتبار الإسلام ديناً منافساً للمسيحيّة ولذا فقد كانوا يشيرون إلى المسلمين بالكفَّار أو يطلقون عليهم أسماء عرقيّة كالأتراك أو السراسنة (Sarcen) أي الشرقيين أو البرابرة. انظر:

Lewis, Bernard, *The Muslim Discovery of Europe*, p. 22.

(2) ربما يقصد العلامة الفارقة.

لهذه الغاية، وذلك لأجل استعادتهم وإدراجهم في فرق الانكشاريّة متى دعتِ الحاجة إلى ذلك.

وتكون ظروف هؤلاء الفتية الموزَّعين على الباشوات هي الأكثر تدنياً، لأنهم يُؤخَذون لأجل الخدمة في الإسطبلات وفي المطابخ والخدمات الأخرى الوضيعة المشابهة. ويوضعُ المتبقون منهم في قصور مختلفة تحت عهدة وإمرة موظفين خصيان موكَّلين لهذه الغاية، وذلك لأجل تدريبهم على استعمال الأسلحة، بحيث يكونون ملائمين لإدراجهم في صفوف الانكشاريّة، وإحلالهم بدلَ الموتى والمسنّين غير المناسبين للحرب. ويمكن القول: إنّه بهذا الأسلوب يتمّ وضعهم جميعاً في مكان لأجل الانتفاع بهم في كل الضَّرورات، وغالباً ما يستخدمهم السلطان والسلطانة والصدر الأعظم في كل ما يلزمُ الغُرف. وفي الأعمال الأخرى الشَّاقة الضروريّة دون شفقةٍ.

وبعد الانتهاء من توزيعهم، فإن الصدر الأعظم يعرضهُ على السلطان في كتاب، وبعد الاطِّلاع عليه فإن السلطان يخصّصُ لكلّ واحد من هؤلاء الفتية أجْراً، حسب ما يراه ولكن وفق القانون المعمول به، وهذا الأجر هو آقجتان وثلاث آقجات وحتى خمس آقجات في اليوم لكلٍّ منهم، وهذا الكتاب حيث يتمّ إقرار الأجر موقَّعاً بتوقيع السلطان يتم [19 ب] تسليمهُ فوراً للدَّفتردار الكبير الذي يستطيع، بل يتوجّب عليه صرفُ الأجور كلّ ثلاثة أشهر، ويتوجّب عليه زيارتهم كلّ ثلاثة أشهر لأجل صرف أجورهم، ولأجل معرفة عدد المتوفّين والإشراف على كيفيّة معيشة الفتية وتربيتهم.

والآن أعود إلى الحديث عن العجم أوغلان في السراي، وأظنُّ أن لهذا القليل من الاسْتطراد فائدته؛ فربّما يكونُ هذا الموضوعُ شائقاً لمن لم يسمع به من قبلُ.

إنَّ هؤلاء الفتية هم الأدنى قَدْراً بين الجميع في السراي، إذ توكل إليهم مهامّ الاعتناء بالمباني والإسطبلات والمطابخ والحدائق وقطع الحطب[1]، وخدمات أخرى وضيعة في الحمّامات، وأشياء أخرى مما تدعو إليه الحاجة كالحراسة والتَّجديف بقوارب السلطان ومرافقة الكلاب للصّيد، والاهتمام بكلّ ما يُؤمرون به من رؤسائهم الذين هم قادة فرق عشريّة ومئويّة، وجميعهم يندرجون تحت إمرة الكيخيا[2] وهو رئيس البستنجي باشي ، وتحت إمرة البستنجي باشي نفسه، الذي يكون مسؤولاً عنهم جميعاً، ويحميهم ويحكم بينهم في كلّ ما يمكن أن يعرِضَ له، ذلك أنه بالإضافة لما يتقاضونه من راتب، فإنه كما قلت يُعطى لكلٍّ منهم ثوبان من القماش في السنة، وقطعتا قماش لأجل القمصان والمناديل، والكثير من الصُّوف أو القماش، لأجل عمل بعض السَّراويل الطَّويلة حتى الأرض على عادتهم.

ويوزع البستنجي هؤلاء الفتية على المهام المعتادة [20 أ] ويقسمهم حسب الحاجة تحت رؤساءٍ يتوجَّب عليهم طاعتهم، ولكي يتميز هؤلاء الرؤساء عن غيرهم فإنهم يتقاضون أجراً أعلى، ويلبسون أحزمةً ثقيلةً من الحرير بألوان مختلفة. ولِمَا يمتازون به من صرامةٍ فإنّهم يجعلون الفتية يعتادون على العمل والمشقّة، بحيث يصبحون قادرين على التحمل ومهيَّئين لأي معاناة.

---

(1) وكان هؤلاء يُسمون ب «البلطجية»، أي أصحاب الفؤوس، وكان من مهامهم تسوية الطرق وتجفيف المستنقعات وقطع الأشجار، لكن أصبحوا بعد فتح القسطنطينية، يقومون إلى جانب تلك المهام بحراسة الحريم حين يذهب السلطان بنفسه إلى الحرب، وكان فوج الحطابين ينقسم إلى قسمين: يقيم أحدهما في السراي القديم والآخر في السراي الجديد. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 136.

(2) كيخيا كلمة فارسية الأصل وتعني صاحب البيت أو رب البيت، واستخدم هذا اللقب لمن يعمل نائباً أو قائماً بالأعمال، وكان يُطلق في البداية على من يشرفون على أعمال رجالات الدولة أو الوزراء ومن ينوبون عنهم، ثم شاعت لتطلق في معناها الواسع على مديري الأعمال أو المشرفين العاملين بمعية الكبار المعتمدين عليهم في إدارة الأمور الخاصة. صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 188.

ولهؤلاء الفتية فيما بينهم حدودٌ يلتزمونها وامتيازات يحظونَ بها متدرّجين حسب العمر، بحيث إنه في نهاية المطاف إن لم يتمّ إرسالهم خارج السراي لاستثناءات أخرى، فإن جميعهم يمكنهم التّوق إلى العيش في مرتبة رئيس الخدم، وأيضاً مرتبة البستنجي باشي [وهو لقبٌ رفيع ويخدم كقائدٍ لقوارب السلطان، ويمكنه أن يعتمر العمامة داخل السراي، ويمكنه أيضاً][1] أن يترقى من هذه المهمة حسب ما يُكِنّ له السلطان من محبّة إلى تلك الرُّتب العليا؛ فقد أصبح قبطاناً للبحر ووالياً على القاهرة وصدراً أعْظم.

ولا يُضيَّقُ على هؤلاء العجم أوغلان ولكنهم يُطيعون أوامر البستنجي باشي، ويخرجون معه أو مع غيره للقيام بالإعدامات السرية لكبار رجالات الدولة على النحو الذي يأمرهم به البستنجي باشي وذلك بأمر من السلطان[2]. ويوجد من بين العجم أوغلان من هم أتْراك أصيلون؛ يتواطأُ البستنجي باشي في إدراجهم في الخدمة، لأجل إكرام أصدقائه الذين يرغبون في التخلّص من أولادهم ووضعهم في مكان آمن ويعودُ عليهم بالنَّفعِ، ولكن ذلك يتمّ دائماً بعلم السلطان وإذنه[3]) [20 ب].

وتوزَّعُ غرفهم وحماماتهم ومطابخهم على مجموعاتٍ حول أسوار السراي، وتُهيَّأُ لأجل تيسير القيام بالمهامِ الموكلةِ إليهم، وينظِّمون أمور معيشتهم بأنفسهم على النّحو الذي يشاؤون؛ إذ توجد مخازن اللّحم بشكل مستقلّ، والحبوب لأجل شوربة الخضار، ويعطيهم الفرّانون الخبزَ فرداً فرداً، وحيث إنّهم دائماً قريبون من أسْوار السراي فإنهم يصطادون سمكاً جيّداً، ويأخذونه ويبيعونه ويجنون من ذلك الفائدة.

---

(1) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل.

(2) وكان اثنا عشر شخصاً من البستانية يرتدون الملابس المدنية ويعملون كشرطة مخبرين. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 379.

(3) الأصل: ويأمر بذلك البستنجي بأمر من السلطان.



البستنجي باشي

المصدر:

Paul Rycaut, *The History of the Present Day of the Ottoman Empire* (London, 1675) between pp.74 and 75

وينام هؤلاء الفتية دائماً بثيابهم حسب عادة الأتراك، وبأغطية الصُوف شتاءً والشَّراشف الخفيفة صيفاً، ولا يروْنَ السلطان أبداً إلّا حين مروره بالحدائق، مُنتقلاً إلى غرفةٍ ذات إطلالة جميلة[1] أو إلى القارب أو حينما يخرج للصيد؛ حيث إنه ينتفع بهم لأجل صيد الحيوانات البرية، لا سيما أنهم خفيفو الحركة وأقوياء.

وحينما يرغب جلالة السلطان في البقاء مع النساء في الحدائق لأجل المتعة، فإنهم جميعاً يخرجون من بوّابات السراي إلى ساحل البحر، حيث توجد بعض الأماكن والمساحات من الأرْض على شكل طريقٍ عريض فوق البحر، ولا يَدْخلون السراي حتى ينصرف السلطان، لأنه لا يبقى مع النساء أبداً رجالٌ آخرون، ما عدا السلطان والخصيان السُّود، بل لو أن أحداً من السراي تجرّأ بطريقةٍ ما محاولاً رؤية النساء، وانكشف أمره أو اتهم بذلك، فإنه قد يُقتل في الحال [21 أ]. ولهذا حينما يعرف أن السلطان برفقة النساء في الحدائق فإن كلّ واحد يهربُ أبعد ما أمكنه الهربُ، لكي يكون في مأمن من أي شكوك.

ولا ينتفعُ الباب العالي من هذا الصّنف من العجم أوغلان لتجنيده في صُفوف الانكشاريّة، كما يُفعلُ بالآخرين الذين، كما أسلفت، يُوزَّعون على القصور الأخرى لأجل تلقِّي التعليم، ويتم إعارتهم لبعض رجالات الدولة، بل إن السلطان وحده من ينتفع بخدمة هؤلاء، وذلك لكي يهبهم للمقرَّبين لديه عند إرسالهم خارج السراي في إحدى الولايَات الرئيسة، فيكونون في حاجة إلى خبرة العجم أوغلان لخدمتهم، ومع مرور الوقت فإنهم يصبحون أيضاً رجالاً ذوي شأنٍ ومكانة رفيعة.

كما يُعَوَّلُ عليهم في خِدْمة السلطان عندما يخرج إلى الحرب، أو حينما يبتعدُ عن القسطنطينية؛ إذ لابد أن يتوفَّر من هؤلاء خمسمئة وأكثر لأجل

---

(1) في ب: إلى كشك مّا.

نصب الخيم[1] وحمل الصَّناديق، ولأجل القيام بالكثير من الأعمال اليدويّة.

ويبقى القول عند الحديث عن هذه الفرقة من الشباب والرِّجال: إنهم يمكثون في السراي لأجل خِدمة السلطان والسَّلطنة، ولأجل تلقِّي التعليم في القانون والآداب والأداء العسكري، لأنه يتوجّب عليهم خدمة السلطان وحُكومة الإمبراطورية جميعها.

وهؤلاء العجم أوغلان وإن كان [21 ب] أغلبهم من العبيد المسيحيّين المرتدّين إلا أنه يوجد بينهم أيضاً من الشباب الأتراك، وهم على قلَّتهم ذوو مظهرٍ جميل للغاية؛ إذ يتمّ إدراجهم بتواطؤٍ من القابي آغا، وهو كبير السّفرجيّة وبموافقة السلطان، ويحدثُ هذا الأمر نادراً وبصعوبة كبيرة؛ ذلك أن التقليد القديم يقتضي أن يكون هؤلاء الفتية دائماً من المسيحيّين المرتدّين من أكثرهم تمدناً ونُبلاً، ولكن حينما يحدثُ أن يُؤسرُ في حروب البرّ والبحر فتىً من النبلاء، فإنه يُخصَّصُ فوراً للسلطان لأجل تلقّي التعليم وإدراجه في الحكومة. ويحظى هؤلاء بعظيم التّقدير والاحترام، لأن الأتراك أيضاً يعتقدون أنه من الدِّماء النبيلة تنشأُ أرواحٌ كريمة وفاضلةٌ جداً، وخاصة عندما يتمّ تَعهُّدهم بحُسْن التربية والتعليم على النحو الذي يُدَّعى اتّباعُهُ في السراي، حيث ثمّة قسوة شديدة في كلّ مراتب التربية، من حيث إن السلطة تكون في يد المربِّين، وهم جميعاً في أغلب الأوْقات من الخصيان البيض الذين يكونون من القسوة والخشونة بمكان في كلّ أفعالهم، حتى إنه يقال، على سبيل المثال: إنه حين يخرج أحد من ذلك السراي بعد أن يكون قد تخطى

---

(1) ويسمّى القائم على هذه المهمة الجادر مهتري باشي، وكان يقوم بنصب خيم السلطان حين يكون في ساحة الحرب، أما في العهود المتأخرة التي لم يعد فيها السلطان يقود جيوشه بنفسه في ساحات القتال، فإن وظيفة هذا الضابط ظلت هي نصب الخيم للسلطان في حدائق القصر أو في نواحي إسطنبول حيث يخرج السلطان للتنزه، وقد بلغ عددهم في القرن الثامن عشر حوالي ثمانمئة شخص. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 382.

كلّ مراتبه فإنه يكون الرجل الأذل والأكثر صبراً في الدنيا؛ ذلك أن الضرب الذي يتعرَّضون له والصِّيام الذي يجبرون عليه جزاء كلّ مخالفةٍ صغيرةٍ [22 أ] لهو شيءٌ عجاب، ومن القسوة بمكانٍ بحيث إن الكثيرين ممن هم على مقربة من انتهاء الخدمة لكي يصبحوا خلال أعوام قليلة من كبار رجالات القصر يتدبّرون الأمرَ، لأجل أن يتمّ صرفهم خارج القصر فقط بلقب سباهي أو متفرقة، أي الحرس المرافقين للسلطان، وذلك بسبب عدم قُدرتهم على تحمُّل الكثير من القَسوة وقد كبروا، قانعينَ بالقليل من الآقجات في اليوم على ألّا يعانوا حياةً قاسيةً وغير محتملة[1].

وليس لهؤلاء الفتية عدد محدَّد؛ فأحياناً يزيد وأحياناً يقل، ذلك أنّهم كما ذكرت حينما يتم تقديمهم كهدايا إلى السلطان فإنه يقبلهم بسرورٍ ما داموا لم يتجاوزوا سن الشباب، كي لا نقول سن الطفولة، ويمكن أن يبلغ عدد هؤلاء على حدِّ تقديري نحوَ ثلاثمئة.

والطريقة التي يتمّ من خلالها توزيعهم حال دخولهم القصر مذهلة وجديرة بالتوثيق؛ فليس الحديثُ هنا عن برابرة همجيّين بل عن أناسٍ ذوي فضيلةٍ فريدةٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ، حيث يتمّ توجيه الفتية على نحو حسن وتربيتهم بجدٍّ ومثابرة على الأخْلاق والعادات، لأجل طهارة الحواس[2] والتَّطَبُّع بالفضائل المعهودةِ بين الناس، وليس أقلّ من ذلك الدِّين والانضباط الذي لا مثيل له[3].

---

(1) يأتي السير بول رايكوت على ذكر تلك القسوة التي يتعامل بها الخصيان البيضُ مع من هم تحت إمرتهم من الشبان، ويعلل ذلك بغيرتهم من فحولة الشبان المكتملة أو أن هؤلاء الخصيان ينحدرون في طباعهم حتى يصبحوا مثل النساء اللواتي هنّ في أكثر الأحيان أشد قسوة وأكثر ميلاً للانتقام من الرجال. انظر:

Rycaut (1675), *the History of the Present Day of the Ottoman Empire*, London, printed for John Starkey and Henry Brome, pp. 46-47.

(2) يريد بذلك امتناع الجنود عن ممارسة الجنس، وهو تقليدٌ عُمِلَ به عند الرومان أيضاً.

(3) في ب: الانضباط العسكريّ.

[مدارس السراي]

ويستعمل الأتراك كلمة أوضة[1]، أي غُرفة، والأصحُّ في تعبيرنا أنها المدرسة، وعدد هذه المدارس أربع على التَّرتيب: ففي (الأوضة) الأولى يدخل الجميع وهم في سنّ الطفولة، وإن لم يكونوا قد اعتنقوا الإسْلام بعد فإنهم [22 ب] يُختَنُون، ويُفرضُ عليهم أولاً الكتمان، ويلزمون بمبدأ أنهم لا يتكلمون أبداً إلا إذا طُلبَ منهم، ويتم تعليمهم أوضاع الوقُوف أمام السلطان بهيئة العبودية والتبجيل الذي لا نظير له، ويكون ذلك بطأطأةِ الرَّأس وخفض العينين وضم اليدين وتشبيكهما إلى الأمام.

ويُعرضُ الفتيةُ على السلطان، ويتمّ تسجيلهم في كتاب بالاسم التُّركيّ والمَوْطن، ويتقاضون أجراً من جلالته، وهو عادة آقجتان إلى خمس آقجات في اليوم، وترسلُ نسخةُ السجل إلى الدَّفتردار الكبير الذي يرسل إليهم الأجر المعتاد، ومن ثم يتم إدراجهم بمواظبة تحت إشراف أحد الخصيان البيض، وهو رئيس المربّين الآخرين كما هو الحال في المدارس النظاميّة، لأجل تعلُّم القراءة والكتابة باستخدام لغتهم وأفعال العبادة في دينهم.

وفي هذه (الأوضة) يتم حثُّهم بانضباط وجدية صباح مساء، وإنه كما قيل لي لأمرٌ مدهش. ويبقى كلّ واحد في هذه المدرسة على الأقلّ ستّ سنوات أو ثماني؛ خصوصاً أولئك متحجرو الرُّؤوس والمستعصون على الاستيعاب، ويتعلمون القراءة والكتابة على كتب مكتوبة بالقلم؛ فالأتراك لا يستعملون المطبعة لأنها محرمة عليهم[2].

---

(1) أوده أو أوضة (Oda) كلمة تركية تعني غرفة، وهي دارجة في بعض لهجات مصر وبلاد الشّام.

(2) ظهرت الطباعة في الأستانة أواخر القرن الخامس عشر بالحروف العبريّة، فقد أحضر أحد العلماء اليهود مطبعة وحروفاً عبرية لينشر كتب الديانة اليهودية المخطوطة، فخشي السلطان بايزيد الثاني أن يستفيدَ رعاياهُ المسلمون من هذا الاختراع الجديد، فأصدر سنة 1485م أمراً يحرّم على غير =

وينتقلون من (الأوضة) الأولى إلى الثانية، حيث يتولى مدرسون آخرون [23 أ] أشد ذكاءً تعليمهم اللُّغات الفارسية والعربية والترية، ويُدربون على قراءة الكُتُب المخطوطة لمختلف الكُتاب، لأجل إتقان التحدث باللغة التركية على نحو لبق لا يتأتى إلّا بمعرفة المرء التامّة لهذه اللّغات جميعها، والتحدث بمزجها معاً، حيث يجدُ المرء فَرْقاً كبيراً في حديث من يخرج وقد تلقّى تعليمه في القصر، وحديث آخر تربّى وتعلّم خارجه.

ويبدأون في هذه الأوضة تعلّم المصارعة والرَّمي بالنّشاب والحربة والرمح والتحكم بالأسلحة الحادَّة والجري السَّريع، ويتم التدرب على هذه التمارين بقسوةٍ شديدة، في الأوقات المخصصة لذلك وفي أماكن منفصلة، ويُمضون في هذه الأوضة مدة خمس بل وستّ سنوات بمواظبة شديدة، ثمّ ينتقلون منها وقد أصبحوا رجالاً أشدّاء قادرين على أيّة صعاب إلى الأوضة الثالثة، حيث لا ينسون الأمور التي اكتسبوها؛ بل يتدربون عليها باستمرار ويتعلمون فوق ذلك فن ركوب الخَيْل واللعبِ على صهواتها، لكي يكونوا خفيفي الحركة أثناء الحرب، وإضافة إلى ذلك يتعلّم كلّ منهم حسب ميوله وإمكاناته أحد الفنون الضرورية لخدمة السلطان، مثل: عمل العمامة والحلاقة وقصّ الأظفار

= اليهود استخدام هذه المطبعة، وبقي الأمر كذلك إلى أن افتتحت أول مطبعة إسلاميّة في إسطنبول سنة 1727م وذلك بجهودٍ كبيرة بذلها شخصان هما إبراهيم متفرقة وهو هنغاري الأصل وسعيد محمد باشا وهو ابن السفير العثماني لدى فرنسا محمد جلبي أفندي يكرمي سكز ومرافقه في سفره سنة 1720—1721م. وقد عملا على إقناع النخبة السياسية ممثلةً بالصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا والدينية ممثلة بشيخ الإسلام آنذاك عبدالله أفندي على استصدار «فرمان» من السلطان أحمد الثالث لإنشاء المطبعة التي كانت محرمةً على المسلمين العثمانيين بسبب زعم رجال الدين خوفهم على القرآن، وربما حتى لا يلحق ذلك الضرر بنقابة النساخين الذين كانوا يسترزقون من نسخ الكتب. وقد تولى متفرقة إدارة المطبعة حتى وفاته سنة 1745م ثم أغلقت إلى أن تم افتتاحها من جديد سنة 1755م. لمزيد التوسع حول هذا الموضوع انظر:

Günay Alpay Kut, Matba'a, *The Encyclopedia of Islam*, edited by C.E. Bosworth et. al., vol 6 (Leiden: Brill 1990), pp. 799-803.

والغسيل وطي الملابس بإتقان، وتربية كلاب الصيد ومعرفة كلّ أنواع الصُّقور والطُّيوز الأخرى، والعمل كخادم ومسؤول إسطبل ونادل [23 ب] وحامل للسَّيف، ومحصِّلةُ الأمر أنهم يَقومون على خدمةِ قصر السلطان على النحو المعتاد في بلاطات الملوك والأباطرة الآخرين، ويصبحون في هذه القاعات، حيث يمضون مدَّة أربع أو خمس سنوات رجالاً خبراء ومؤهَّلين لتعليم الآخرين.

ويرتدون ما داموا مقيمين في هذه (الأُوَض) الثلاث ثياباً على نحو حسنٍ؛ إذ يُخصّصُ لهم ثوبان في السنة ولكن من قماش أجود، وتعطى لهم الأقمشة كما الآخرين، ويبقون تحت إمرة المربّين الذين لشدَّة قسوتهم، فإنّهم يضربونهم عقاباً لهم على أي تقصيرٍ، أو شكوكٍ في أمانتهم على أقدامهم وأردافهم إلى أن يشارفوا الموت.

ولا يسمح لهم أثناء إقامتهم في هذه (الأُوَض) التعامل مع غير أمثالهم، ويكون ذلك بأدب جمّ، ولا يمكن لأحد من خارج القصر أن يراهم أو يتحدَّث إليهم إلا بصعوبة بالغة، وإن حدث ذلك فيكون بإذن من الآغا قابي وبحضور أحد الخصيان، بل إنه حين يحتاجون إلى الذهاب إلى الحمامات لأجل حاجاتهم، فإنهم يخضعون للمراقبة الحثيثة من قبل الخصيان، لأجل إبعادهم قدر المستطاع عن الرَّذائل، وإن تبيّن تقصيرهم في شيء أو اتهموا بذلك، تتم معاقبتهم بقسوةٍ على النحو الذي ذُكر.

وفي مساكنهم وهي قاعات طويلة حيث يمكن أن يقيم في الغرفة الواحدة أربعون بل خمسون فرداً، يبيتون مُنفصلين بعض الشَّيء الواحد عن الآخر على الأرائك [24 أ]، ملتحفين أغطيةَ الصُّوف الخشن والأغطيةَ الخفيفة.

وتنبعثُ في الليل الأضواء من الفوانيس المتدليَّة من السّقف، كما يوجد بعض الخصيان الذين يبيتون موزَّعين بين الفتية، لأجل بثٍّ الرهبة في نفوسهم

وإبعادهم عن الطيش والفسوق.

ومن هؤلاء الفتية أيضاً من يتعلم بعض الفنون مثل خياطة الجلد المدبوغ، وهو فنٌّ يحظى بتقدير الأتراك، وإصلاح البنادق(1) وصنع الأقواس والأسهم والتَّزيين وما شابه ذلك، بحيث إنهم يستمدون من هذه الأعمال ألقابهم وشهرتهم؛ ذلك أن من يتجنَّبُ الكسل والخمول ويحبُّ العمل، فإنه يكون موضع تقدير عظيم.

والعادة أن الخصيان يُجرون لهم اختبارات كبيرة لأجل فحص تمسُّكهم بالدِّين، وليروا إن كانوا مقصِّرين في جانب مّا من جوانبِه، لأنه من حيث اقترابهم من الانتقال إلى الأوضة الرابعة المسماة الأوضة الكبيرة، فإنهم لا يريدون أن يُسبِّب هؤلاء ضرراً جسيماً للإمبراطورية إذا ما كانوا يتذكّرون أنهم كانوا مسيحيّين، وأنهم يرغبون بالرجوع إلى دينهم الأول.

وبعد الانتهاء من عمل كلّ أنواع الاختبارات، ويتم تجربة كل السبل، ويثبتُ أن كلَّ شيء على ما يُرام، وأن هؤلاء الفتية مؤهَّلون بحقّ فإنهم يجعلونهم ينتقلون إلى الأوضة الرابعة آنفة الذكر. وفي انتقالهم هذا يتم تجنيدهم وتسجيلهم من جديد، فمن حيث إنَّ الانتقال إلى الأوضة الرابعة يقتصر على أولئك الذين تخطوا المراحل السَّابقة، وأصبحوا مؤهَّلين ومجرَّبين بشكل جيِّدٍ لأجل الخدمة، فإنّه يتوجب أن يُجعلَ لهم سجلٌّ مُنفرد؛ لأن الذين يدخلون إلى هذه الأوضة يصبحون على الفور معنيين بخدمة السلطان [24 ب]، ويتقاضون زيادةً في الأجر، منهم من هو أكثر، ومنهم من هو أقل

(1) وردت (Archibusi) أي القَرَبينة ويترجمها البعض الهركوب، وهي بندقية قديمةٌ ذات فتيل، كانت يستعملها جنود الإنكشاريّة، وكان من يتولى هذه المهمة يُدعى التفنكجي باشي أو حارس البنادق، وكان يساعده عشرون من حفظة البنادق، وكانت وظيفتهم صيانة بنادق الصيد للسلطان التي تُحفظ في «دولاب» في مدخل غرفة البردة النبوية. وفي حفلات الصيد الشهرية التي يحضرها السلطان يخرج هذا الآغا ومعاونوه البنادق والعتاد ويقدمها للسلطان، ثم يعيدها بعد الحفلة إلى مكانها بعد التنظيف. انظر: جب: **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 373–374.

حتى أربعين آقجة في اليوم، وتبدل ثيابهم من القماش إلى الحرير، وكذلك إلى الثياب المرصعة بالذهب، ويعتمرون على رؤوسهم طاقيّة أو كوفيّة من الذّهب مشغولةً جيداً، ويربُّون شعورَهم على أصداغهم كي تصبحَ طويلةً جداً حتى أسفل الأذنين، حالقين رؤوسهم وذقونهم، وهذه علامةٌ واضحةٌ على أنّهم هم الفئة الأقْرب إلى حضرة السلطان.

ويعتنون بمظهرهم، فهم مرتبون جداً في ملبسهم ونظافتهم؛ لأنهم يقومون على الخِدْمة السلطانية، وكثير منهم يرافق جلالة السلطان إلى جميع الأماكن التي يذهب إليها لأجل الاستجمام، ويتعاملون بأريحية مع كبار رجالات القصر، وكذلك مع الباشوات عندما يدخلون إلى السراي لأجل الفصل في الشؤون، وغالباً ما يقدم لهم هؤلاء الباشوات الهدايا من الثياب وأشياء أخرى قيمة، لأجل حَمْلهم على حفظ الجميل من حيث إنهم مؤهلون مستقبلاً، ليصبحوا رجالاً ذوي شأن وتوكل إليهم مهامّ كبيرة.

[خدم السلطان]

ويستخلص السلطان من هؤلاء الشبان ممن يبلغون هذه المرحلة، بعد تخطي التدريب خلال هذه السنين الطويلة، والذين تمّت تربيتهم على النحو الذي ذُكر– آغاواته المقرَّبين إليه[1] الذين يقومون عل خدمته وهم على النحو الآتي: [25 أ]

السّلحدار آغا: وهو الذي يحملُ سيفَ السلطان[2].

---

(1) وكان يُطلق عليهم اسم ايج آغا أي أغوات الداخل وهم المعنيون بخدمة السلطان داخل قصره، ثم أُطلق عليهم أخيراً اسم أندروني همايوني أي داخل القصر. انظر: حب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 129.

(2) وظيفة السلحدار الأصلية هي أن يحمل سيف السلطان معلقاً على كتفه الأيسر، إلا في =

التشوكادار آغا: وهو الذي يحملُ ثياب السلطان.

الركابدار: وهو من يبقى عند سرج خيل السلطان، رئيس السراجين.

مطارجي آغا[1]: [وهو الذي يحملُ له إناء الماء][2].

تشماشير آغا: من يغسلُ ثياب السلطان.

كلرجي باشي: رئيس مسؤولي مخازن المؤونة.

دوغانجي باشي: رئيس الصقارين[3].

سكرجي باشي: كبير مربي طيور الصيد.

= الحفلات العامة حيث يحمله معلقاً على كتفه الأيمن، وأن يحرس جيداً كل أسلحة السلطان وأدوات حربه ويصونها في حالة جيدة، ولكن لتقدمه في الخدمة إلى المقام الأول فقد أنيطت به مهام أخرى؛ فكان عليه أن يبقى في حضور دائم في الخدمة منذ خروج السلطان لصلاة الفجر حتى عودته في وقت متأخر من المساء، وكانت كل تقارير الوزراء وغيرهم تُقدم إلى السلطان بواسطته. وكذلك فإنه الوحيد الذي يبلغ أوامر السلطان إلى الضباط والموظفين المعنيين، كما أنه يشرف على سير الحفلات التي يحضرها السلطان إضافة لكونه مسؤولاً عن حسن سلوك الوصفاء، وكان يستقبلُ أيضاً الداخلين الجدد إلى الخدمة ويرتّب أمور المتقاعدين منهم. وإذا ما نُحّي السلحدار عن منصبه يعين دائماً والياً على مصر أو على إقليم هام آخر غيره. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 370.

(1) المطّارة إناء يحمل به الماء في السفارات وكان المطارجي باشي (رئيس حملة الماء) أحد ضباط أورطة المخضر آغا وكان يرافق الصدر الأعظم في جولاته في الأسواق ويسير إلى جانبه. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 356/1، هامش رقم: 33.

(2) الأصل: (هو الذي يحملُ عمامة السلطان ويلفها له)، وهذا ليس صحيحاً لأن الذي كان يقوم بهذه المهمة هو الدولبندار آغا، وفي ب: المشربه آغا: الذي يحمل له إناء الماء، وفي نص تومازو ألبيرتي: المطارجي آغا هو الذي يصب الماء على يدي السلطان.

(3) رئيس الصقارين هو الجاقرجي باشي، والجاقر هو الصقر، وكان هذا مسؤولاً أيام محمد الفاتح عن صقور القصر بجميع أنواعها، ولكن حين أصبح الصيد بالطيور هواية عامة في القرن السادس عشر أُنشئت ثلاث وظائف جديدة أخرى تساوي الصقار أهميةً وهي وظائف الشاهينجي باشي والدوغانجي باشي والأغجاج باشي (والشاهين والدوغان والأغجاج أنواع من الصقور) أدت إلى فقدان الصقار أهميّته السّابقة بل وصيرورته بعد الشاهينجي بالقدم، إلا أن هذه الوظائف أصبحت منذ القرن الثامن عشر وظائف اسمية فقط. وأصبح الدوغانجي باشي مسؤولاً عن العسكر البلغاري وظل محتفظاً باسم دوغانجي، أي المسؤول عن تجهيز الصقور للسراي. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 376–377.

محاسبجي باشي: رئيس المُحاسبين.

الطرناقي باشي: من يتولى تقليم أظفار السلطان[1].

البربر باشي: رئيس الحلاقين[2].

الحمَّامجي باشي: من يغسلُ جسد السلطان في الحَمَّام.

تسكرجي باشي: السكرتير الكبير.

وجميع هؤلاء هم من أكبرهم سناً، ويحضرون دائماً حينما يخرج السلطان من غرفه وفي حضرتهِ، ويخفضون أعينهم ولا ينظرون في وجهه أبداً، ويشبكون أيديهم مظهرين عظيمَ التواضع والإجلال الذي يمكن أن يصل إليه خيال المرء. ولا يجوز لهم أبداً التحدث مع السلطان أو فيما بينهم، وإذا أمرهم بشيء ما فإنهم ينفِّذون الأمرَ فوراً وبسرعةٍ شديدة.

ويقوم هؤلاء بكلّ المهام الموكلة إليهم كما ذُكر بشكل مستقلٍّ، ويقفون في المواقع المخصّصة لهم لأجل القيام بوظائفهم، مستعدِّين رهنَ أي إيماءةٍ للطاعة، فيستلمون الأطعمةَ بالباب [25 أ] من الخادم من الخارج، ويُعدون المائدة السلطانية التي تكون مجهزة على جلد بلغاري بسيط، وموضوعة فوق «الصُّوفا» على الأرْض، ويأتون بالأطباق الواحدَ تلو الآخر بواسطة كبير الخدم، وتوضعُ أمام السلطان وتُرفع بإشارةٍ منه.

ويُسرُّ السلطان كثيراً بالخدمةِ والمحادثةِ مع هؤلاء؛ فيجعلهم يركبون الخيل، ويلعب معهم ألعاباً مختلفةً، ويقضي في ذلك الوقتَ الذي يشاء مقدِّماً لهم دائماً بعض الهدايا من الثياب والمال والسُّيوف وأشياء أخرى مما يقع بين

(1) ويتولى العنايةَ بأظفار السلطان في كل وقت، والطرنق هي الأظفار. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 374.

(2) يُعينُ هذا الآغا لخدمة الفرقة الخاصة من بين حلاقي غرفة الحرب، وكانت وظيفته الحلاقة للسلطان شخصياً، وكان الشعر المحلوق يُجمع بعناية ويوضع في صندوق ويُرسل سنوياً مع الصرة (وهي كيس يرسله السلطان وبه هديته السنوية إلى الشرفاء في الحجاز) إلى المدينة حيث تدفنُ هناك بكل احترام. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 374.

يديه.

وبالإضافة إلى هذه الهدايا، يُوكلُ إليهم السلطان عادة مهمَّاتٍ سِفاريَّةً، يعتبرونها تجارة مربحة؛ فحينما يُرسلون إلى الأمراء فإن أفئدتهم تهوي إلى الهبات التي سيحصلون عليها، وعندما تُوكل إلى أحدهم هذه المهمة، فإنه يختار أحد الجاويشيَّة أو شخصاً آخر، ويتمُ الاتِّفاق بينهما، فيدفع هذا إلى الجاويش أو غيره مبلغاً من المال قبل سفره أو بعد عودته حسب ما يريانه مناسباً، ثمّ يعطيه الرسالة لكي يوصلها إلى الأمير المعني.

ويصبحُ هؤلاء أتراكاً ذوي شأن عظيم، ذلك أنه عند اعتماد أمراء الأفلاق والبغدان وترانسيلفانيا [26 أ] وملك التَّتر الذينِ يُرسل لهم الباب العالي شارة السلطة، فإنهم يحصلون على هدايا قيمة، من حيث إنه محدد مسبقاً في القانون المقدار الذي ينفقه كلّ واحدٍ لِمَا خُوّل إليه من منصب، وهذا ما يقوم به السلطان بمهارةٍ لكي يصبح هؤلاء الآغوات أثرياء، فتكون عندهم أموال متراكمة لأجل النَّفقات الضرورية على الثياب، ولترتيب شؤونهم حينما يخرجون من القصر، ويعقب ذلك– عندما يشاء جلالة السلطان، وغالباً ما يكون ذلك فجائياً– أن يوكل إليهم مهمَّة قبطان البحر وباشا على القاهرة وحلب وبابل والولايات الأخرى، ويمنح بعضهم أيضاً لقبَ مُصاحِب[1] أي إن له الحريّة في الدخول على السلطان والتحدث إليه متى شاء. وهذا اللَّقب عظيم المنزلة بحيث إنه يكون موضع تقدير أكثر من أي شيء آخر، لأنه نادر الحدوث ويحظى به فقط أولئك الذين يُكنّ لهم السلطان محبة، وقد اعتاد السلاطينُ قديماً على العمل بذلك، لكي يكون لديهم رجال ثقات خارج القصر يطلعونهم بأمانةٍ على كلّ ما يقوم به الباشوات، وأي مسؤول

(1) المصاحب هو من يصاحب السلطان، وخُصّص لهذا الغرض من آغاوات القصر والوزراء، ويتصف بغزارة المعلومات واللباقة في الكلام وسرعة البديهة. صابان: **المعجم الموسوعي**، ص: 209.

يلحق الضرر بالإمبراطورية، وذلك من أجل كبحهم بواسطة العقاب واتّخاذ الإجراءات.

وحينما يرسلهم السلطان خارج القصر، ولا يرغب في أن يتفضل عليهم كثيراً فإنه يعيّنهم بمنصب بكلربي الرّوملي والأناضول أو آغا الانكشاريّة [26 ب] أو سباهي آغا سي، أي رئيس السباهية أو أمير آخور باشي، أي رئيس الإسطبلات أو على الأقل قابيجي باشي، أي رئيس البوّابين.

وعندما يغادرُ هؤلاء القصر فإنّهم يأخذون معهم ممتلكاتهم الخاصة وأموالهم، وغالباً ما يغادر معهم أيضاً بعض الشبان الآخرين من «الأُوَض» الأخرى المبعدين، بسبب إلحاحهم وذلك من دون أن ينالوا فضل السلطان وبراتبٍ قليل ورُتْبة متدنّية.

والذين يغادرون القصر من الرجال ذوي الشأن، ينتقلون منه إلى قصر الصدر الأعظم بواسطة الكخيا بصحبة خيل كثير، وعندما يبلغون قصر الصدر الأعظم يقوم باستقبالهم ويكرمهم، موفّراً لهم مكاناً للإقامة فيه مدّة ثلاثة أو أربعة أيام، حتى يتدبروا أمرهم بمسكن يأوون إليه وينشئون أسراً وهم بحاجة إلى ذلك. ويأخذون أولئك الذين غادروا معهم القصر كخبراء ليشغلوا الوظائف الموكلة إليهم، كما يأخذون غيرهم عن طريقِ الهبات لأجل الانتفاع بهم حسب العادة.

ويحلُّ محلَّ هؤلاء الذين يغادرون القصر أولئك الذين يلونهم في السن، مخصصين ومهيّئين وفق القانون، بحيث لا يمكنهم إذا لم يتعلق الأمر بإصابة شديدة بسبب سوء عملهم أن يبدلوا أو يغيّروا، بل إنه يعرف دائماً من يجب أن يدرج في الخدمة عند مغادرة بعض أولئك القصر، وهذا الشأن منظم جداً، بحيث إن [27 أ] الذين في الأوضة الثالثة يعرفون من سيكون دوره تالياً وفي أي وقت أيضاً. غير أنهم يعيشون على الأمل والرغبة بأن تتأتى مشيئة

السلطان، فيرسل خارجاً بعضاً من آغاواته لكي يتعجلوا الانتهاء من تلك الخدمة التعسة، وينتقلوا إلى شأن حكومي أكثر رحابةً.

وتتراوح أعمار هؤلاء عادة بين ستَّة وثلاثين وأربعين عاماً، ومن حيث إنهم يغادرون القصر حليقي اللحى، فإنهم يبقون في البيت بضعة أيام لجعلها تربو، لكي يتمكنوا من الظُّهور بين الآخرين، بل إنهم يبقون بطيب الخاطر لأجل تلقّي الهدايا التي تُرسل إليهم من طرف جميع السلطانات، من الثياب والقمصان والسراويل والمناديل، وهدايا من الباشوات وكبار رجال الدولة من خيول وسجاجيد وثياب وجوارٍ، وأمور أخرى مما يلزمُ لتشييد بيتٍ. وتزداد تلك الهدايا حينما يعرف أنّ هذا [الآغا] هو من المحظيّين والمحبوبين عند السلطان.

وعند خروجه من بيته، فإنه يستهل زياراته بالذهاب إلى الصدر الأعظم، ثم إلى كبار رجالات الدولة الآخرين، وبعد ذلك يتوجَّه للمثول كخادم متواضع جداً أمام القابي آغا، مُظهراً له أنه تحصل على كلّ الخير والشَّرف بفضله متعهداً إليه بالإجلال [27 ب] والعرفان الدائم.

ويتم هذا اللقاء خارج باب سراي السلطان، أي بالبوابة الثالثة حيث الخصيان؛ ذلك أنه لا يمكنه الدخول من بعدُ إن لم يدعه جلالة السلطان إلى مكانٍ [27 ب] ذي إطلالةٍ جميلةٍ، لأجل التَّباحث معه في شؤون المهمةِ الموكلة إليه، ويحرصُ على أن تكون علاقته جيدة مع القابي آغا آنف الذكر، لأجل الانتفاع بحمايته؛ فهو الأكثر سلطة عند السلطان.

ويوجد بالإضافة إلى النساء والعجم أوغلان والشبان في القصر، كما أسلفتُ، موظفون كثيرون ومختلفون للقيام بكلّ الأعمال الضرورية، ولأجل شؤون التربية الخاصة؛ فثمَّةَ العديدُ من الأقزام[1] من مختلف الأنواع، والقراء

(1) وكان يطلق عليهم اسم جوجه (Cüce).

واللاعبون والعازفون والكثير من الخرسان[1] المسنين والشباب الذين لهم حرية الدخول والخروج بإذن القابي آغا.

ولا بدّ من العلم هنا أنّه يتم التفاهم والتعامل في القصر بصمت وعلى نحو مميز، فيكفي لملاحظة الوقار الذي يلتزمه الأتراك بشدة، أن الذي يتم التعبير عنه بالإيماءات دون كلام هو أكثر مما يتم تبادله بالتلفظ، ويُعملُ بالأمر نفسه بين السلطانات والنساء الأخريات، ذلك أنه يوجد بينهن أيضاً من العجائز والفتيات الخُرس. وهذا تقليدٌ قديم جداً في السراي، إذ يرغبون في أن يكون لديهم خُرسان بالقدر الذي يمكنهم العثور عليه، وخاصة أنه من غير المسموح للسلطان أن يتكلم إلّا في حدود كلماتٍ قليلةٍ جداً، لأجل الحفاظ على منزلته واحترامه بالتزام الوقار، لذا فإنه يتعامل ويلهو مع هؤلاء بأريحية أكثر مما يقوم به ويسمحُ له به مع الآخرين[2] [28 أ].

---

(1) كان يطلقُ على الخرسان اسم دل سز (Dilsiz) .

(2) يضيف ويذرز في نسخته الإنجليزية مهمة أخرى لهؤلاء الخرسان؛ «فإن أراد السلطان أن يعدم صدراً أعظم أو أحداً من مرتبته ويرغب في أن يرى ذلك بأم عينيه في القصر، فإنه يدعوه إلى أحدِ غرفه ويشغله بالحديث إليه في حين يكون الخرسان متأهبين، وربما دون أنّ يشك هذا المسكين بأي شيء، يشير السلطان إليهم فينقضون عليه في الحال ويخنقونه ويجرونه من عَقِبيه خارج البوابات»، كما يعبرُ عن دهشتهِ من قدرة كثير من هؤلاء الخرسان على الكتابة على نحو جيد مع أنهم قد وُلِدوا صماً بكماً. انظر:

Greaves, John, *A Description of the Grand Signour's Seraglio*, pp. 88-89.



الأخرس والقزم

المصدر:

Paul Rycaut, *The History of the Present Day of the Ottoman Empire* (London, 1675), p. 62.

[الخصيان البيض]

وتوجد بعد ذلك طبقة الخصيان البيض، فكما أن الخصيان السود يتولّون خدمة السلطانات وحراسة بوابتهن، فإن الخصيان البيض يتولون رعاية بوابة السلطان. وأعلاهم شأناً وأكبرهم سناً يتقلُّدُ المهام الرفيعة جداً المتعلقة بشخص السلطان، والأول من بين هؤلاء هو القابي آغا وهو رئيس جميع الآغاوات الخصيان الآخرين، والثاني هو الخزندار باشي وهو رئيس الخزنة، والثالث هو الكلرجي باشي أي رئيس المخازن، والرابع هو السراي آغا، أي من يتولى رعاية السراي.

[القابي آغا]

ومن بين هؤلاء الأربعة كبار السن فإن أعلاهم منزلةً هو القابي آغا؛ وذلك من خلال السلطة التي يتمتع بها مع السلطان، لأنه لا يمكن لأحد سواه أن يتكلَّم وحدَه مع جلالته، أو أن تمرَّرَ بوسائل أخرى الرسائلُ أو الكتابات أو التقارير التي ترسل من خارج القصر إلى داخله.

ويرافق القابي آغا، بصفته رئيس الخدم، السلطان دائماً حيثما شاء الذهاب داخل القصر وخارجه. وحينما يذهب عند النساء فإنه يرافقه حتى الباب الذي يؤدي إليهنَّ ثم يتوقف ويعود إلى غرفه تاركاً بالباب دائماً من ينتظر السلطان، فإذا خرج أقبلوا مسرعين وودّعوا القابي آغا على النحو الذي اعتادوا.

ويتقاضى القابي آغا عادة عشرة سلطاني في اليوم كراتب، إضافة إلى الثياب وأشياء أخرى مما يحتاجه بالقدر الذي يشاء، وأشياء ثمينة من أموال

وجواهر لا نظير لها، من حيث إن السلطة التي يتمتع بها تخوله أن يجني ويُكدّس ما يشاء من الذهب؛ ذلك أن الجميع من كل المراتب رجالاً ونساءً من داخل القصر وخارجه يقدمون له الهدايا من كل ما يمكن أن يصل إليه خيال المرء، وكل ما يمكن أن يجلب له المسرة رغبةً منهم في خطب مودته.
[28 ب]

[الخزندار باشي]

وأما الثاني، وهو الخزندار باشي، فيتولى الخزنة الداخلية للباب العالي، التي يكون لها مفتاحان؛ أحدهما بحوزة السلطان والآخر بحوزته هو، ويتم أيضاً تعهدها والمحافظة عليها بالختم السلطاني الذي يكون موضوعاً دائماً فوق بابها، ولا يُفَضّ أبداً إلا حين تُفتح الخزنة بأمر السلطان.

وتوجد في هذه الخزنة كل الكنوز التي كدسها السلاطين، ولا يدخل إليها شيء آخر من موارد الإمبراطورية سوى ستمئة ألف سلطاني يتم جبايتها كل سنة من مصر، وأما الأموال الأخرى فتذهب إلى الخزنة الخارجية، التي تُقتطع منها كل النفقات المعتادة والاستثنائيّة، ولا يؤخذ من الخزنة الداخليّة أي شيء إلا عند الضرورة القصوى، ويتم تدوين ذلك والالتزام أمام الدفتردار الكبير بوجوب إعادة كل ما أُخذ.

ويتولى هذا الآغا مهمة الوقوف على المال الذي يخرج من الخزنة ويدخل إليها، ولا يمكن لأحد الدخول إلى هذه الخزنة سوى الخزندار، مع من يرى أنه يحتاجهم لأجل الخدمة الضرورية.

وبقدر ما يؤخذ من الذهب والنقود المودَعة في حقائب جلديّة فإن كل شيء يؤتى به في حضرة السلطان، وهو يأمر ويتصرّف وفق ما تقتضيه الحاجة.

كما يتولى الخزندار المحافظة على جميع المجوهرات السلطانية التي يوثقها في كتاب عنده، ويدوّن ملاحظاته لأجل معرفة ما يَهَبه السلطان وما يوهَب إليه، وكذلك ما ينتفع به جلالته لاستعماله المعتاد. وعندما يُتوفّى القابي آغا فإن الخزندار باشي يحلّ [29 أ] محله.

[الكلرجي باشي]

وأما الثالث فهو الكلرجي باشي رئيس الخزانين، ويتولى مع عددٍ من المساعدين مهمة رعاية الخزائن السلطانية، أي كل الأثاث، حيث تودعُ جميع الهدايا التي تُقدّم إلى السلطان من القماش المذهّب والحرير والصوف والجلود من مختلف الأصناف والسيوف والريش وكل شيء آخر مما يستعمله المرء، ويقوم الكلرجي باشي أيضاً بتسجيلِ هذه الأشياء، من حيث إنه يمكن في أي وقت أن يتمّ الاطلاع على ما دخلَ إلى الخزانة وما قام السلطان بتوزيعه.

ومهمةُ الكلرجي باشي مرهقةٌ للغاية، بسبب الأعداد الكبيرة من الهدايا التي ترسل إلى السلطان، والتي يهبُها كلّ يوم داخل القصر وخارجه من الثياب وغير ذلك، ويحرصُ على أن يكون كل شيء منظماً فلا يحدث أيّ ارتباك.

ويوجد تحت إمرة هذا الخصي كثيرون، ويبقى بصورةٍ شبه دائمة داخل السراي، وبصفته وصياً على أشياء ثمينة، فإنه يتقاضى ألف آقجة في اليوم، أي عشرة سكودات إضافة إلى الثياب والهدايا الوافرة من مختلف الأشياء، ويحظى دوماً بمودة السلطان، لأنه هو الذي يتوجّب عليه أن يخلف الخزندار باشي في حال موته، كما أنه يحظى بتقدير الجميع واحترامهم من داخل السراي وخارجه.

[السراي آغا]

وأما الرابع وهو السراي آغا، فهو خصي آخر مشابه، يتولى رعاية السراي، ولا يغادره أبداً في غياب السلطان، ويظلُّ دائماً متنبهاً ليس فقط لما يلزمُ لأجل تزويد القصر كلّه [29 ب] بجميعِ الأشياء التي تلزمُ خلال النَّهار؛ بل إنّه يتولى أيضاً مهمَّة الذهاب للاطِّلاع على جميع القاعات والإشْراف على جميع الموظَّفين، ليتأكَّد من أنهم يقومون دوماً بوظائفهم على النّحو الذي تتطلّبه الحاجة.

ومن حيث إن السراي آغا متقدّم في السن، فإن له الحُريَّةَ في ركوب الخيل، كما يمكن للثّلاثة السَّابقين ركوب الخيل أيضاً، ويوجد لأجل ذلك في الداخل إسطبل في الحدائق حافلٌ بمختلف الخيول التي يستعملها هؤلاء في قضاء الأمور الضرورية. ويتقاضى السراي آغا ثمانمئة آقجة في اليوم، أي ثمانية سكودات، بالإضافة إلى الثياب والملابس الداخلية بوفرةٍ لأجل احتياجاته، ويكون مهيَّأً لكي يحل محلَّ الكلرجي باشي ويترقى شيئاً فشيئاً، حتى يصبح قابي آغا إن طال عمره لبلوغ مراتب الآخرين.

ويمكن لهؤلاء الخصيان الأربعة أن يعتمروا العمامة فوق رؤوسهم، وأن يركبوا الخيل داخل القصر، وهم الأكثر سلطة عند السلطان، ويحظون باحترام وتقدير الجميع، برغم أنه لا يمكن لهؤلاء الثَّلاثة[1]، بسبب ما تعارف عليه قديماً من الصَّرامة، الحديثُ مع السلطان من تلقاء أنفسهم، بل يجيبون حينما يُدعون فقط. ويبقون رفقةَ القابي آغا في حضرة وخدمة السلطان مع كل الخصيان الآخرين الذين هم تحت إمرتهم، والآغاوات آنفي الذكر، ويعطون أوامرهم فيما يتعلق بالأمور الضرورية ليلاً ونهاراً [30 أ].

(1) يقصدُ الخزندار باشي والكلرجي باشي والسراي آغا.

ويمكن أن يبلغ عدد جميع الخصيان نحو مئة[1] من بين المسنين ومتوسّطي العمر والشبان، وجميعهم مخصيُّون ومختونون، ويتمّ اختيارهم من بين الفتية النَّصارَى المرتدّين عن دينهم، الذين يتمّ تقديمهم كهدايا للسلطان كما ذكرت، وقليل منهم من يُخصى دون مشيئته لأنّ المسؤول عن هذه المراسم يقولُ إنهم قد يتعرَّضون كثيراً لخطر الموت إنْ لم يُخصوا. ولذا فبعد موافقتهم ينقاد الفتية وراء يقينهم بأنهم سوف يصبحون مع الوقت رجالاً ذوي شأن إذا عاشوا خصياناً كما هم، ويتم تعليمهم مع الآخرين، وينتقلون في الوقت المناسب إلى (الأوضة) الرابعة لأجل خِدمة السلطان.

ولا بد من العلم أن السلاطين يستخدمون هؤلاء الخصيان البيض في إدارة جميع القصور والمدارس الأخرى التي يوجد فيها أعدادٌ من الشبان، كما في القسطنطينية وأدرنه وبورصا وفي أماكن أخرى مختلفة؛ ذلك أنّ هؤلاء الخصيان حينما يكونون مسؤولين في تلك الأماكن التي يصلُ عدد تلاميذها إلى نحو ثلاثمئة، فإنهم بإشرافهم هذا، وبرفقة موظفين آخرين يجعلونهم مُنضبطين بشكل ممتاز، لكي يصبحوا رجالاً جيِّدين للغاية. ويحدثُ أيضاً في أغلب الأحيان أن يقوم السلطان، لأجل إفساح المجال للخصيان الأصغر سناً الذين ينتظرون أن تؤول إليهم المراتب آنفة الذّكر شيئاً فشيئاً، بإرسال أحدهم خارج القصر للتدرب على المسؤوليّات الكبيرة، فيرسله والياً على مصر وولايَات أخرى في [30 ب] آسيا، ويعيِّنه أيضاً برتبة باشا وزير في الباب العالي، كما جرى في كثير من المرات.

---

(1) عند ويذرز: يبلغ العدد مئتين.

[مقتنيات السراي من النّفائس]

ويحظى هؤلاء الخصيان بالتقدير، لكونهم الأجدر بالثقة بين جميع الآخرين في القصر، بيد أنهم مسؤولون أمام القابي آغا بصفته رئيس الخدم عن رعاية الأشياء الثمينة جداً الخاصة بالسلطان، وبالأخصّ الإشراف على بعض المواضع المنفصلة، حيث تودع بعض الأشياء الفخمة والجميلة التي تهدى للسلطان، كالقطع الكبيرة من العنبر التي ترسل إليه من باشوات الانكشاريّة ومن اليمن[1]، والمسك والترياق من القاهرة، والبلسم والسّيراميك المشغول والبازهر[2] وما شابه ذلك من الأشياء الأخرى النفيسة جداً، وكذلك المزهريّات المصنوعة من العقيق، وحجر الفيروز واليشم[3] والكريستال ومن الأحجار الأخرى ذات القيمة العالية، ويتمّ الاحتفاظ بجميع هذه الأشياء بدقة وتنظيم كبيرين على نحو ما وُصفَ لي مثير للدهشة.

---

(1) عند ويذرز: من باشوات موره (Morea).

(2) بازهر (Pâdzahr) هو معدن من الأحجار يُستخدم في الزينة والأدوية. انظر: التيفاشي، أحمد بن يوسف (ت 651هـ)، **أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، الهيئة المصرية للكتاب، 1977م، ص: 117.

(3) اليشمُ (Jasper) من الأحجار الكريمة وهو نوع من بلور المرو (الكوارتز) الذي يحتوي على كميات عالية نسبياً من المواد الممزوجة، وخاصة أكسيد الحديد، ويكون لونه في العادة أحمرَ داكناً إلى أحمر ضارب إلى السمرة، كما يمكن أن يكون لونه بنياً أو بنياً ضارباً إلى الصفرة أو أصفرَ أو أخضرَ أو أزرقَ أو أسودَ، وتوجد كميات وفيرة من اليشم في جبال الأورال وإيطاليا وألمانيا والهند وأمريكا، وكان القدماء يعزون له خصائص طبية، بل إنه حتى عام 1609م كان هناك اعتقاد سائد بأن اليشم المعلق في الرقبة يقوي المعدة. انظر:

George Switzer, Jasper, *The Encyclopedia Americana*, vol. 15, (U.S.A: Grolier Inc 1989), p. 848

وانظر:

W.A.W, Jasper, *The Encyclopedia Britannica* vol. 12, (U.S.A: W. Benton 1966), p. 970.

كما يوجد مكان آخر مُنفصل، حيث تودع جميع الأقمشة المهداة إلى السلطان، من الموسلين(1) وأقمشة أخرى من الهند التي يستعملها السلطان، وكذلك السلطانات بعلم المسؤول عن حفظها.

ويوجد في السراي مكان فسيحٌ جداً، حيث تحفظ الممتلكات التي تؤول إلى خزينة الدولة من الأفراد الذين يتمّ إعدامهم، أو أولئك الذين يموتون ميتةً طبيعيّة، فيرغب السلطان في أن يستملك هذه الأشياء. ويؤتى بها في ذلك الموضع [31أ] بواسطة الدَّفتردار الكبير الذي يتولى هذه المهمة الخاصة، وبعد أن يطلع عليها السلطان بحضور مُساعديه، فإنه يختار ما يشاء لكي يُحفظَ لأجل تقديمه كهدايا، وما يتبقّى فإنه يجعله يُعرضُ في مزادٍ لرجال القصر إذا ما أرادوا أن يبتاعوا بعضاً من تلك الأشياء. وأما ما يتبقّى فيؤتى به إلى البدستان العام(2) حيث يباع كل شيء بواسطة المزاد، ويُعطى ثمن تلك الأشياء إلى الخزندار باشي ويودعه في الخزنة، ولا يتردد أحد في شراء هذه الأشياء واستعمالها لئلا يصيبه ما أصاب أصحابها من وبالٍ؛ فالأتراك يؤمنون بأن الموتَ مكتوبٌ على جباههم، وأن لا حيلة للمرء في دفعه والهروب منه.

---

(1) نوع من القماش الرقيق الفاخر.

(2) البدستان (Bedestan) أو البازستان يقابله البازيليكا (Basilica) عند الرومان قديماً، هو بناء منيعٌ وموقد يكون في وسط البازار حيث يتم تخزين وبيع البضائع المستوردة كالمنسوجات الثمينة والملابس الفاخرة والجواهر والتحف النفيسة والأسلحة، ويكون لكبار التجار متاجر فيه، ولهذا السوق أبواب لا تفتحُ إلا في أوقات معلومة من النهار، ويلاصق هذا السوق أسواق شهيرة مثل قلبجي جارشوسي وأذروجارشو. انظر:

Halil Inalcık, *An Economic and Social History of the Ottoman Empire* (Glossary).

وانظر: عزتلو، آصاف، عزتلو يوسف بك، **تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن**، تقديم محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص: 28، ولعلَّ البدستان العام المراد هنا هو المعروف بالسوق المُغلق (Kapalıçarşı) أو السوق الكبير (Büyük Çarşı) في إسطنبول، وهو من أقدم الأسواق المغلقةِ وأكبرها في العالم، ويعودُ تاريخُ إنشائهِ إلى الأعوام الأولى التي عقبت فتحَ القسطنطينيّةِ سنة 1453م.

[الخصيان السُّود]

وفيما يتعلق بالخصيان السُّود الآخرين الذين يقومون على خدمة السلطانات والفتيات السوداوات، اللواتي يبقين بين النّسوة فمن المناسب القول: إنَّه يرسل للسلطان في أغلب الأحيان فتية وفتيات كهدايا من القاهرة من طرف الباشوات، ومن كبار الرِّجالات الآخرين في ولاية مصر، ويخصى الفتية ويتمّ تعهّدهم بالتربية، بين شباب القصر الآخرين حتى سنٍّ معيَّنة حين يصبحون مؤهَّلين للخدمة، وعندئذٍ يتم إرسالهم إلى النساء ويقومون تحت إمرة آخرين على خدمة السلطانة، ويبقون تحت إمرة رئيسهم المسمى قزلر آغاسي(1) [31 ب] أي رئيس العذارى، ويتقاضى كل واحد منهم أجرا معتبراً من ستين إلى مئة آقجة في اليوم، إضافة إلى ثوبين من الحرير جميلين جداً وأقمشة وغير ذلك مما يحتاجونه سنوياً، فضلاً عن الهدايا التي تغدَق عليهم من أطراف مختلفة.

ويسمى هؤلاء الخصيان بأسماء الزّهور مثل: خزامى ونرجس وورد وقرنفل ونحو ذلك، فمن حيث إنهم يقومون على خدمة النساء، فيحسنُ أن تكون أسماؤهم متسقة مع العذريّة؛ لطيفة وذات شذى طيِّب.

---

(1) يعرفُ القزلر آغاسي (Kızlar Ağası) باسم آغا دار السعادة، وهو آغا النسوان، ويعد رئيساً للخصيان السود والرئيس الأعلى في عموم القصر، ويعتبرُ ثالث ثلاثة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام. وكان من مهامه الإشراف على أجنحة الحريم في القصر السلطاني وامتدَّ نفوذه حتى شمل إدارة شؤون أوقاف الحرمين الشريفين، وكان يصحب «الصرة» إلى الحجاز سنويّاً. انظر: جب، **المجتمع الإسلامي والغرب** 1/ ص: 127، وصابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية** ص: 180.



القزلر آغاسي

المصدر:

Penzer, N. M, *The Harem*, p.130

وترسل الفتيات في سنٍ مبكرة بواسطة سفن ضمن مجموعة من عشر، وفَوْر وصولهن يتمّ اقتيادهنّ إلى أجنحة النساء، وتتولّى المربّيات مهمة تربيتهن وتعليمهنّ على القيام بالخدمات من كافّة الأشكال، ويحظين بتقدير السلطانات بقدر ما كنّ بشعات ومشوّهات، وإن كنَّ لا يردنَ أيّاً من هذه الفتيات لأجل عجزٍ فيها بسبب مرضٍ ما، فإنهنّ يرسلنها إلى القصر القديم، كما يصنعن مع الفتيات البيضاوات الأخريات اللواتي يتسببن في إزعاجهنّ، أو يبدو منهنّ تقصير كما سيأتي، بيد أن كلّ ذلك يتمّ بمعرفة السلطان وبأمر منه.

ويمكن لهؤلاء الخصيان عند نقل رسالةٍ مّا من السلطانات إلى السلطان أن يمرّوا بأجنحة الرّجال، وإحضار الرّسائل للقابي آغا لأجل أن يسلّمها للسلطان، وكذا الأمر لطلب شيء مّا من القائمين على خدمة القصر، وأيضاً [32 أ] للحديث مع بعضِ أصدقائهم، بيد أنّه لا يمكنهم الخروج من القصر دون إذن من السلطانة الملكة، حتى لو كانوا مأمورين بالقيام بعمل ما من قبل السلطانات الأخريات، وذلك ما لا يمكن للخصيان البيض فعله، حيث لا يمكنهم العبور إلى أجنحة الحريم، لأنّه، وإن كانوا خصياناً، محرَّمٌ عليهم من حيث إنه، كما أسلفتُ، لا يمكن لأي أحد من الرِّجال سوى السلطان أن يراهن أو يتردد عليهن، بل إنه إن دعتِ الضَّرورة بسبب اعتلالٍ أن يذهب الحكيم باشي أي الطَّبيب إلى الأجنحة، فإنّه يتوجب عليه الاستئذان من السلطان للدخول.

[وعندما يدخل الحكيم من بوابة السلطانة][1] فإنه لا يرى أحداً سوى الخصيان السّود، لأن جميع النّسوة يكنَّ قد انسحبن، ويرافق الخصيانُ الحكيم إلى غرفة المريضة التي تكون مغطّاةً بالكامل من رأسها حتى قدميها بالأغطية واللّحاف، مخرجةً ذراعها فقط ليتسنى للطَّبيب جسّها، وبعد أن يصفَ ما

(1) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، مثبت في ب.

يلزم لعلاجها يعودُ من حيث أتى. وإن حدث أن كانت المريضة هي ملكة أو سلطانة فإن الذِّراع الخارج من السَّرير لكي يلمسه الطَّبيب يبقى مغطى بقطعة قماش مع اليد، بحيث لا يرى ولا يلمس منها الجسد. ولا يجوز للطّبيب أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ في حضرتها، ولكن حين يخرج من الغرفة فإنّه يصفُ الدَّواء، الذي غالباً ما يكون حسب عادة الأتراك شراباً [23 ب]، لأنهم لا يستعملون أدويةً أخرى من الأطبَّاء الآخرين[1] برغم استشارتهم لهم، ولذا يتكيَّفنَ مع ما تقتضيه الضَّرورات، وفي الحالات الخطرة، إن لم يتعلّق الأمر بالسلطانات أو بالنساء الأخريات اللواتي هنَّ عزيزات على السلطان، فإنه يتم إرسالهنّ إلى القصر القديم لأجل التَّداوي.

[أبناء السلطان]

وأما الأبناء الذين يولدون للسلطان فإن كانوا من سلطانة واحدة فإنّهم يبقون معاً، وتتم تربيتهم في مكان واحد على أيدي مرضعات حنوناتٍ يؤتى بهن من خارج القصر، وإن كان هؤلاء أبناء لأكثر من سُلْطانة، كما هو الحال في أغلب الأحيان، فإنه تتمّ تربيتهم وإرضاعهم على نحو مستقلٍّ عن الآخرين، بحيث تعتني كلّ أم بأولادها، وبغَيرة شديدة فيما بينهن، ويترك الأبناء معاً حتى يبلغوا سنّ الخامسة أو السادسة، وتتولَّى الأمهات دوماً رعايتهم بحنان، ويعاملهم السلطان بسخاء، ويكسوهم دونما تفرقةٍ ويزينهم بالجواهر الثَّمينة والجميلة جداً.

وبعدما يُفْطَم الأبناء فإنه يدفع للمرضعات أجر معتبر، وتقدم لهن الهدايا، ويتم إرسالهنّ إلى القصر القديم حينما لا يكون لديهن من حيث إنهنَّ غير

(1) يضيف ويدرز: ولا أظنُّ أن لديهم المهارة الكافية لصنعِ دواءٍ لكل داء.

متزوّجات منازل يأوين إليها، وأما بالنّسبة إلى الإناث فإنه يتمّ الاعتناء بهنّ دونما تمييز، ودون أي حذر، لأنه ليس من جهة الإناث أي خطرٍ أو ريبة.

والعادة أن الأبناء يبقون بين النساء حتى سنّ الحادية عشرة، وبعد ذلك يتم ختانهم بمراسم عظيمة جداً، وخاصة حين يكون الابن هو المولود الأول، وباحتفالات مهيبة جداً في كلّ المدينة[1] [33 أ]، وهذه هي الاحتفالات الكبرى للزّواج عند الأتراك، تماماً كما يفعل المسيحيون حين يزفون العرائس إلى بيوتهن، ولا يكاد الأتراك يلتزمون بزفّ العرائس إلى بيوتهنّ، وأما في ختان الأبناء فإنهم عادة يُجرون مراسم كبيرة من الاحتفالات والموائد والهدايا.

ومن سنِّ الخامسة وحتى الحادية عشرة حينما يكونون بين النساء فإنه يكون لديهم الخوجة أي المربي المنتخب من قبل السلطان والقائم على تربيتهم، ويدخل هذا الأخير قصر النساء كلّ يوم، ويقاد بواسطة الخصيان السُّود دون أن يرى النساء أبداً إلى غرفة، حيث يوجد الأبناء صحبة اثنتين من الإماء السوداوات الكبيرات، ويقوم على تعليمهم بقدر ما يسمح له البقاء من ساعات ثم ينصرف.

وبعد ختان الأمير ولي عهد السلطان أو حينما لا يريد السلطان بقاءهُ

---

(1) كان الاحتفال بختان الأمراء من أكثر الاحتفالات عظمة وأبهة، وتذكر على وجه الخصوص أفراح الختان التي أقيمت للأمراء أبناء السلطان سليمان القانوني ومراد الثالث ومحمد الرابع وأحمد الثالث، إذ استمرّت عدّةَ أسابيع، وكانت على درجة كبيرة من العظمة والأبهة، كما كان يُدعى الكثير من الزعماء لحضور هذه الاحتفالات، والهدف من ذلك كما لا يخفى هو إظهار قوة العثمانيين وإبراز قدراتهم. وذكر الشيخ بدر الدين الغزّي جانباً من الاحتفالات بختان أولاد السلطان سليمان القانوني التي صادفت وجوده في إسطنبول أثناء رحلته سنة 936هـ إلى الدولة العثمانية، وذكر أن الاحتفالات استمرت شهراً تعطلت بسببها دواوين الدولة. انظر: **المطالع البدرية في المنازل الرومية** لبدر الدين محمد الغزي (ت 982هـ)، تحقيق المهدي عيد الرواضية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004م، ص: 134 وص: 210. وهناك كتب تركية كثيرة تصف تلك الأفراح والاحتفالات وتسمى سورنامه، وزيّن بعضها بالرسوم البديعة. انظر: محمد إبشيرلي، **نظم الدولة العثمانية** ص: 158.

داخل القصر عنده فإنّه يشيّدُ له بيتاً ويزوّدهُ بكلّ شيء؛ فيعطيه أحد كبار الخصيان لأجل التربية، ويسمَّى هذا لالا باشي، ويخصص له مدرساً، وشيئاً فشيئاً يزوّده بموظفين للقصر وخارجه بما يليقُ بمقامه الرَّفيع، ويخصّص له ولجميع الآخرين من عائلته المصاريفَ التي يرى أنها مناسبةٌ، لكي يتمكن من العيش برفاهٍ، وبعد أن يتقبل الهدايا من السلطان ومن السلطانة الملكة ومن السلطانات الأخريات ومن جميع الباشوات وكبار رجالات [33 ب] الباب العالي يتمّ إرساله إلى منيسا؛ وهي مدينةٍ في آسيا لكي يمكثُ فيها حاكماً على تلك الولاية، بيد أنّه لا يملك فيها السلطة العليا، بل إنه يحكم فقط كقائم مقام لوالده السلطان، وإذا تجاوز هذا الحدَّ، وتعدَّى على هذا المبدأ فإنه يُعرِّضُ نفسه للسّخط، ويصبح في موضع ريبة كبيرة، كما يحدث للكثيرين. ويكون الوصي الخصي ملزماً بإعلام السلطان والباب العالي بصورة منتظمة بكلّ ما يلزم، لأجل المحافظة على القانون، ولأجل أن يتلقى من الدولة الأوامر اللازمة للشؤون اليوميّة.

وإن كان للسلطان أبناء آخرون غير الأمير ولي العهد، فإنّه يتَّخذ الإجراء نفسه؛ فيُرسلهم إلى ولايات أخرى في آسيا ولكن بوصاية موظفين مجرَّبين في ولائهم لجلالة السلطان، وبرفقة عائلة معتمدة بالكليّة على الباب العالي، لأجل البقاء والاستمرار بأمان بحيث لا يمكنهم– بالفعل– أن يفكروا في ابتداع ما من شأنه أن يضرَّ بالإمبراطورية، وهناك أمر عرفته بواسطة شخص مرموق وذي نفوذ، وهو أنّه لأجل المحافظة على أمن الدولة، فإنه يتم إرسال أبناء السلطان إلى ولايَات آسيا وليس أوروبا، بحيث يكونون في منأى عن بلاد [الأمراء المسيحيّين وعن الممارسات][1] التي يمكنها أن تصرفهم عن حسن النية، كما أنه من الصَّعبِ عليهم [34 أ] إرسالهم إلى بُلدان هؤلاء الأمراء أعدائهم.

(1) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل.

[طعام السلطان]

ومأكل جميع مَن في القصر من العجم أوغلان فما فوق، وإن كان هناك مطابخ في الداخل إلّا أنه يُعد في المطابخ آنفة الذّكر الموجودة في الباحة الثانية، حيث يعمل أكثر من مئتي موظف من بين طبّاخين وخدم، فضلاً عن الموظفين الأساسيّين كمسؤولي المطاعم والمؤونة وآخرين يقومون على الخدمة، وجميعهم محدَّدة وظائفهم وموزّعون على مطابخهم المنفصلة دون أن يحدث خلط بينهم.

ويعد الطعام في مطبخ السلطان[1] عادة في بداية النَّهار، لأن السلطان ينهض من نومه في ساعةٍ مبكّرة، فيلزم أن تكون هناك أطعمة جاهزة في أي وقت يطلب السلطان طعاماً، لأنه أحياناً يأكل ثلاث أو أربع مرَّات في اليوم، ويكون غداء السلطان عادة بعد الساعة التاسعة صباحاً وعشاؤه وقت المساء، وكذا هو الحال صيفاً وشتاءً، وحينما يقول للقابي آغا: إنه يريد أن يتناول وجبته، يرسل هذا الأخير فوراً أحد الخصيان لإبلاغ رئيس خدم الخارج الذي يضع الأطعمة على طاساتٍ، أي على أطباق، ويأتي بها حتى باب السلطان الذي هو ليس ببعيد عنه، حيث يجد رئيسَ خدم [34 ب] الداخل الذي يأخذ مع الآغاوات الآخرين الأطباق، ويحضرها لجلالة السلطان واحداً واحداً، ويكون السّلطان جالساً وحده فوق أريكته على طريقةِ الأتراك وقدماه إلى أسفل، وعلى ركبتيه منديل فاخر جداً ومزيَّن، وآخر فوق ذراعه اليسرى، ودون أن يتم التثبُّت من الطّعام بوسيلةٍ ما كما هي عادة الأمراء الآخرين بتناول الطَّعام[2]، ويكون أمامه فوق الجلد البلغاريّ

(1) يُسمَّى المطبخ الخاص الذي يُعد فيه طعام السلطان مطبخُ قوش خانه (Kuşhane Matbahı). انظر: صابان، **المعجم الموسوعي**، ص: 210.

(2) يبدو أن ملاحظة بون هذه ليست دقيقة؛ فقد كان العثمانيون يتثبتون من طعام السلطان، وكان =

المستعمل كغطاء للمائدة الخبز بكميَّات وافرة من صنفين أو ثلاثة أصناف، ولكن جميعه ليِّن وممتاز، من حيث إنه لا يستعمل سكينةً ولا شوكة، بل فقط ملعقة من الخشب من تلك الملاعق الكبيرة، وهم يضعون ملعقتين: واحدة تُستعمل لتناول الشّوربة، وأخرى لارتشاف بعض المشروبات المصنوعة من عصائر الفواكه من جميع الأصناف المزوجة مع عصير الليمون والسكر، لأجل إطفاء الظمأ وليكون الطعام ليناً.

ويستمر السلطان في تناول تلك الأطعمة بالقدر الذي يشاء، متذوقاً إياها طبقاً طبقاً، ويجعلُها تُرفعُ عن المائدة باكراً أو متأخراً، ويأكل دائماً بيديه، لأن الأطعمة لينة ومطبوخة على نحو شهي وممتاز. بحيث [35 أ] إن المرء حين يتناول الدجاج بيده فإنه ينفسخ بسهولة كبيرة.

ولا يُستعملُ الملح على المائدة، كما لا توجد مقبلات أو نحو ذلك، بل إنه يبدأ بتناول اللّحم مباشرة ويستمرّ حتى نفاده، ويختمُ غداءه وكذلك عشاءه بقطعةِ حلوى[1] ثم يغسل يديه في حوض من الذَّهب بوعائه، وكلاهما مُطعَّم بالجواهر.

وطعام جلالة السلطان المعتاد هو الحَمَام، ويؤتى له في واحد من تلك الأطباق بنحو عشر حمَامات مشويّة وإوز، ويحضرون ثلاثة أطباق من اللّحم والدَّجاج والفراخ ولحم الضَّأن وأحياناً، وإن كان نادراً، لحوم الحيوانات البرية، ويؤتى بهذه اللُّحوم مشويَّةً وأحياناً مسلوقة، ولكن جميع ما سبق يكون مُجهَّزاً على نحو ممتاز بنكهات طيّبة جداً، وبمكوِّنات أخرى ذات نكهة وقيمة معتبرتين.

وبعد هذه الأطعمة توجد الشوربات من أصناف كثيرة، وأطباق مختلفة

= يتولى هذه المهمة موظف يُدعى الجاشنكر (Caşengir) من «جشني» بمعنى الذوق لأنه يتذوق الطعامَ قبل تقديمه لمولاه خوفاً من أن يُدسَّ فيه سم أو نحوه.

(1) عند ويذرز: بقلاوة (Baklava).

من الحلويَّات ومن الفواكه المحفوظة والشّراب المصفى من مختلف الأعشاب والحلوى الشهية جداً، وهنا تُختتم المائدة بالاحتساء مرَّة واحدة فقط عند الانتهاء من الأكل، من شراب لذيذٍ للغاية يأتي به السقاء في صحن من البورسلان مغطى فوق طبق من المادة نفسها.

ولا يتحدث جلالة السلطان مع أحد أبداً أثناء تناول الطعام، برغم وجود بعض الخرسان والأقزام حوله الذين يقومون ببعض الألعاب فيما بينهم، ويهرجون ويمزحون دائماً دون أن يتكلموا، بيد أنه يكون مفهوماً جيداً للسلطان، لأنه [35 ب] اعتاد الفهم بشكل ممتاز دون كلام.

ويتفضَّلُ السلطان في بعض الأحيان على أحد الآغاوات الحاضرين على مائدته، فيلقي في يديه خبزاً من مائدته الخاصة، ويعد هذا الأمر حظوة فريدة جداً، ويقوم أولئك الآغاوات بتقاسم ذلك الخبز فيما بينهم ويعطون منه للآخرين كإشارة إلى الحظوة، وباعتبار ذلك لطفاً كبيراً من جلالة السلطان.

وأطباق المائدة الملكيَّة جميعها من الذَّهب، ولكل طبقٍ غطاؤه، وتُسلّم لمسؤول المخازن الذي يعتني بالمطبخ، كما تُسلم أطباق أخرى من البورسلان الأصفر ذي القيمة العالية، وهذه الأطباق هي من الندرة بمكان، ويأكل بها السلطان في رمضان، وهو بمثابة الصَّوم الكبير عند المسيحيين[1]، ومدته شهر كامل، وفي هذا الشهر لا يأكل الصائم أبداً خلال النَّهار ولكن في الليل فقط، وبالقدر الذي يشاء دونما فرق في الأطعمة، بيد أن السلطان لا يأكل أبداً السمك، إلا إذا خطر له ببالٍ أو حينما يصادف وجوده في الخارج للاستجمام مع النساء.

وما يتبقّى من مائدة السلطان، فإنه يتم وضعه فوراً على مائدة الآغاوات

(1) يمتد الصوم الكبير (Quaresima) خمسةً وخمسينَ يوماً، وسُمّي بالكبير لاحتوائهِ ثلاث فترات صيام يشمل أسبوع الاستعداد والأربعين يوماً المقدّسة وأسبوع الآلام.

سالفي الذّكر، ومن حيث وفرة ذلك الطّعام مضافاً إليه شيء آخر قليل فإنه يسد حاجتهم. ويبقى السلطان في أثناء ذلك في غرفته صحبة أولئك الخرسان [36 أ] والأقزام دون أن يتكلَّم أبداً، ويصفعهم على وجوههم ويركلهم بالقدر الذي يشاء، ولكي يحتملوا ذلك بسرور فإنه يهبهم من الآقجات والزكينو حسب رغبته، ولأجل هذه الغاية يحتاط دائماً في الصّرة على هذه النُّقود بوفرة.

وفي هذا الوقت، يأكل القابي آغا في غرفة منفصلة من الطّعام الموضوع في غرفتهِ، ويكونُ أقلّ جودةٍ بكثير من طعام السلطان، ويأكل معه الخزندار باشي والسراي آغاسي، وأحياناً أحد الأطبّاء الذين يطلبهم السلطان داخل القصر لأجل الصحبة، وأحد الخصيان الآخرين الذين يصادف وجودهم في زيارة السلطان، وما يتبقّى من هذا الطّعامِ مع ما أُضيف إليه من جديد من المطابخ، فإنه يقدم لجميع الخصيان البيض الآخرين.

وفي الوقت نفسه يتم تقديم الطعام لجميع من في «الأُوَض» الأخرى وجميع من في القصر، ويكون طعامهم من الخبز؛ لكلّ واحدٍ رغيفان في اليوم، مع القليل من لحم الضّأن المسلُوق، وشوربة تكون عادة من الأرز المطبوخ مع الزّبدة والعسل، وتغلبُ المرقةُ فيها على الأرز، ويكفي أن تحتوي على نكهة اللّحم بحيث يمكن تغميس الخبز فيها.

ومن الناحية الأخرى، يتمّ تقديم الطّعام إلى السلطانة الملكة وإلى السلطانات [36 ب] ولكلّ النسوة الأخريات، وذلك وفق النظام نفسه آنف الذكر، ويحضره إلى الداخل الخصيان السُّود، وهكذا يكون طعام الجميع قد انتهى في غضون ما يزيد قليلاً على السّاعة ونصف السّاعة.

ولا تخدم السلطانة الملكة بأطباق من ذهب، بل بأطباق بعضها من النُّحاس المطلي بالقصدير، التي يتمّ الحفاظ عليها دائماً نظيفة جداً، وبعضها

من البورسلان الأبيض. وعلى أيّة حال يجب العلم أنها في أغلب الأوقات تأكلُ من داخل القصر مما يطيب لها، وكذا هو الحال بالنسبة إلى السلطانات الأخريات، لأن السلطان غالباً ما يقضي أياماً كاملةً بينهنّ، حيث يأكل ويلعب وينام بالقدر الذي يطيب له، ودون أن يُرى أو يُعلمَ من أفعاله أي شيء، بل لا شكّ أن هؤلاء النّسوة– يجهزن موائد شهية لوجود طاهيات على ذمتهن، ويرسلن لإحضار ما يردن من داخل القصر.

ويتناول السلطان والسلطانات خارج أوقات الغداء والعشاء المعتادة ما طاب لهم من اللّحم، ولكنهم في الغالب يستمتعون بين الوجبات بعصائر الفواكه من جميع الأصناف، من حيث أنها تُهدى إليهم بكميّات وافرة، ويشربون في الصيف العصائر المثلجة التي يحتفظون بكميّات كبيرة منها لاستعمال القصر، وأقول إنّه يتطلّبُ كلفة كبيرة لأن الباب العالي ينفقُ لأجل عمله أكثر من عشرين ألف زكينو سنوياً [37 أ] في الهدايا والنَّفقات والإجراءات التي تجرى لجلب الثلج من الجبال، ووضعه في أماكن تحت الأرض مُعدة لهذا الغرض.

ولا يستعمل الأتراك المرَبيات ولا الجبن لأن هذه الأشياء لا تصنع في تركيا، وبخاصة الجبن الذي وإن صنعوه فإنه لا يكون طيباً، لكن السلطان والسلطانات وجميع كبار المسؤولين يستمتعون بأكل البياشنتينو(1) الذي يُقدَّمُ لهم بواسطة سفير البندقية، ويريدون منه دوماً كميات وافرة داخل القصر، لأنهم يأكلون منه كثيراً ويستلذون بمذاقه، وخاصة حين يخرجون للصّيد أو الاستجمام.

---

(1) كذا وردت، والبياشنتينو (Piacentino) نوع من أنواع الجبن في شمال إيطاليا، ولعلّ الاسم مشتقّ من كلمة (Piacere) أي اللذة والمتعة، أو ربّما نسبةً إلى مدينةِ بياشنسا (Piacenza).

[مؤن القصر]

وفيما يتعلق بشؤون إعالةِ هذا القصر، فإنّ جميع الأشياء مجهَّزة بوفرةٍ، وموزّعة على موظفين يتولّون توفير الحاجات، بحيث لا تعوز القصر أبداً الأشياء الضرورية.

يُصنعُ الخبز من ثلاثة أصناف؛ الأول: أبيض شديد البياض وفاخر جداً، وهو مخصص للسلطان والسلطانات والباشوات وكبار المسؤولين الآخرين، والثّاني: متوسّط الجودة؛ مخصص لمن هم متوسطو الأهميَّة والآخرين، وأمّا الصّنف الثالث: فهو الخبز الأسود، وهو مخصص للعجمي أوغلان ولأصحاب الوظائف المتدنية.

ويستعمل في عمل الخبز المخصص للسلطان والسلطانات دقيق بورصا المستخلص من قمح تلك الولاية، ويزود القصر من هذا القمح من سبعة إلى ثمانية آلاف كيلو، أي حوالي ثلاثة آلاف ستايو بندقيّ[1]، والدقيق المستخلص من هذا القمح طيب جداً ويصنع بواسطته الخبز الأبيض شديد البياض، لا سيما أن الطّواحين التي في هذه المدينة [37 ب] هي في غاية الكمال، وأفضل من تلك الموجودة في القسطنطينية.

وأما الدقيق المستعمل في صنع الصنفين الآخرين فيُؤتى به من فولوس[2] اليونانيّة، حيث الأراضي التي هي من ممتلكات هذا السلطان، وقمحها يتم استهلاكه دائماً من قبل الجيش، حيث يصنعون منه البسكويت في

(1) ستايو (Stajo) وحدةُ قياس قديمة في البندقية، وتستخدم لكيل الحبوب وما شابه، وكانت تساوي في زمن هذه السفارة نحو 83 لتراً.

(2) تقع مدينة فولوس (Volos) وسط اليونان، وقد كانت خاضعةً للعثمانيين منذ عام 1423م وحتى أواخر القرن التاسع عشر.

نيغروبونته[1] ويبيعون منه أيضاً لأهالي راغوزا[2]، وغيرهم ممّن يذهبون في السّفن لأجل نقله، ويُرسلُ إلى القسطنطينية كلّ سنة من هذا القمح من ستّة وثلاثين إلى أربعين كيلو، أي ما يعادلُ خمسة وسبعين ستايو بندقياً، تُودعُ في مخازن مُعدَّة للغرض، وذلك من أجل استخلاص الدقيق حسب الضَّرورة وحسب حاجة القصر، ولا عجبَ إذا كان الباب العالي يستهلك الكثير من الدقيق؛ ذلك أنّه يخصص إضافة إلى القائمين على الخدمة، كما سبق، لجميع السلطانات المتزوّجات، وجميع الباشَوات وكبار المسؤولين والآخرين ذوي المراتب الأدنى حصَّة يوميَّة من الخبز من الكلير أي خزانة المُؤَن أو من أفران السلطان، فَلِلْسلطاناتِ عشرون كيلو من الخبز وللباشَوات عشرة وللمفتي ثمانية وهكذا حتى ينتهي الأمر بكيلو واحد للشخص، ويحدّد هذا الأمرَ الصدر الأعظم ويكون موصوفاً في كتب عند رئيس المخازن أو رئيس الأفران، وكلّ رغيف خبز كبير يشبه [38 أ] الفوكاتشا[3] التي عندنا لكنّه ليّن وسهل الهضم.

وتستهلك كميات كبيرة جداً من الأرز والحمص والعدس وجميع أصناف الحبوب، بحيث إنه في كلّ سنةٍ يتم إحضارها من الإسكندريّة بواسطة الغلايين التي تسافر مرتين في السنة، حيث تمر بالقسطنطينية محمّلةً بالحبوب. ولا تجلبُ هذه الغلايين من ولاية مصر تلك الحبوب فحسب، بل أيضاً كل أصناف التوابل والسكر والمربيات بأصناف مختلفة وبكميات كبيرة لا توصف، لأجل المشروبات والحلويات التي ليست لاستعمال القصر فقط،

(1) نيغروبونته (Negroponte) هو الاسم الذي أطلقه البنادقة على جزيرة وابيه (Euboea) اليونانية، وهي ثاني كبرى جزر اليونان بعد كريت.

(2) تقع مدينة راغوزا (Ragusa) في جزيرة صقليّة جنوب إيطاليا، حكمها القرطاجيون والرومان والبيزنطيون والعرب والنورمان.

(3) الفوكاتشا (Focaccia) هو خبز إيطالي يُطهى في الفرن.

بل أيضاً لمن يصادف وجودهم في البيوت، وإنه لأمرٌ مدهش أن يرى المرء كيف أن تلك المخازن المملوءة تُفرغُ بسهولة. صحيح أن القصر يستهلك التوابل، كما هو حال جميع الأتراك الآخرين، بيد أنهم يتجنبونها لأنها تستثيرُ الرَّغبة في شرب الخمور، في حين أن الخمرَ ليس مشروباً شائعاً عندهم. ومع ذلك فإنه توجد في مخازن القصر من كلّ أصناف التَّوابل والأعشاب الأخرى لأجل الضَّرورات التي قد تطرأ.

ولديهم من مصر كميات كبيرة من التَّمر، والخوخ، والخوخ المجفف، وجميعها يستعملها الخدم والطباخون في الأطعمة محمصة أو مسلوقة على نحو ممتاز، بحيث يجعل ذلك الأطعمة شهية جداً [38 ب].

ويستهلك القصر كميات كبيرة جداً من العسل، وذلك لأنه يستعمل في جميع الأطعمة، ويستعمله جميع الناس، ويؤتى به من الأفلاق وترانسلفانيا ومولدافيا كهدايا للسلطان من حكام تلك الولايات، وكذلك العسل المرسل خصيصاً إلى مطابخ السلطان من حكام كانديا[1] وهو أنقَى وأشهَى.

وأما الزيت الذي يستهلك كثيراً، فيؤتى به من كورونه[2] وميثوني[3] في اليونان، من حيث إنَّ سنجق تلك الولاية ملزم بتزويد تلك الكميات اللازمة، غير أن الزيت المستعمل في مطابخ القصر هو زيت كانديا؛ إذ ليس له رائحة غريبة وهو أجود وأنقَى.

أمّا الزبدة التي تستهلك بكثرة شديدة فيمكن القول إنّها تستخدم

---

(1) تقع مدينة كانديا (Candia) في جنوب اليونان، وبقيت تحت حكم العثمانيين من عام 1622م وحتى أواخر القرن التاسع عشر.

(2) كورونه (Corone) مدينةٌ في جنوب اليونان، حكمها العثمانيون من عام 1500م وحتى أوائل القرن التاسع عشر.

(3) ميثوني (Methoni) مدينةٌ في جنوبِ اليونان، كانت خاضعةً للبنادقة لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان وأطلقوا عليها اسمَ مودونه (Modone)، وفي عامِ 1500م آلت إلى العثمانيين.

في جميع الأطعمة، ويؤتى بها من البحر الأسود من مولدافيا ومن تانا[1] وكافًا[2]، ويضعونها في جلود الثيران الكبيرة جداً، وتُودع في المخازن، وعندما تتوفر عندهم بكثرة فإنهم يبيعون منها في المدينة مما يعود بالفائدة والنفع على القصر، وأمّا الزّبدة الطّازجة فيمكن القول إن ما يستهلك منها القليل، وذلك لندرة ما يصنعُ منها في القسطنطينية [39 أ]، وقلما يستسيغ الأتراك تلك الألبان، وبالأخصّ المسؤولون في القصر، فإنّهم على خلاف المسيحيّين لا يستعملونها، وإنّما الشائع عندهم بكثرةٍ هو اللّبن الحامض فقط، لأنهم يعتقدون أنه يطفئ الظمأ.

وأما فيما يتعلق باللحوم، فإن الباشا الكبير يأمر بصنع البسطرمه، أي اللّحم المتبَّل، للمطابخ الملكيّة، وذلك في فصل الخريف مع اقتراب فصل الشتاء، ويكون هذا اللّحم من الأبقار الحبالى التي تذبحُ لأن لحمها أطيب، ويحفظُ لأجل الشّوربات والأطْعمة كما يفعلُ المسيحيّون، ويصنعون من اللحوم البيضاء النقانق كما نصنع نحن من لحم الخنزير، ويودعُ هذا اللّحم الموضوع على القضبان والمجفف والمملح قليلاً في البراميل ويظل طوال العام، ويأكل منه بلذة لا مَنْ في القصر فحسب، بل عموم الأتراك إذ يستهلك كل مواطن الكثير منه، بحيث لا يهنأ له بال إن لم يتزود منه بوفرة وبما يريحه، ويشرفُ الباشا على هذه الحيوانات ويأمر بذبحها، وعددها في العادة نحو ألفين.

وأما بقيّة اللحوم التي يستهلكها القصر يومياً، فهي على النحو الآتي:

كلّ يوم لَحم ضأن صغير، عدد مئتين.

---

(1) تانا (Tana) هي إحدى المستعمرات الجنويّة القديمة الواقعة على البحر الأسود.

(2) كافًا (Caffa) هو الاسم القديم لمدينةِ فيودوسيا (Feodosiya)، وتقع في شبه جزيرة القرم في أوكرانيا على البحر الأسود، كانت مستعمرة جنوية وأصبحت منذ أواخر القرن الخامس عشر تابعة للدولة العثمانية وبها أهم الموانئ.

خراف أو ضأن في عمر الذبح، عدد مئة.
لحم عجل للخصيان، عدد أربعة.
إوز صغير، عدد ثلاثين.
زوج دجاج، عدد مئة(1). [39 ب]
زوج فراخ، عدد مئة.
زوج حمام، عدد مئة.

وأما السمك فلا يستهلكونه في العادة، ولكن إن كانت للآغاوات رغبة في تناوله، فإن بإمكانهم أن يحصلوا منه على كلّ صنف حيث إن تلك البحار وافرة الأسماك، وتُصطاد بسهولةٍ، بل يمكنهم أيضاً صيدها وهم في بيوتهم.

ولا تعزُّ الفاكهة عند السلطان وعند جميع مَن في القصر، وذلك بسبب وفرة ما يصلهم منها على سبيل الهدايا، كما أنّهم يتحصلون عليها من الحدائق الملكيّة التي هي كثيرة وموجودة في نواحٍ مختلفة على مقربة من القصر، وفي كلّ صباح يؤتى من أطيبها وأحسن ما يتم التقاطه منها.

ويكونُ البستنجي باشي مُلزماً بإرسال الفائض من هذه الفواكه، للبيع في مكان مستقلٍّ مخصصٍ لبيعِ فواكه السلطان، ويحضرُ أثمانها البستنجي باشي أسبوعيّاً ويعطيها لجلالة السلطان، وهذه الأموال مخصصة لجيب السلطان(2)؛ ينفق منها دون حساب لمن يشاء من خرسانه وأقزامه.

(1) ينتهي المخطوط عند هذه الورقة، وأما التتمة اللاحقةُ فهي من النصّ المطبوع في البندقية سنة 1781م.

(2) ويسمّى جيب همايون (Ceb-i Humayun) وكان هذا الحساب الخاص بالسلاطين يتكون من واردات ولاية مصر وواردات أراضي السلاطين والمزارع والمراعي والغابات التابعة للقصر إضافة إلى آقجة الجيب الهمايوني الوارد من مدينة بورصا. انظر: صابان، **المعجم الموسوعي**، ص: 88–89.

[المطابخ السلطانية]

وأمّا أدوات المطابخ فإنها تدهش من يراها؛ فالطناجر والسَّخانات والأشياء الأخرى الضرورية كبيرة جداً، وجميعها تقريباً من البرونز الذي لا يمكن للمرء أن يرى من جنسها ما هو أجمل وما هو معتنى به أكثر منها.

وأمّا الأطباق فجميعها من النحاس المطلي بالقصدير، وجميعها مرتبة ونظيفة تبهر من يراها، ويوجد عندهم من هذه الأطباق أعداد كبيرة جداً، وينال القصر ضرر كبير بسببها؛ حيث إن المطابخ تقدم الطعام لأعداد غفيرة داخل القصر وخارجه، وخصوصاً أيام الديوان العام الأربعة، فإنّ أطباقاً كثيرةً تتم سرقتها، وإنَّه لأمر مدهش. وقد أرادَ الدَّفتردارون في بعضِ الأوقات أن يجعلوا الأطباق من فضّة، بيد أنهم عدلوا عن ذلك بسبب كثرة التكلفة المترِّتبة على ذلك.

وأما الأخشاب التي تستخدم في المطابخ فهي كثيرة جداً، وتباع في القسطنطينية حسب الحمولة، والحمولة الواحدة هي أربعون رطلاً، وأقول: إنه لأجلِ خدمة القصر فقط فإنه يبحر ثلاثون قارباً كبيراً عرض البحر الأسود باتجاه غابات السلطان لأجل نقل الأخشاب، وتتكلف الخزنة القليل لأجل ذلك، لأن الذين يقطعون الخشب ويحملونه هم عبيد.

[ثياب النساء]

ولباس النساء فيما عدا الرأس شبيه بلباس الرِّجال، فهن يرتدين السراويل وينتعلن الأحذية ذات المسامير، وينمن بثيابهن، أي بسراويل الحرير وسترة محشوَّة بالصوف، وأمّا في الشتاء فتكون السترة أكثر سماكة، ولا توجد في

غرف النساء حمامات، ولكنّها توجد في أجنحة من نوافير وسخّانات لأجل الماء السّاخن، وغير ذلك لأجل استخدامهنَّ.

ولا يختلف لباس السلطان عن بقيّة الرِّجال سوى أنه أفخم وأوسع، وتكون الأحذية محززة ومزيّنة برسومات الأزْهار.

وينام جلالة السلطان فوق سرير بفرش من المخمل والقماش المطرّز، ويتدثر في الصّيف بشراشف من طبقتين مطرّزة بالحرير وغطاء، وأمّا في الشّتاء فيتدثَّرُ بأغطيةٍ من فراء السمور[1] والوشق. وينام السلطان معتمراً العمامة، ولكنّها أصغرُ حجماً، وحينما يكون وحدهُ فإن خَدَمهُ يقومون على حراسته، ويتناوبون على ذلك كلّ ثلاث ساعات، ويبقى أحد هؤلاء على طرف السَّرير لأجل تغطية السلطان، وأمّا الآخر فيكون بباب الغرفةِ حيث يضيءُ مصباحان كبيران طوال الليل.

وتدفع الأجور لأصحابها في القصر من الخزنة الخارجيّة، ويتم ذلك كلّ ثلاثة أشهر بواسطة الدَّفتردار الكبير لجميع (الأُوَض)، وذلك في حقائب مختلفة حسب قيمة الأجر. وكذا الأمر بالنّسبة إلى النساء والعجم أوغلان، حيث يدفع لهن أموال كثيرة.

وبعد العيد الكبير، الذي هو بمثابةِ عيد الفصح والكرنفال، فإنّهم يرسلون إليهم الثيابَ والأقمشة دونما أي تأخير، لأنه بخلاف ذلك فإنّ الدّفتردار يتعرض للمتاعب.

وإن مات أحد في القصر ترثه الفرقة، ويتم تقسيم التركة بينهم، باستثناء من يموتُ من كبار الخصيان، حيث يؤول كلّ شيء إلى السلطان، إذ تكون لديهم عادة ثروات وافرة لأجل الهدايا التي يحصلون عليها باستمرار. وإن

---

(1) السمور: دابّة تشبه النمس، منها الأسود اللامع والأشقر، ويتخذ من جلدها الفراء الثمينة. انظر: الزبيدي، **تاج العروس**، مادة: سمر.

مات أحد هؤلاء في أثناء توليه مسؤوليات في الخارج، فإنّه وحسب القانون يؤول ثلثا التّركة إلى السلطان، والثُّلث المتبقي يتم التصرف به حسب وصية الميِّت، هذا في حال لم يرد السلطان أن يستحوذَ على كلّ التّركة، كما هو الحال في أغلبِ الأوقات.

وحينما يمرض أحد في القصر فإنه يؤخذُ إلى المشفى فوق عربة مغطاة، حيث لا يمكن لأي شخص أن يدخلها، وبعد أن يتعافى يتم إعادته إلى مكانه.

وبالإضافة إلى نفقات القصر آنفة الذّكر، فإنّ ثَمَّة نفقات أخرى ينفقها السلطان والسلطانة الملكة والصدر الأعظم وقادة العساكر والدفتردارون، ويهبون حسب ما تقتضي الظروف، وهذه الهدايا هي ثياب رقيقة وأخرى مغطاة بالجلود الثَّمينة، وسُيوف وأقواس وريش وأحزمة وأشياء أخرى تليقُ بذوي المراتب الرَّفيعة، ويقال: إنَّ الخزندار باشي ينفق كل سنة مئتي ألف زكينو لأجل شراء قماش بورصا المذهب، إضافة إلى ما يُنفقه لشراء الأقمشة من البندقية، والهدايا الوافرة ذات القيمة العالية، حيث تهدى الثياب إلى الجميع، وبخاصة لمن يُقبّل ثوب السلطان. والحقيقة أن كلّ شيء يعود إلى السلطان لأنه حين يموت أحدهم فإنّ السلطان يرث تركته، وهكذا بتدفُّق مستمرّ.

ويفعل الصدر الأعظم مثل هذا، سواء أكان في الخارج أو القسطنطينية؛ فحين يسير بالجيش فإنّه يحصلُ بواسطة الخزندار على الكثير من الثياب، بحيث يمكنه أن يهب حين يشاء.

[خروج السلطان]

ويخرج السلطان من السراي متى شاء، عن طريق البر أو البحر، فله قواربه في البحر، ويوجد في كل منها من اثني عشر إلى خمسة عشر مقعداً، وتكون مغطاة بأقمشة مطرّزة بالحرير، وتكون أرضيّة هذه القوارب ووسائدها حيث يجلس السلطان من المخمل ومن الذهب، وأمّا الآغاوات فيبقون واقفين على أرجلهم خارج مؤخَّرة السَّفينة، وأمّا قائد القارب أي البستنجي باشي فيجلس أحياناً بحيث يتمكن من السيطرة على القارب على أحسن وجه، ويتحاور مع السلطان حيث يمكن أن يحمله على الشرِّ وعلى الخير؛ لأنّ السلطان عارٍ من كلّ التجارب، ويتأثر بسهولة بكلّ ما يقال له.

ويجدِّف بهذه القوارب العجم أوغلان المخصصون لهذه المهمّة، وتكون بعهدتهم في مأوى للقوارب خارج السراي.

وأما حين ينتقل السلطان عن طريق البر فإنه يَعْتَلي صهوة جواده، ويخرج من البوابة الرئيسة، وبالأخصّ يوم الجمعة حين يذهب إلى المسجد برفقة الباشَوات وكبار رجالات القصر وعدد لا متناهٍ من الآخرين من غير السراجين، وبعد أن يعتلي صهوة جواده، يومئ برأسه محيياً الشعب فيرد عليه الجميع بالتهليل والهتاف، وأحياناً يُلقي إليهم كميات من الآقجات والزكينو.

ويخدم السلطان كثير من المترجلين، و يأخذ هؤلاء مطالب الناس التي تقدم إليهم، مُتَحرِّين بعضاً من أولئك الذين لا يجرؤون على الاقتراب، وقد وضعوا على رؤوسهم مصابيح مشتعلة وفي أيديهم مطالبهم، فيأخذ السراجون هذه المطالب على الفور، لأنها تقرأ كلها عند وصول السلطان إلى القصر، ثمّ يتخذ قرارات سريعة ضد حتى أكبر رجالات القصر، بحيث إن خروج السلطان للعامة قلّما يسر المسؤولين، لأنهم يخشون أن يلقوا حتفهم

جراء سوء أعمالهم.

[الإسطبلات السلطانية]

ويمتلك السلطان لأجل خدمة جميع من في القصر إسطبلاً من ألف خيل في القسطنطينية، ويتعهد هذه الخيول أمير آخور باشي أي رئيس الإسْطبل وتحت إمْرته أمير آخور آخر، وتوكل إلى هذين مهمَّة رعاية الخيول، بالإضافة إلى توزيعها على من يرافق السلطان. وتوجدُ بالإضافة إلى هذا الإسطبل إسطبلات أخرى كثيرة في القصور الخاصة الأخرى خارج القسطنطينية، حيث يحتوي كل إسطبل على خمسة عشر إلى عشرين جواداً.

وثمَّة إسطبلات حيث توجد خيول من فصائل مختلفة، كتلك الموجودة في بورصا ومنيسا وأدرنه وأماكن أخرى، ويأخذ السلطان من هذه الإسطبلات خيولاً جميلة جداً، إضافة إلى ما يصله على سبيل الهدايا من الجزيرة العربية وبغداد والقاهرة[1]، فضلاً عن الخيول التي تصلُ إلى الإسطبلات السلطانية من الباشوات ومن تركات المتوفّين، وحيث إنه يلزم الكثير من الخيول لأجل صغار الموظفين، فإنّه يؤتى بها من الأفلاق بأسعار زهيدة.

ويوجد بالإضافة إلى الإسطبلات آنفة الذّكر إسطبلات أخرى للبغال والجِمال التي تُستعملُ في الحروب؛ فيجب ألّا يقلَّ عدد الجمال عن أربعة آلاف جمل والبغال ثلاثة آلاف[2]، ذلك أنها تُستخدم لحمل الخيام والصَّناديق والماء وكلّ ما يلزم من الأمور الأخرى، ويستعملها الصدر الأعظم في تنفيذ كل ما يطلبه السلطان، حيث إن السلاطين حين يخرجون إلى الحرب فإنّهم

(1) عند ويذرز: من القاهرة ودمشق وبغداد.

(2) وكان يطلق على المشرفين على البغال العاملة في خدمة القصر اسمَ حربنده، ويعمل في معيتهم نحو مئة وخمسين وكانوا تابعين إلى أمير آخور الكبير. انظر: صابان، **المعجم الموسوعي**، ص: 90.

يحتاجون أكثر من عشرة آلاف من هذه الدواب فضلاً عن الخيول الموجودة في الإسطبلات.

[يوم العيد في القسطنطينية]

ويكون السلطان في أول أيام العيد ملزماً بموجب القانون أن يظهر للعوام وأن يُقبِّلَ كبار الرجالات ثوبه، ففي فجر ذلك اليوم، حيث يكون السلطان مرتدياً ثياباً فخمة بعدد لا متناهٍ من المجوهرات، يخرج من البوابة الثالثة التي يحرسها الخصيان إلى تلكِ الساحة الصغيرة حيث تكون مفروشة هناك سجادة فارسية من الحرير والذهب، وكرسي فاخر جداً حيث يظل السلطان جالساً حتى يفرغ الجميع من تقبيل ثوبه، ويكون الصدر الأعظم بجانبه وينبئه بأسماء هؤلاء لكي يكونوا معروفين لدى السلطان، ويعلمه بإجراءات المراسم، فينهض السلطان قليلاً تكريماً لبعضِ فقهاء القانون، ويحيي آخرين بإيماءةٍ من رأسه تكريماً لهم.

وبعد انتهاء هذه المراسم، يذهب السلطان رفقة الجميع إلى جامع آيا صوفيا، وبعد عودته ينسحب إلى غرفه حيث يتناول الغداء وحده، ويُنْصب في الديوان مائدة وافرة للباشوات وكبار رجالات القصر، وفي الباحة مائدة أخرى لكلّ أولئك الذين رافقوا السلطان.

ويرسل جلالة السلطان لتقديم هدية للصدر الأعظم، وهو ثوب جميل للغاية مغطى بالجلود الفاخرة، كما يقدم السلطان الهدايا من الذهب المرصع بالجواهر لجميع مَن في القصر حسب المراتب بما في ذلك النساء.

ويأمر السلطان في ليالي العيد الثلاث بإقامة الاحتفالات من كلّ أصناف الألعاب النارية، وتصوير فتحِ المدن وما شابه ذلك، ويشترك جلالة السلطان

صحبة السلطانات في هذه الاحتفالات على نحو خصوصي عبر النَّوافذ، وتدعى لهذه الاحتفالات جميع السلطانات، من الخارج اللواتي حين يجتمعن مع الباشوات وكبار المسؤولين الآخرين ليقدموا للسلطان أشياء ثمينة، وكلّ منهم ينافس الآخر فيما يقدِّمه. وتهدي له السلطانات القمصان والسراويل والمناديل وأشياء أخرى مشابهة مما يلزمُ لاستعمال السلطان.

ويجري الاحتفال بهذا العيد في كلّ أرجاء المدينة حيث يشكل المشي في الطُّرقات والمرور بها خطراً كبيراً على المسيحيّين واليهود؛ فالأتراك وبسبب طبيعتهم المتغطرسة ولإكثارهم من شرب النَّبيذ في هذه الأيام يعمدون إلى المزاح الثَّقيل، ويحدثُ ذلك أيضاً في عيد آخر يسمى العيد الصغير.

[القصر القديم]

وبما إنني جئت على ذكر القصر القديم في مواضع مختلفة، وهو ملحق تابع لسراي السلطان وجزء منه، فمن المستحسنِ إفراد بعض الكلام على ماهيّته.

إنَّ القصر القديم واسع جداً، ومحاط كلياً بأسوار عالية جداً، يتجاوز ارتفاعها ميلاً إيطالياً، وله مبانٍ منيعة للغاية حيث يقيم كثير من الأشخاص. ويقع هذا القصر في حي راقٍ من المدينة، وكان أول قصر بناه محمد الثاني[1]

(1) وُلد السلطان محمد الثاني الفاتح في مدينة أدرنه في العشرين من أبريل سنة 1429م، و هو ابن السلطان مراد الثاني، عمد بعد تولّيه الحكمَ إلى قتلِ أخٍ له رضيع اسمه أحمد، وشرعَ بعد ذلك في تنفيذ وصيّة أبيه القاضية بفتح القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، فحاصرها في أوائل أبريل من سنة 1453م ودخلها فاتحاً في التاسع والعشرين من مايو من العام نفسه، وبني له بعد الفتح جامع وجرت العادة بعد ذلك أن كل سلطان يتولى الحكم يتقلد سيف عثمان الغازي الأول بهذا المسجد، واستولى السلطان محمد الفاتح خلال سني حكمه التي دامت واحداً وثلاثين عاماً على مئتي مدينة وكانت مهارته في الأعمال المدنية تعادل خبرته في شؤون الحرب؛ إذ ينسب إليه =

لأجل الإقامة في القسطنطينية مع كلّ حاشيته، وهو موصد بباب واحد ذي شقين يتعهده ويحرسه مجموعةٌ من الخصيان البِيْض، ولا يدخل الرجال أبداً إلى هذا القصر إلا عندما يجلبون إليه الأشياء الضرورية، وحينما يدخلون فلا يرون النساءَ البتَّة.

وتوضع في هذا القصر كلّ نساء السلاطين المتوفّين، أي السلطانات والنساء اللواتي ينالهن سخط من السلطان، بسبب سوء تصرف معه أو مع السلطانات اللواتي يكن في صحبته، كما توضعُ في القصر نساء أخريات من ذوات العيوب، وكذا الأمر نسوة في مثل هذه الأحْوال، وتكون جميع هؤلاء النسوة تحت إمرةِ امرأةٍ عجوز تتولّى مهمّة ضمان أن تكون النّسوة ملتزمات بالطّاعة، وأن يتوفرن على مأكلهن وملبسهن وأجورهن التي غالباً ما تكون أقل بكثير ممّا كنَّ يتقاضينَ من قبلُ. أما اللّواتي كنَّ ملكات وسلطانات فإنهن يعشن عيشة مختلفة عن العوام في مساكن خاصة بهن، وبرغم قلّة تفضل السلطان عليهن، إلا أنهن يتمتعن بخدمة ورفاهٍ مناسب، وبسبب ما يتمتعن به من ثراء، فإن أغلب السلطانات دون الملكات يمكنهن الزواج والخروج إلى العالم ولكن بموافقة السلطان، ويتولى الخصيان الذين يقومون على رعايتهن مع الكخيا قادن في أغلب الأوقات القيام بإجراءات هذا الزواج، ولما يتزوجن يأخذن معهن كلّ ما لديهن من ممتلكات احتفظن بها أو حصلن

= ترتيب الحكومة على نظم جديدة ووضع أول مبادئ القانون المدني والقانون الجزائي، حيث أبدل العقوبات البدنية وجعل عوضها الغرامات المالية، كما يحمد له بناء عدد من الجوامع في القسطنطينيّة وغيرها وإنشاء كثير من المكاتب الابتدائية والمدارس العالية، وكان يقدر العلماء ويحبُّ رجال الأدب. توفي في أوائل مايو من عام 1481م وأعقبَ ولدين أكبرهما بايزيد والآخر جم سلطان. انظر: آصاف، **تاريخ سلاطين بني عثمان**، ص: 49–52، وانظر: المحامي، **تاريخ الدولة العليّة**، ص: 160–178، وانظر:

H. Inalcık, «Mehemmed II», *The Encyclopedia of Islam*, edited by C.E. Bosworth et. al., vol 6 (Leiden: Brill 1990), pp. 978-981.

عليها سرقة، فعند خروجِ إحداهنّ من سراي السلطان، ويُكتشف أن لديها شيئاً ما جميلاً وثميناً فإن القادن تنتزعه منها وتُعيده إلى السلطان، بيد أنه إن كان لدى إحداهنَّ كثير من المال، فإنها تعمد إلى إشهار ذلك على الفور، حتى يطلب يدها رجل ما من ذوي الشأن ويعدها بمهر عال.

وتوجد في هذا القصر كل المرافق الضرورية من حدائق ونوافير وحمامات جميلة للغاية، وللسلطان في هذا القصر جناح مجهَّز بجميع اللّوازم، حيث يذهبُ في بعض الأحيان إلى زيارة الأقارب، وبخاصة الجدة المبعدة[1] التي يمكن القولَ: إنها كانت مهيمنةً بشكل مطلق، لأعوام كثيرة تحت حكم زوجها مراد[2] وابنها محمد[3]، على جميع شؤون الإمبراطورية العثمانيّة.

وتزوَّدُ النساء في هذا القصر بكل ما يلزم لأجل المعيشة بتقشف شديد،

---

(1) يقصد السلطانة صفيّة زوجة السلطان مراد الثالث، وكانت جارية من أصل بندقيّ واسمها (صوفيا بافّو Sofia Baffo)، سباها قراصنة البحر وبيعت للسراي السلطاني وسميت صفيّة، واصطفاها السلطان لنفسه، وتدخّلت كثيراً في السياسة الخارجيّة وساعدت بلادها الأصلية كثيراً، وهي والدة السلطان محمد الثالث. انظر: المحامي، **تاريخ الدولة العليّة**، ص: 266.

(2) وُلد السلطان مراد الثالث في إسطنبول في الرابع من يوليو سنة 1546م، وتولّى الحكم سنة 1574م، وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بعدم شرب الخمر الذي شاع استعماله أيام أبيه السلطان سليم الثاني، فثار الانكشارية لذلك واضطروه لإباحته بمقدار لا يترتب عليه ذهاب العقل، ثمّ أمر السلطان بقتل إخوته الخمسة ليأمن على الملك من المنازعة، وعمد إلى تجديد الامتيازات القنصلية والتجاريّة للدول الأوروبية وبخاصة فرنسا والبندقية، وشهد عهده حروباً طويلة مع بلاد فارس والنمسا، وقد عُرف السلطان مراد الثالث بكثرة ميله لاقتناء الجواري الحسان والعمل بمشورتهنَّ، توفي في أوائل سنة 1595م. انظر: المحامي، **تاريخ الدولة العليّة**، ص: 259–266.

(3) وُلد السلطان محمد الثالث في مارس من عام 1566م، وانتقل للعيش في القصر السلطاني بعد أن تولّى أبوه السلطان مراد الثالث مقاليدَ الحكم سنة 1574م، وفي عام 1582م تم ختانُ الأمير محمد الثالث باحتفالاتٍ مهيبة، وأُرسلَ بعد ذلك بعامين حاكماً على منيسا. ولما توفي السلطان مراد الثالث دعي محمد الثالث إلى القسطنطينيّة وجلسَ على العرش سنة 1595م. وقد شهدَ عهد السلطان محمد الثالث الكثير من الثورات والحروب التي استنزفت خزينةَ الدولة وأضرّت باقتصادها. تُوفّي سنة 1603م.

Şefik Peksevgen, Mehmed III, *Encyclopedia of Ottoman Empire*, pp. 368-370.

وإن لم يكن لديهن مال يستأنسن به، فإن حياتهن تصبح عسيرة في بعض الأحيان، بيد أنهن يجهدن أنفسهن بالعمل فيتحصل لهن كثير من الفائدة، وذلك بمساعدةِ بعضِ اليهوديّات.

[تعدد الزوجات عند الأتراك]

وجديرٌ بالذكر أنّه يمكن أن يكون للأتراك حتى أربع زوجات وما يشاؤون من الإماء، ويكون جميع الأبناء سواء من الزوجات أو الإماء أبناءً حقيقيين وورثةً شرعيّين.

ويمكن للأزواج تطليق الزوجات لأسباب مختلفة مبينة في قوانينهم، وخاصة حين لا يتمكن الزوجان من الانسجام معاً. وتحصل المرأة بعد الطلاق على المهر الذي وُعِدت به، وتترك بيت زوجها مصطحبة معها ما جلبته من مالها إلى البيت، ويمكن للمطلقة أنّ تعود إلى زوجها الأول نفسه، وإن تزوجت من آخر وطُلّقت فيمكنها بعد أن تعود إلى زوجها الأول.

وأمّا الإماء، فإن أنجبن فلا يمكن عندئذٍ بيعهن؛ بل يتم اعتبارهن من أفراد العائلة، ويعشن في كنفها حتى يمُتن، وإن كن عاقرات فيمكن بيعهن وينتقلن من شخصٍ إلى آخر فيما يقتضي لهن نصيبهن من بيوت. ولا بدَّ من التنبيه إلى أن الأتراك يمكنهم شراء الإماء من جميع الديانات والانتفاع منهنَّ في كلّ الأشياء التي يرونها مناسبة باستثناء القتل، وهذا ما لا يستطيع فعله المسيحيون واليهود؛ إذ ليس لديهم حرية شراء آخرين أو أخريات من غير المسيحيين واليهود ذكوراً وإناثاً.

[سوق العبيد في إسطنبول]

ويوجد في القسطنطينية لهذه الغاية سوق عام مغلق حيث يباع ويشترى العبيد من جميع الأصناف كلّ يوم أربعاء بواسطة المزاد العلنيّ[1]، ويمكن لأي كان أن يتوجه إلى هذا السُّوق بكامل الحرية لشراء العبيد، فمنهم من يشتري إماءً كمرضعات، ومنهم من يشتريهن كخادمات، ومنهم من يشتريهن لاستعمالهن إشباعاً لنزواته، ذلك أنّ أولئك الذين يستعملون الإماء للمتعة لا يمكن أن تطالهم يد العدالة وأن يعاقبوا على ذلك، كما سيكون عليه الأمرُ لو أنهم أقدموا على فعل ذلك مع الحرائر من النساء ولا سيَّما التُّركيّات.

وتباع الإماء وتشرى كما الدّواب، إذ تتم معاينتهن حسب شخوصهن وأوطانهن، وتتمّ المعاينة أكثر من مرّةٍ لأجزاء مختلفة اتقاء التغرير، ويشترون الأمهات والإخوان معاً أو بشكل منفصل، وكذا الأبناء، دون أي اعتبارٍ للكرامة والشَّرف والحبّ والأمانة بل فقط وفق ما يراه مناسباً البائع والمشتري.

وحين تكون إحدى الإماء عذراء وجميلة، فإن ثمنها يكون مرتفعاً جداً بالنسبة إلى الأخريات، ولأجل ضمان ذلك، فإن البائع ملزمٌ ليس فقط بإعادة الثمن إن تبيّن أنها غير عذراء، بل يبقى أيضا متهماً بالخداع، ويوجد لهذه السِّلعة سماسرة كما للأشياء العادية والتجاريّة.

ويوجد في هذا السوق الأمير، أي جابي الضرائب، ومهمته جباية الضَّرائب من البائعين والمشترين، وتعودُ هذه الضرائب بالنَّفع الكثير على

---

(1) يُسمى هذا السوق سوق الأسرى (Esir Pazarı)، ويقع على مقربة من البدستان آنفِ الذكر، كما أنه قريبٌ من القصر السلطاني، وقد كان هذا السوق لعدةِ قرون بمثابةِ مركزٍ تجاري لبيعِ الأسرى ذكوراً وإناثاً، ويبدو أن الموضع نفسه كان يشغله سوقُ العبيد البيزنطيّ. انظر:

Madeline C. Zilfi, *Women and Salvery in the Late Ottoman Empire: The Design of Difference*, Cambridge University Press 2010, p.189

الباب العالي.

ولا يحظى الباشوات وغيرهم من المسؤولين، من أعمام السلاطين وأصْهارهم بأيّ حميميةٍ في التعامل مع جلالة السلطان، بحكم صلة القرابة أكثر مما تخوّلهُ لهم مناصبُهم، ويبقون عبيداً كالآخرين، بل أكثر عبودية، إذ يمكن القول: إنه في استخدام النساء لهم يفقدون حريَّتهم من حيث إنهم ملزمون بطاعة السلطانات، والتَّخلُّص، إن كان لديهم، من جميع الإماء والزوجات الأخريات، ويحتملون ببالغ الصبر عيوبهن، ولهذا السَّبب فإن قليلاً من الباشوات من ذوي المكانة الرَّفيعة ومن متوسطي الشأن يرغبون بهذا الزواج، لأنه يترتب عليه تكلفة باهظة جداً وعبوديّة أكثر، ولكن حينما يأمرُ السلطان بذلك، فإنّهم بوصفهم عبيداً يطيعونه ويخضعون لأوامره، وبخلاف ذلك يخسرون حياتهم.

[مراسم الزواج عند الأتراك]

ومراسم الزواج عند الأتراك ليست سوى كتابة عَقْد شرعيّ برغبة المتعاقدين بالزواج في حضرة القاضي، ويحدد في العقد قيمة المهر الذي يقدمه الزوج للزوجة، ويتم ذلك بحضور شهود ثقات وشرعيّين؛ حيث لا يمكن لأي شخص كان في تُركيا أن يكون شاهداً، بل فقط الرِّجال الذين يكونون أحراراً فقط- وفي عمر مناسبٍ- وأن يجيدوا تلاوةَ القرآن[1]، وأن يكونوا معروفين بصلاحهم وأمانتهم[2]، ومع كلّ هذا فإنه يوجد في تركيا وبالأخصّ في القسطنطينية، أكثر من أي مكان آخر في الدنيا، عدد

(1) عند ويذرز: «وباستطاعتهم أداء النّماز» أي الصلاة.

(2) يضيفُ بون إلى هذه الشروط ألّا يكون الشاهد شارب الخمر، لأن شهادة المسلم الذي يشرب الخمر لا قيمة لها.

كبير من شهود الزور، الذين يظهرون بمظهر الشهود الثِّقات ذوي الصِّفات آنفة الذّكر، بل ثمّة من هؤلاء صنف من الأمراء، أيّ أولئك الذين يدَّعون أنهم من نَسْل محمد ويرتدون عباءة خضراء، وكذلك من القُضاة قليلي الشأن المطرودين من وظائفهم، وهؤلاء هم الذين يُقدِمُون لأجل المال على فعل حماقاتٍ كهذه، ومن هنا تولد الجرأة في رفع الضرائب والترزق منها، وبسهولةٍ كبيرة ملحقين الضرر بالمسيحيين واليهود المساكين، وإخوانهم في الدين أيضاً، وذلك حسب الفرصة؛ فالأتراك بطبيعتهم بخلاء ولا يخشون الله، فهم ميّالون عادة إلى الاحتيال ولا يألون جهداً لفعل ذلك ما أمكنهم مع أي إنسانٍ ومن أي مرتبة، ولهذا فإن التَّفاوض معهم خطر، لأن من السَّهل عليهم إيجاد وسيلة خداع للتخلص من أي التزام، حيث إن الحكم القضائيّ يكمن في قوَّة الشهادة التي يحسن أن يدلي بها الرعايا المسلمون فيما يتعلق بتدخل التركي.

[عقيدة الأتراك]

تَقدّمَ الكلام عن المسؤولين الدِّينيّين، ولكي لا أتجاوز أيضاً هذا الأمرَ الشائق فسأتحدثُ بإيجازٍ عن مضمونه، وعن المراسم وأحوال المسؤولين لأجل اختتام هذا التَّقرير.

يؤمنُ الأتراك بالله القادر على كلّ شيء خالق الكَوْن، الكريم، مُخَلّص جميع الصَّالحين يومَ الحساب، وبأن الله في السماء تطيعه الملائكة، حيث طرد من الأزل الأشرار والعصاة الذين أعدّ لهم كما للأشرار من بني آدم – الجحيم، ومن حيث إنهم يقرّون بأبديّة الحياة في الجنَّة والنّار فإنهم ينتظرون ويقرّون ببعثِ الأجساد كي تتحدَ مع الأرواح ساعة ينفخ في ذلك الصُّور

الرَّهيب، الذي ينفخ فيه محمّد يومَ القيامة بأمرٍ من الله تعالى.

ولما كان الأتراك فاقدين للنور الروحي الذي وهب للمؤمنين، فإنهم يعتقدون أن الحياة الأبديّة في الجنّة كونها مكاناً للمتعة والنَّعيم العظيم هي سعادةٌ تقتصر على ملذات الأنفس ومتع الحواس، أي الانتفاع من كلّ الأشياء الطَّبيعيّة على نحو كامل، دون زوالٍ وشبع وجهد، وفي المقابل فإنّ استعمال الأمور آنفة الذكر يكون في جهنّم الأبديّة بطعم شديد المرارة وبغثيان، وهذا جميعه الثواب الذي يُجزى به الصالحون والعقاب الذي يناله الأشقياء.

ويقولون: إنَّ الله قادر على كل شيء؛ وعند خلق الأنفس يكون أجلها مُقدَّراً، ولا يملك المرء بما أوتي من بصيرةٍ دفعَ الموت، ولهذا فإنهم في مخاطر الحروب والحوادث الأخرى هم أكثر جرأةً وشجاعةً وإقداماً[1].

ويقر الأتراك أن السماوات فسيحة جداً، وهي من الألماس والياقوت والفيروز والكريستال، وأن الأرواح المبعوثة ستكون شفافة وطاهرة ورشيقة وقادرة على الانتقال في لحظة من سماء إلى أخرى، والانتقال إلى أطراف بعيدة جداً، لزيارة ومعانقة الزوجات والآباء والأمهات والإخوان والأقرباء الآخرين.

وأمّا عن عرش الله العالم بكل شيء وعن طاعة الملائكة والأنبياء له، كما سيأتي الكلام، فإنّهم يصوّرونَ ما يفوق قدرةَ الحسّ والذَّكاء البشريّ، ويؤكّدون أنه لا يمكن للجميع رؤيته بسهولة، بسبب بريق النور الذي يخرج من عينيه، وبسبب الإشراق العظيم الذي ينبعث من وجهه، وأن الملائكة والأنبياء هم وحدهم من لهم شرف التَّمتّع برؤياه.

هذه هي الأسس الرئيسة لمعتقدهم، التي ينون مسار حياتهم الدنيوية

---

(1) يُضيف ويذرز: لأنهم مقتنعون أن أجلهم مكتوبٌ على جباههم، وأنّه لا يمكنهم تجنبه، ولذا فإن ماتوا فهي مشيئة الله التي يجب أن تتحقق.

الزائلة عليها، لأجل الحصول على السَّعادة الأزلية، التي يؤكدُ النبي أنها مليئة بكلِّ ملذَّات هذه الدنيا، التي ينتفعُ بها المسلمُ بكل التميز التام على نحو غيبيّ ودائم.

ويقولون إنَّ من بين الأنبياء أربعةً هم الأساسيون الذين أرسلهم الله إلى العالَم لأجل تعليم وقيادة وإنقاذ الناس، وجميعهم رجالٌ قدِّيسون ومطهّرون ومنزَّهون، وهم موسى وداود والمسيح ومحمّد، وأنزل الله لكلٍّ منهم، بواسطة الملائكة، كتاباً لكي يتمكنوا من هداية أقوامهم؛ فأرسل إلى موسى التَّوراة، وإلى داود الزَّبور، وإلى المسيح الإنجيل، وإلى محمَّد القرآن. ويقولون إن الأنبياء الثَّلاثة الأوائل لم يضلوا سواء السبيل مع أممهم، لأنهم كانوا عارفين بالقوانين المشرَّعةِ إليهم من الله، ولأن محمداً قد جاء أخيراً لأجل إنقاذ البشرية بشرع حق خال من العيب وصادق، لأجل نيل رضوان الله، فإن الأُمَم ضلَّت وتستمر في ضلالها، عن الصراط المستقيم، متشبثة بما كان عليه الآباء، ولأجل هذا الخلل وحيث إنهم وفق القانون نفسه محرومون من الجنَّة فإنهم سيحتاجون يوم القيامة إن أرادوا الدخول بفضلِ الله بين السُّعداء إلى حماية محمّد الشَّفيع الوحيد والوسيط لدى الله تعالى، ويكون بباب الفردوس في ذلك اليوم الرَّهيب يرجوه الأنبياءُ الآخرون كلٌّ لأجل نجاةِ أُمَّته، وستكون مشيئته مؤثرة ورؤوفة وتشفع لدى الله لأجل نجاة تلك الأمم، بحيث إن الصالحين من المسيحيين واليهود سينالون نصيبَ الانتفاع من الملذات الأزليّة والشَّهوات كما سلف في الحياة الأبدية، ولكن في مكان منفصلٍ وأدنى درجةٍ من مكان المسلمين، كما ستدخل النساء الجنة، ولكن في مكان أدنى من مكان الرِّجال.

ويحظى جميع الأنبياء عند الأتراك بعظيم الإجلال، ويُسمّون موسى كليمَ الله، وداود خليفة الله، والمسيحَ أيضاً روحَ الله، وحينما يتكلمون

عن المسيح فإنهم يقولون كلَّ الخير الذي يمكن أن يقال عن رجلٍ اختاره الله لإنقاذ الناس، ويقرّون بأنه بسبب الحسد عاداه اليهود ولخُبث سريرتهم أدانوه واقتادوه للصلب، ولكن الله أرسل الملائكة في غيمة كثيفة، فاختطفوه ورفعوه إلى السَّماء، وأنه اختلط الأمر على هؤلاء اليهود فأخذوا واحداً منهم وصلبوه مكان المسيح، وأشاعوا أن من صلبوه هو المسيح، الذي كان صحبة إخوانه الأنبياء في الجنّة يبتهج ويتنعم في طاعة الله.

[الوظائف الدينية]

وأمّا فيما يخصُّ المهام المتعلِّقة بدينهم، أو إن شئنا الدقة في القول بطائفتهم، فإن عندهم المفتي، وهو من يلقي على الناس العظات، والذي يمثل رأس السلطة الدينية بالنسبة إلى الأتراك كما هو حال البابا عند المسيحيين، وعادة ما يكون المفتي رجلاً عارفاً بالشرع وخبيراً بشؤون القضاء، يوكل إليه السلطان مهمة الإشراف على جميع الشؤون المتعلقة بالقانون وشرع الله، وبرغم أنه لا يملك سلطة مطلقة على مفتيي الولايَات الأخرى إلّا أنه ولِمَا يمتاز به من دقّةٍ يؤدِّي عمله عند السلطان على النحو الذي يراه مناسباً، وينظم الأمور بسهولة كبيرة وفق إرادته لا سيّما حين لا يختلف معه الصدر الأعظم الذي هو أرفع منه مرتبة وأعلى سلطة.

ويكون تحت إمرة المفتي قاضيا عسكر، وهما قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول، ولكونهما من مرتبةِ أولئك العارفين بالشرع ومهيأين ليصبحا في مرتبة المفتي، فإنهما يُشرفان على جميع القُضاة الآخرين الذين يطوفون بالمدن والنَّواحي الأخرى لأجل القضاء وإرساء العدالة، ويرسلونهم ويبدلونهم سواء انتهت أم لم تنته المدة المعتادة للإقامة وفق

القانون، وذلك بأمر من السلطان على النحو الذي يرغب. وهذه هي مرتبة أولئك الموظفين الذين هم أعلى منزلة من بين الأتراك الذين يحظون بالتقدير، وذلك لأنهم أتراك أصيلون ويكونون أكثر اتحاداً، بسبب ما لهم من قوّة كبيرة لدى السلطان والصدر الأعظم.

ولهؤلاء القضاة أيضاً مراتبهم؛ فيذهبُ أرفعهم منزلةً إلى المدن الرئيسة، ويسمى الواحدُ منهم: ملّا، أي: السيد، وهكذا يتوزع القضاة الآخرون على المدن الأخرى حسب مزاياهم ومراتبهم، ويتقاضون أجورهم من خلال القيام بمهمّة القضاء، حيث إن جميع رسوم القضاء مدوَّنة في الكتب التي عند القاضي عسكر، ويعرف أي الأماكن تعودُ بالنَّفع أكثر من غيرها، والأكيد أن الأجر في حدّه الأقصى لا يتجاوز خمسمئة آقجة في اليوم.

وتتمتع هذه الطَّبقة من بين الطَّبقات الأخرى بميزة، وهي أن أفرادها لا يقتلون، وإن دعت الحاجة إلى ذلك لسبب مّا، وخاصة أن رغبة السلطان المطلقة لا تخضع أبداً للقانون، فإن القتل يتم بحذر شديد وبسرية، غير أنّ هذا الأمر لا يحدث إلا نادراً.

ويتم تغيير المفتي والقاضي عسكر حسب رغبة السلطان، وإن كانت المدَّة المعتادةُ على ما يبدو هي من سنتين إلى ثلاث سنوات حسب ما يتيسر لهم من مقدرةٍ على البقاء مقرَّبين من الصدر الأعظم. ويعتمرُ هؤلاء عمامةً أكبر بكثير من عمائم الآخرين ومطويّة على نحو مختلف، وفي ذلك إشارة إلى وجوب احترامهم أكثر من غيرهم، وإن كانوا يرتدون ثياباً عاديةً كغيرهم، إلّا أنه ثمّة اختلاف كبير في الملبس، لأنهم يستعملون القماش الأبيض المصنوع من وبر الجمال والقماش الفاخر جداً، ونادراً ما يستعملون الحرير.

ووظيفة المفتي الأساسية هي الإجابة عن المسائل المرفوعة إليه، والتي تدور عموماً حول الأحكام المتعلقة بواجب الإيمان، وحول الإجراءات القضائيَّة

والقانونيّة، وتكون إجابة المفتي عن هذه المسائل مقتضبة جداً وبما قلّ من الكلام، وتسمى الفتوى، أي: الحكم، ويمكن أن يُجبرَ على العملِ بالقرارات التي تتضمن فتوى شرعيّة ليس جميع القُضاة والباشَوات فحسب، بل أيضاً السلطان نفسه، لأنهم إن لم يفعلوا فقد باؤوا بغضبٍ من الله(1).

ويستشار المفتي أيضاً في جميع مشاورات الحرب والسّلْم، ذلك أن كل شيء يقومون به إنما هو لأجل انتشار طائفتهم إكراماً لنبيّهم محمّد، وتحظى فتوى المفتي بتقديرٍ كبيرٍ، لأنها تتمتع بتأييد ثابت من قبل جميع القُضاة.

وعند الأتراك موظفون معنيّون بالمساجد يدعون «المتولّون»، وأئمة ومؤذنون، وهم عند المسلمين كالقسيسين والكهنة عند المسيحيين، وجميعهم يتولَّون رعاية وإدارة مساجدهم، ويدعو هؤلاء الناس إلى الصلاة ويؤمونهم ويعلمونهم الصلاة، ويقرأون على قبور الأمْوات ويدفنونهم، وخلاصة القول إنهم يقومون بكلّ ما يلزمُ في شرع الله طاعةً له وللتيسير على الناس.

[الطهارة والصلاة عند الأتراك]

الصلاة في أيام الأسبوع عددها خمس صلوات، وفي يوم الجُمعة الذي هو مثل الأحد عند المسيحيّين ست صلوات، وتؤدَّى هذه الصَّلوات في المساجد والبيوت، بل وفي الشَّوارع أيضاً، وهي صلاة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الشروق(2)، وأما الجمعة فينادى في الناس

(1) كانت قواعد التشريع الإسلامي من الأمور التي تحد من صلاحيات السلطان العثماني، ومن ذلك ما عرضَ له المفتي المشهور أبو السعود أفندي في فتواه المتعلقة بإدارة شؤون الدولة بقوله: «لا يصحُّ الأمر السلطاني فيما لا يقرُّه الشرع». انظر: محمد إبشيرلي، **نظم الدولة العثمانية**، ص: 151.

(2) يذكرُ ويذرز أن الأتراك يصلون خمس صلوات كلّ يوم، وأما الجمعة فيؤدون صلاةَ الشروق أيضاً، ويوردُ ويذرز أسماءَ الصلوات بالتركيّة.

في كلّ الضّواحي بنداءٍ أو نداءين مرتفعين جداً وذلك عوض من الأجْراس، وينادِي المنادي فوقَ برجٍ قريبٍ من المسجد ذي ارتفاعٍ معقول، ومنه تأتي الإشارةُ إلى وقت الصَّلاة، وذلك بواسطة التَّهليل لله ولمحمّدٍ، وهكذا فإن كل واحدٍ إن أراد فإنه يستعدُ لأجل أداء الصلاة أو الذهاب لتأديتها في المسجد، وليس لدى المؤذّنين ساعات ولا يسمعون أجراسها فإنهم يستعملون الساعات الرملية التي يعتمدون عليها لمعرفةِ مواقيتِ الصَّلاة وباقي شؤونهم الأخرى.

ويوجد في المدارس الكبيرة المدرّسون الذين يعلّمون عدداً من التلاميذ العقيدة وشؤون القضاء، ويتقاضى المدرسون أجورهم من واردات المساجد، وكذا هو حال التلاميذ الذين يُدعون: صوفته[1]، والذين غالباً ما يكونون أتراكاً أصليّين، ولهم غُرفهم ومأكلهم وكلّ ما يلزمهم لأجل التعلّم وذلك من واردات هذه المساجد التي وفَّرها السلاطينُ لتعليم هؤلاء التّلاميذ خدمةً للدِّين والدولة.

ويجبُ على من يريد تأدية الصلاة طهارة البدن فحسب، لأنّه من غير المسموح لأي أحد من أي مرتبة كان، ولأيّ حاجةٍ كانت، أن يدخل المسجد أو يصلي وهو على غير طهارة لجنابة أو نحو ذلك، بل يجب عليه أن يتطهر بالاغتسال إن كان جنباً وبالوضوء إن كان غير ذلك، وتوجد لهذه الغاية الحمامات العامة والخاصة بوفرة في جميع المدن وجميع الأماكن، كما توجد

(1) أصلها فارسيّة من سوخته أي طالب علم، وكانت هذه التسمية تطلقُ عند العثمانيين على الطلبة وخاصة المبتدئين في العلوم الطبيعيّة والدينيّة. انظر:

Redhouse, James W, *A Turkish and English Lexicon: Shewing in English The Significations of the Turkish Terms*, Beirut, 1996, p. 1192;

وانظر: سامي شمس الدين، **المعجم التركي التراثي**، ص: 839، وانظر:

Franz Babinger, «Softa» *Encyclopedia of Islam*, edited by M. Th. Houtsma et. al., vol 4 (Leiden: Brill 1934), p. 473.

في المساجد النوافير الجميلة[1] للغاية لأجل خدمة الفقراء[2].

وحينما يتطهرون ويدخلون المسجد، يبدأ الإمام الذي هو بمثابة القسيس– بالصَّلاة، ويقلِّدهُ جميع المحيطين به، وذلك لأن أكثرهم لا يحسن الصلاة بمفرده[3].

وتتألف هذه الصلوات من السجود والقيام والركوع وملامسة الأذنين[4] والرِّجلين والذّراعين بكثرةٍ، وأحياناً الرّأس أيضاً، ويقولون بعض الكلمات تمجيداً لله وللنبيّ، ويؤدون الصَّلاةَ على الأرضِ جالسين حسب عاداتهم على نحو تكون فيه أرجلهم متشابكة. وتوجد في المساجد الحصائر في كلّ مكان، ويوجد في بعض المواضع السجاد المصنوع من الصوف حيث يصلي أناس من عليةِ القوم.

وتختلف هذه الصَّلوات فيما بينها حسب مواقيتها؛ فبعضها طويل وبعضها قصير، ولا تتجاوز مدة أي منها ساعة، باستثناء صلاةِ العشاء في شهر رمضان فهي أطول من سواها، ويرتلون فيها القرآن جهراً، كما تلقى خطبة الجمعة في رمضان أيضاً، وعادةُ الأتراك أنهم إذا أرادوا أن يدعوا الله

(1) لعله يريد الشادروان: وهو حوض ماءٍ له في بعضِ الأحيان نافورةٌ في الوسط، وله حنفيات على جوانبه، ويُستعملُ للوضوء، ويكونُ عادة مرفقاً بالمسجدِ. انظر:

Redhouse, James W, *A Turkish and English Lexicon*, p. 1107.

(2) كانت مناهل المياه وفيرة في المدن، حيث كانت تتخذ شكل منشآتٍ مستقلة في أحواش المساجد (الشادروان) وفي الساحات وتقاطعات الطرق (تشجمه) أو شكل هياكل معمارية مستندة إلى جدران العمائر العامة (السبيل)، وكان عدد هذه المنشآت في الثلث الأول من القرن السابع عشر أكثر من عشرة آلاف منشأة. انظر: يول رو، جان، «الفن العثماني في الأراضي التركيّة»، تاريخ الدولة العثمانية، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، ج2، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع، القاهرة، 1993م ص: 392.

(3) ويعزو ويذرز ذلك لاختلاف اللغة، حيث «إنه بالكاد يستطيع واحد من بين كل عشرين مصل فهمَ ما يرتله الإمامُ، لأنهم يصلون بلغةٍ لا يجيدونها».

(4) يحسب بون التكبير ملامسةً للأذنين، ويحسبُ ويذرز في ترجمته الإنجليزيّة السجودَ تقبيلاً لوجه الأرض!

لأجل الظَّفر بالنَّصر أو لأجل أن تحلَّ اللّعنة على أحد من الثائرين، فإنهم يجوبون الضَّواحي في مواكب دون أن يكون في أيديهم مصابيح أو نحو ذلك، ويضرعون بالدعاء إلى الله طيلةَ اليوم كي تحل لعنة الله على هذا الثائر أو ذاك[1].

وحينما تحلُّ على الأتراك المحن العسيرة، فإنهم عادة ما ينادون في الأماكنِ العامة، ويدعون العوام وذوي الشأن إلى الصلاة في السَّاحات المخصّصة لهذا الغرض، وحينما يجتمعون، فإن بعضاً من الأتقياء الذين يحظون بالاحترام لأجل صلاحهم يلقون الخطبَ المؤثّرة، ويحثون الناس على الثبات والصَّبر وحبِّ الله وخشيته، وفي حال استمرت المحن فإنهم يضيفون صلوات من أربعين ساعة في أربعين يوماً في مساجد السلاطين الرئيسة، ويقوم بهذه الصلوات مجموعة من الرجال الموكلين بخدمةِ المساجد، وهم بمثابة الرهبان عندنا، ولا يختلف هؤلاء في ملبسهم أو عاداتهم عن غيرهم؛ فجميعهم بدءاً بالمفتين ووصولاً إلى هؤلاء الأدنى مرتبة، يرتدون ثياباً عاديةً وباستطاعتهم أن يتزوجوا وأن يكون لهم من الجواري بالقدر الذي يشاؤون لأجل إشباع رغباتهم وشهواتهم.

وللمفتي دَخلُه على نحو مستقل من أراض كثيرة، يمكن لها أن تدرَّ عليه نحو خمسة عشر ألف سلطاني سنوياً، وحينما يصبح مجرداً من مهامه كمفتٍ فإنه يترك دخله إذا ما غضب عليه السلطان لمن يخلفه ويتقاضى مئة آقجة في اليوم، وهو الأجر نفسه الذي يتقاضاه القاضي عسكر حينما يكون على رأس مهامه.

وفي شهر رمضان، الذي هو بمثابة الصوم الكبير عندنا، لا يقومون بأي شعائر سوى الإمساك عن الطعام خلال النهار، ويمكنهم الأكل في اللّيل ما

(1) يزيدُ ويذرز: ويستمر الناس في قول آمين عقب كل دعاء.

طاب لهم من الطعام دون تمييز، ومن أول ليلة في رمضان تشعل في مناراتهم المصابيح التي تظل موقدة حتى الفجر، ويتولى أئمة المساجد مراقبة أولئك الذين يتغيبون كثيراً عن المسجد وخاصة في المساء، والذين يشربون الخمر ويأكلون خلال رمضان، وفضلاً عن اعتبارهم منتهكين للقوانين، فإنهم سيعاقبون بحزم إن وجدوا على تلك الأحوال.

وقد جرت العادة أن يقدم السلاطين وكبار المسؤولين في شهر رمضان وفي المحن الأضاحي لوجه الله من مختلف الحيوانات؛ من العجول والضأن والخراف، ويجري ذلك على نحو خاص، أما السّلاطين فإنهم عادة ما يأمرون بأن تذبح الأضاحي في الطُّرقات العامّة وعند دخولهم المدن، وتوزع لحوم هذه الأضاحي على الفُقراء وعلى الناس وعلى الباشوات أنفسهم وكبار رجالات الباب العالي، ويجري تقديم هذه الأضاحي باستمرارٍ، لأنهم يظنُّون أنهم بهذه الطريقة يطفئون غضب الرب وينالون رضاه.

ونظراً لما يتميز به الأتراك من ورعٍ وتقوى، فإنهم يحملُون في أيديهم المسابح الطويلة جداً في المساجد وفي الطُّرقات، ويسبِّحون بسرعةٍ كبيرة، وكما نقول نحنُ معشرَ المسيحيّين: السلام عليك يا مريم، كذلك هم في كلّ تسبيحةٍ يذكرون اسم الله مقروناً بإحدى صفاته.

[الحج إلى مكة والقدس]

ويحج الأتراك إلى مكة وإلى القدس، فأمّا مكة فلأجل زيارة الكَعْبة التي يقولون إنها من بناء إبراهيم عليه السَّلام، والتي كان محمد يعبد الأصْنام فيها حين كان وثنياً، وهنا يجب العلم أن نبي الأتراك ولد عربياً وثنياً. ويؤكدون أن النبوة جاءته وعمره نحو أربعين عاماً، وبدأ حينئذٍ يعلم الناس القرآن،

وعندئذٍ بدأ الإسلام، ويقولون: إنَّ بعد موته دفن في المدينة، وهي على مسافة ثمانية أيام من مكّة، وهناك ضريح النبي، حيث يزوره جميع من يذهبون إلى الحجّ.

وحينما يذهبون إلى القدس فإنهم لا يذهبون إلى زيارة ضريح المسيح، لأنهم يقولون إنه لم يمت، بل يذهبون لأجل رؤية الأماكن التي كان يتردَّدُ عليها، بوصفه نبياً معجزاً يحيي الموتى ويُشفي المرضى ويجري معجزاتٍ مماثلة.

ويذهبون إلى وادي يوسفات[1] لأنهم يعتقدون أن في ذلك الموضع يكون البعث يوم القيامة، وهناك كثير من الأتراك الذين يزهدون في الدنيا بما فيها، ويهجرون كلَّ ما لديهم، ويعمدون إلى العيش قربَ ذلك الوادي، لأجل التزوُّد بالتَّقوى ولكي يكونوا أقرب للبعث[2].

---

(1) يعرفُ هذا الوادي في التراث العربي بأسماء متعددة مثل وادي جهنم ووادي ستي مريم ووادي النار ووادي سلوان، وهو أحد الأودية المحيطة بمدينة القدس الشريف، وكان يسمى وادي قدرون، مبتدأه على بعد 2،5 كم شمال غربي القدس بالقرب من بلدة الشيخ جراح، ويتجه إلى الجنوب الشرقي حتى يصل إلى زاوية السور الشمالية الشرقية، ويكون منتهاه إلى البحر الميت وهناك يسمى وادي النار؛ انظر: شراب، محمد محمد، **معجم بلدان فلسطين**، دار المأمون للتراث، دمشق 1987م، ص: 278، وقد جاء الرحالة ابن بطوطة على ذكر هذا الوادي: «فمنها [قبّة الصخرة] بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنّم في شرقي البلد، على تل مرتفع هنالك بنية يقال إنها مصعد عيسى عليه السّلام إلى السماء. ومنها قبر رابعة البدوية نسبة إلى البادية، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون إن قبر مريم عليها السّلام بها، وهنالك أيضاً كنيسة أُخرى معظمة يحجّها النصارى، وهي التي يكذبون عليها ويقولون إن قبر عيسى عليه السّلام بها، وعلى كل من يحجّها ضريبة معلومة للمسلمين، وضروب من الإهانة يتحملها رغم أنفه، وهنالك موضع مهد عيسى عليه السّلام يتبرك به» انظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، المطبعة الأزهريّة، مصر، 1928، 1/ ص: 34.

(2) جاء ناصر خسرو على ذكر هذا الموضع في معرض وصفه لبيت المقدس «وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى الساهرة يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثير من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد». انظر: خسرو، ناصر، **سفرنامه**، ترجمة يحيى الخشّاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م، ص: 68.

وبعد أدائهم الحج يرجع هؤلاء إلى مدنهم وإلى بيوتهم، ويدعى الواحد منهم: حَجِّي؛ أي: الحاج، ويعتبر الحجي رجلاً صالحاً ذا إجلال عظيم.

[ختان الأبناء]

وأعظم شعيرة عند الأتراك تخلد في الذاكرة، وتجري بأبهة واحتفالات مهيبة هي ختان الأبناء، وهي شعيرةٌ من شعائر اليهود، إلّا أنها مختلفة عند الأتراك؛ لأنهم يقومون بالختان بعد أن يبلغ الأبناء سن الحادية عشرة، وهم بذلك يتَّبعون النبيّ إسماعيلَ الذي هم أتباعه ومقلِّدوه، ويؤكِّدون أن النبي إبراهيم، الذي يعتبرونه رجلاً صالحاً ومطيعاً لله إقراراً بنعمه عليه، قد ضحى بولديه إسماعيل وإسحق.

ويجرى الختان خارج المساجد بسبب ما ينجم عنه من تدفّق للدِّماء، وتتم دعوة الأقارب والأصْدقاء كعلامة على البهجة والسرور، ويتمّ الختان أيضاً لأولئك الذين يتحوَّلون إلى الإسلام من دياناتٍ أخرى، والذين يرفعون السبابة وينطقون قائلين: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ كإشارةٍ لتخليهم عن عقيدتهم واعتناقهم لعقيدة محمّد.

[التّكايا والجوامع والمشافي]

ولا تخلو المدن والأرياف من التَّكايا، لأجل خدمة السكان وعابري السبيل، وهي مزودة بالنوافير لأجل خدمة الفقراء، كما توجد المشافي والمعاهد لتعليم الشبان القانون، ولتعلم القراءة والكتابة، ولجميع مساجد السلاطين وكبار الرجالات واردات وافرة جداً، لأجل الإنفاق على هذه

المعاهد والمشَافي، وأنبه هنا إلى أنه لا يمكن للسلاطين أنّ يشيدوا المساجد إلا إحياء لذكرى فتح عظيم أو حدث مهمّ، كما لا يمكن للسلطانات تشييد المساجد إلّا إذا كن أمهات للسلاطين الحاكمين، وفي هذه الحالات تشيد المساجد بنفقات لا توصف، ويكرسونها لذلك الحدث باحتفال مهيب.

ولا شك أنّ تلك الجوامع هي أعمال ذات كلفة كبيرة، وأنها مبانٍ ذات جمال وجلال عظيمين، وذلك لكبر المحراب ونظافته حيث تؤدَّى الصّلاةُ، وللأروقة والساحات المزينة بالأعمدة والنوافير الجميلة والفاخرة جداً، والتي تحيط باتساعها الشاسع بالجوامع.

وليس بأقل من ذلك مرافق المعاهد والمشافي، التي تحظى بواردات وافرة جداً، بحيث يمكن مقارنتها بأيٍّ بناء فاخر في الدنيا، وجميع هذه المباني مشيدة من الأحجار المشغولة، وجميع قبابها مغطاة بالرصاص، والأعمدة من الرخام أو من الأحجار الأخرى الثمينة جداً، وأمّا المحاريب فإنها مائلةٌ إلى البياض، ومضاءة عند تأدية الصلاة، وذلك بواسطة مجموعةٍ من الثريات المتدليِّةِ من السّقف على شكلٍ دائريّ، وبحجم حلقة البرميل مع عددٍ من المصابيح الموزَّعة الواحد فوق الآخر بمهارةٍ، مما يجعل مظهرها جميلاً للغاية، ويوجد من هذه ثلاثة إلى أربعة في كلّ مسجد حسب مساحة المسجد وحسب الضّرورة.

ولا توجد في الجوامع مقاعد أو غير ذلك للجلوس، بل يوجد فقط منبر منخفض جداً للخطيب، وفي جانب آخر ثمة موضع منخفض أكثر من المنبر حيث يجلس السلطان حين يدخل لأداء الصلاة، ويجلس الآخرون على الأرض على أرجلهم حسب عاداتهم، ولذا فإن جميع أرضيات المساجد وإن كانت من الأحجار الجميلة للغاية إلّا إنها مغطاة بالحصائر الفاخرة جداً، وخاصة تلك التي يؤتى بها من القاهرة، وتبقى دائماً مرتبة ونظيفة، لأنه لا

يمكن لأحد بما في ذلك السلطان أن يدخل المسجدَ بحذائه، بل يتركه بالباب.

[عادات الدفن والجنائز عند الأتراك]

وفي الحالات الخطرة المؤدية للموت، فإن الأئمة يحضرون عند المرضى، ويواسونهم ويدوّنون لهم وصاياهم، ويُغسّل الموتى ويَكَفّنون في قطعة قماش، ويُغلق عليهم في التوابيت، ثم يُحمَلون إلى قبورهم، ويكون الرأس إلى الأمام، وتوضع العمامة فوق التابوت إن كان الميت ذكراً، وإن كانت أنثى يوضع غطاء الرأس والرِّيش الذي تتزين به.

ويتمّ تشييع الموتى إلى قبورهم من قبل موظفي المساجد والأقارب دون أي نوع من المصابيح، بل تكفي تراتيل المؤذِّنين الذين يذكرون اسمَ الله والنبي ويدعون بالرحمة للمتوفَّيْن، وبعد العودة من المقبرة يعمد الأقارب إلى إعداد مائدة طعام لجميع المشيعين جزاء ما تكلفوه من عناء.

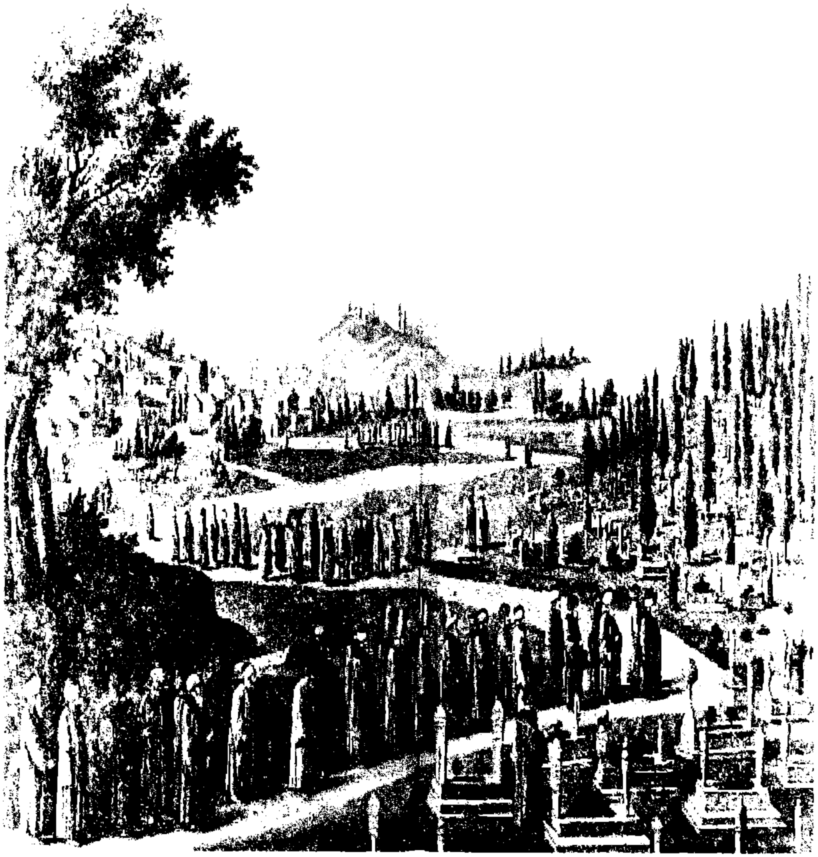
ومدافن السلاطين عادة قريبة من مساجدهم في أضرحة مستقلة، وهي، وإن كانت على الأرض، إلا أن شواهدها ظاهرة للعيان ومغطاة بالأقمشة المذهبة أو المخمل، وتوضع فوق الضريح مع ريشها، ويوجد على طرفي القبر عند الرأس والقدمين شمعدانان كبيران مذهبان ومضاءان، يحملان مصباحين مُتَّقديْن باستمرار ليلاً ونهاراً.

ويوجد دوماً في هذه الأضرحة مؤذنون موظفون يتناوبون على المواقع، ويقرأون معاً أو واحداً واحداً القرآن، ويسبحون بالمسابح، ويذكرون محاسن السلاطين جرياً على عاداتهم في الدعاء للملوك.

ويفعل العديد من الباشوات الأغنياء وذوي الشأن الشيء نفسه، ولكنّ بأبهة أقل وبتكلفة أدنى، وأما الذين ليس لهم أماكن قريبة من المساجد

فيمكنهم أن يُدفَنوا قرب بيوتهم وفي أي مكان شاؤوا في المدينة، على أن تكون ملكية هذا المكان عائدةً لهم.

وأما عامة الناس فيُدفَنون خارج المدينة في مقابر معدة لهذه الغاية، ويدفَنون على النحو الذي يدفِن به اليهود موتاهم، إذ يكون للقبر أحجار ترتفع عن الأرض يكتبون عليها اسم المتوفى وموطنه ولقبه وكل ما يشاؤون.



رسم يصور مراسم الدفن في مقبرة أيوب في إسطنبول

المصدر:

D'Ohsson, *Tableau Général de l'Empire Othoman*, Vol. I, after p. 248.

وليس عند الأتراك أديرة أو محافل دينيّة، لأنهم جميعاً يُعدّون للجيش، وقليل منهم من يجيد القراءة والكتابة؛ فباستثناء العاملين في قصر السلطان، وليس جميعهم وبعض الموظفين لدى المسؤولين، وأولئك الذين يتلقون تعليمهم في المحافل والمعاهد المخصصة لهذا الغرض، وجميع مراتب العارفين بالقانون، أي القُضاة، والشؤون المكتبية، أي كُتَّاب العدل والمحاسبين، أقول: إنه باستثناء هؤلاء يمكن القول إنَّ الباقين هم جهلة كلياً، بل إنه يحدث في بعض الأحيان أن يكون في الديوان أحد الباشوات من أولئك الذين لم يتعلموا في القصر، وتجده لا يعرف القراءة والكتابة، بيد أن ثمة رجالاً يتعلمون على أيدي هؤلاء الباشوات ليس عمل الختم السلطاني فحسب، بل يجيدون أيضاً كتابة بعض الكلمات مع الختم، تأكيداً لمشيئة السلطان على الورق، ومن يجيدُ القراءة والكتابة بين الأتراك يعتبر أُستاذاً، ويحظى بالتقدير أكثر من غيره.

[أسلوب حياة الدراويش والزهاد]

وثمة أناس يعيشون خلاف المألوف، ويُدعَوْن بالدراويش أي المساكين، وهؤلاء يلبسون على نحو رثٍّ ومُعدم جداً، ويضعون على رؤوسهم القبعات، ويقتاتون بالتسوُّل، وينامون في باحات المساجد ونحو ذلك من الأماكن، ويعيشون دائماً هائمين حباً في الله، ويروّجون خداعاً لهذه العقيدة: أنه لا يمكن للمرء أن يبلغ تمام محبة الله الحقة إلا بواسطة الحب البشري والدنيوي، وأنهم فقط لأجل هذا يعيشون في هذا العالم هائمين في الحب والعشق، لكي يكونوا كذلك في جنّة الله، وبخرافتهم هذه المتدثِّرة بعباءة القدسية يمكنهم العيش بالخداع أفضل حالاً من غيرهم.

وبالإضافة إلى هؤلاء، لا تخلو البلاد من الزهاد الذين يعتزلون الناس، ويعمدون إلى العيش في أماكن نائية مع زوجاتهم وجواريهم، وبسبب عزلتهم هذه فقط فإنهم يكتسبون تصور الناس لقداستهم.

ولا تتم متابعة النساء فيما يخص الشعائر الدينية، وذلك لأنهن لا يدخلن المساجد أبداً، وإن أردن أداء الصلاة في وقتها حين ينادي المؤذن فإنهن يؤدِّينها إن شئن في بيوتهن، ولكنهن يخضعن للمراقبة الشديدة لأن أئمة الضواحي مُلزَمون بمتابعة جميع البيوت، وأن يتدبروا ويتعقبوا بشكل جيد جميع تصرفاتهن، وإن وقعوا منهن على سوء أو ريبة، فإن عليهم إبلاغ أزواجهن بذلك كي يطلقوهن أو يبلِّغوا آباءهن وأقاربهن كي يتدبروا أمرهن، ومع كل هذا، وبرغم أنه لا يمكن للنساء التعامل مع الرجال من غير الآباء والأزواج والإخوان، ويمكثن في أجنحة مستقلة، ويخرجن مُنقّبات، إلا أن التُّركيّات شديدات الميل إلى الشهوات وخائنات جداً، وذلك بسبب ما لديهن من فسحة عند غياب أزواجهن في الحرب؛ فيخرجن للحمامات ويذهبن منقبات، وهذا هو الأهم، ولأنه في أسوأ الظروف لا يمكن لهن سوى أن يُطلَّقن أو يُعاقبهنَّ القاضي عقاباً يسيراً، هذا في حال ارتكبن خطيئة مع الأتراك، أما إن كان مع غيرهم من أبناء الديانات الأخرى فإنهن يُعاقبنَ بالموت، حيث يتم إرسالهن إلى البحر وإغراقهن سراً.

ولا يجوزُ للمُسلمين، التزاماً بمبادئ قرآنهم، أن يتجادلوا فيما بينهم أو مع غيرهم من أصحاب الدِّيانات الأخرى حول ركائز عقيدتهم، بل إنهم ملزمون بإقناعِ الجميع وتحفيزهم والتوسُّل إليهم لاعتناقها لأجل نجاة الأنفس، وإن لم يُفلحوا بهذا الأسلوب، فإن عليهم أن يتدبَّروا الأمر بحد السَّيْف.

[الرّافِضَةُ]

ويوجد من بين أتباع الطائفة المحمدية جماعة يُدْعون الروافض، وهم بمثابة اللوثريين(1) عند المسيحيين، أو بالأحرى المنشقين، ومن بين هؤلاء فُرس وعجم وأكراد، وهؤلاء وإن كانوا من الطائفة المحمدية إلّا أنهم يعيشون وفقَ الشريعة التي تركها لهم عليّ، التي هي مطابقة في أكثرها لشريعة محمد، ولكن ليس في كلّ شيء، بل ثمة كثير من المبادئ المختلفة، فالفرس يُسمّون الأتراك منشقين، ويَنْعت الأتراك الفرسَ بالشيء نفسه، بيد أنه يحدث غالباً أن يرى المرء ويسمع عن فُرس يتحولون أتراكاً وأتراكٍ يتحولون فرساً.

ولا يعيش تحت شريعة محمد الأتراك والفرس فحسب، بل أيضاً التتار والعرب والمماليك وهم الهاجريون، والمشرقيون والبربر وأغلب الأثيوبيين، وإن كان لا يزال الناس البسطاء، وخاصة في الجزيرة العربية يتبعون شرعة حيدر، وهو سلف علي وخلف محمد، والذي وإن كان لم يغير الشريعة في جوهرها، إلا أنه بدل فيها وأباح فيها الشهوات والفوضى، ويبدو أنه لأجل ذلك اعتنقها بعض الناس الذين كرسوا حياتهم للعيش في الأرياف وإلحاق

(1) اللوثريّون هم أتباع مارتن لوثر (Martin Luther)، ولد في العاشر من نوفمبر سنة 1483م في مدينة أيسلبن (Eisleben) في ألمانيا، ويعد رائد الإصلاح الديني في القرن السادس عشر ومؤسس المذهب البروتستانتي. سافر إلى روما في أواخر سنة 1510م وكان لذلك بالغ الأثر في نفسه لاكتشافه فساد الكنيسة الكاثوليكية. بدأ لوثر نشاطه الإصلاحي سنة 1517م حيث علق على بابا كنيسة فيتنبرغ (Wittenberg) احتجاجه الشهير الذي ضمّ خمساً وتسعين مسألةً دينية ضد صكوك الغفران التي كانت تصدر سداً لحاجات الكنيسة المالية، وتتلخصُ أفكار لوثر في رفضهِ للسلطة البابويّة وصكوك الغفران، وإدانته للوساطة الدينية التي يقوم بها رجالُ الكنيسة بين العبدِ وربّه. توفي لوثر في الثامن عشر من فبراير سنة 1546م في المدينة التي وُلِدَ فيها. انظر:
E. G. Ru, «Luther, Martin» *Encyclopedia Britannica*, vol. 14, (U.S.A: W. Benton 1966), pp. 436-443

كل أشكال الأذى بإخوانهم من البشر[1].

(1) من الواضح أن بون يخلطُ بين الفرق الإسلاميّة؛ فحيدر هذا ليس خليفة النبي محمد، والذين تولّوا الخلافة بعد وفاةِ الرسول هم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وأمّا حيدر فقد يكون الاسمَ الذي يطلقه الشيعة على علي بن أبي طالب، ويعني الأسد، وقد يكون المراد هو الشيخ حيدر (ت 1488م) خامسُ شيوخ الطريقة الصفوية التي أسسها الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي (ت 1334م)، وقد كان له أتباعٌ في تركيا، وكانوا يُسمّون قيزل باش، أي أصحاب الرؤوس الحمراء، لأنهم كانوا يعتمرون ما يشبهُ العمامةَ الحمراء وفيها اثنتا عشرة طيّة كإشارة إلى أئمة الشيعة الاثني عشر. انظر:

R. M. Savory, «Haydar», *Encyclopedia of Islam*, edited by B. Lewis et. al., vol 3 (Leiden: Brill 1971), pp. 315-316

المصادر والمراجع

- آصاف، عزتلو يوسف بك (ت 1938م)، **تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن**، تقديم محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة 1995م.
- أرسلان، شكيب، **تاريخ الدولة العثمانية**، تحقيق حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير ودار التربية، دمشق بيروت 2001م.
- أورطايلي، إلبر، **الخلافة العثمانية التحديث والحداثة**، ترجمة عبد القادر اللي، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت 2007م.
- أوزتونا، يلماز، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول 1988م.
- أوغلى، أكمل الدين إحسان (إشراف وتقديم)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلاميّة، إسطنبول 1999م.
- إينالجيك، خليل، **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ترجمة محمد الأرناؤوط، ط 1، دار المدار الإسلاميّ، بيروت 2002م.
- بركات، مصطفى، الألْقاب والوظائف العثمانية: **دراسة في تطوّر الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات 1517 1924م**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2000م.
- ابن بطوطة، **تُحفة النظار، في غرائب الأمْصار وعجائب الأسْفار**، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهريّة، مصر 1928م.
- بيَّات، فاضل، **الدولة العثمانية في المجال العربي: دراسة تاريخية في الأوضاع**

الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً مطلع العهد العثماني أواسط القرن التاسع عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007م.

- التيفاشيّ، أحمد بن يوسف (ت 651هـ)، **أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، الهيئة المصرية للكتاب، 1977م.
- جب، هاملتون وبوين، هارولد، **المجتمع الإسلاميّ والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى**، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، الطبعة الأولى، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق 1997م.
- جلبي، كاتب، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، دار الطباعة المعمورة، القسطنطينية 1729م.
- خسرو، ناصر، **سفرنامه**، ترجمة يحيى الخشّاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م.
- الريحاوي، عبد القادر، **المنشآت الاقتصادية التاريخية ببلاد الشام**، منشورات وزارة الثقافة السوريّة، دمشق 1979م.
- سامي، شمس الدين، **المعجم التركي التراثي**، مكتبة لبنان، بيروت 1989م.
- شراب، محمد محمد، **معجم بلدان فلسطين**، دار المأمون للتراث، دمشق 1987م.
- الشناوي، محمد عبد العزيز، **الدولة العثمانية: دولةٌ إسلاميّة مفترى عليها**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1980م.
- صابان، سهيل، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 2000م.
- الغزي، بدر الدين محمد (ت 982هـ)، **المطالع البدرية في المنازل الرومية**، تحقيق المهدي عيد الرّواضية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2004م.

– فليت، كات، **التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية**، تعريب أيمن الأرمنازي، الطبعة الأولى، العبيكان، المملكة العربية السعودية 2004م.
– القدّوري، عبدالمجيد (تنسيق)، **التاريخ والدبلوماسية: قضايا المصطلح والمنهج**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الرباط 2003م.
– لويس، برنارد، **أين الخطأ: التأثير الغربي واستجابة المسلمين**، ترجمة محمد عناني، تقديم ودراسة رؤوف عباس، الطبعة الأولى، دار سطور، القاهرة 2003م.
– مانتران، روبير (إشراف)، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع، القاهرة 1993م.
– المحامي، محمد فريد بك (ت1337هـ/1919م)، **تاريخ الدولة العَلِيَّة العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت 1981م.
– المعنيّ الثاني، الأمير فخر الدين، **رحلة الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني إلى إيطاليا**، حقّقها وقدّم لها قاسم وهيب، دار السويدي والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، أبو ظبي – بيروت 2007م.
– يكرمي سكز، **سفر إلى نحو فرنسا**، مخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2296.

المصادر والمراجع الأجنبيّة

- Barozzi, Nicolò e Berchet, Guglielmo (1856), *Relazioni degli Stati Europei Lette al Senato dagli Ambasciatori Veneti nel Secolo Decimosettimo*, Vol. 1, Venezia.

- D'Ohsson, *Tableau Général de l'Empire Othoman*.

- Della Lega, Alberto Bacchi (1969), *Scelta di Curiosità Letterarie Inedite o Rare del Secolo XIII al XIX: Viaggio a Costantinopoli di Tommaso* Alberti, Bologna.

- *Dizionario Biografico degli Italiani* (1969), Istituto Della Enciclopedia Italiana Fondata da Giovanni Treccani, Vol.11, Roma.

- Dursteler, Eric. R (2006), *Venetians in Constantinople, Nation, Identity, and Coexistence in the Early Modern Mediterranean*, Maryland, the Johns Hopkins University Press.

- F.Taeschner (1925), *Alt-Stambuler Hof- und Volksleben. Ein Türkisches Miniaturenalbum Aus Dem 17.* Jahrhundert, Hannover.

- Faroqhi, Suraiya (2004), *The Ottoman Empire and the World Around it*, London, I.B. Tauris.

- Francesca Luchetta (1989), *"La Scuola dei 'Giovani di Lingua' Veneti nei Secoli XVI e XVII", Quaderni di Studi Arabi*, Vol 7.

- Gábor Ágoston and Bruce Masters (2009), *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, New York, Facts On File.

- Gallicciolli, Giovanni Battista (1795), *Delle Memorie Venete Antiche, Profane ed Ecclesiastiche*, Venezia, C. Fracass.

- Giacomo Devoto, Gian Carlo Oli (2004), *Dizionario della Lingua Italiana*, Firenze, Le Monnier.

- Göçek, Fatma Müge (1990), *Encountering the west, French embassy of Yirmisekiz Çelebi Mehmet Efendi 1720-1721*, IIIrd congress on the social

and economic history of Turkey: Princeton University 24-26 August 1983/ proceedings edited by Heath W. Lowry and Ralph S. Hattox, Istanbul, Isis Press.

- Greaves, John (1650), *A Description of the Grand Signour's Seraglio, or Turkish Emperours Court,* London, printed for Jo. Ridley, at the Castle in Fleet street by Ram-Alley.

- Halil Inalcık (1994), *An Economic and Social History of the Ottoman Empire*, Great Britain, Cambridge Press.

- Lewis, Bernard (1963), *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, Norman, University of Oklahoma Press.

- Lewis, Bernard (1982), *The Muslim Discovery of Europe*, London, Weidenfeld and Nicolson.

- M. P. Pedani Fabris, Maria Pia Pedani (2010), *Inventory of the "Lettere e Scritture Turchesche" of the Venetian State Archives*, Leiden, Koninklijke Brill NV.

- Madeline C. Zilfi (2010), *Women and Slavery in the Late Ottoman Empire: The* Design *of Difference*, Cambridge University Press.

- Paul Rycaut (1675), *the History of the Present Day of the Ottoman Empire*, London, printed for John Starkey and Henry Brome.

- Pedani, Maria Pia (1996), *Relazioni di Ambasciatori Veneti al Senato, vol. XIV, Relazioni inedite, Costantinopoli (1508-1789),* Padova.

- Penzer, Norman Mosley (1937), *The Harem, An Account of the Institution as it Existed in the Palace of the Turkish Sultans with a History of the Grand Seraglio from its Foundation to the Present Time*, Philadelphia, J.B. Lippincott Company.

- Preto, Paolo (1975), *Venezia e i Turchi*, Firenze, Sansoni.

- Preto, Paolo (2010), *I servizi segreti di Venezia: Spionaggio e controspionaggio ai tempi della Serenissima*, Milano, il Saggiatore S.P.A.

- Redhouse, James W.(1996), *A Turkish and English Lexicon: Shewing in English the Significations of the Turkish Terms*, Beirut, Librairie du Liban.

- *Relazioni degli Stati Europei Lette al Senato dagli Ambasciatori Veneti nel Secolo Decimosettimo*, Raccolte ed Annotate da N. Barozzi e G. Berchet, Turchia, Vol. Unico, Parte 1, Venezia 1871.

- Sagredo, Agostino e Berchet, Federico (1860), *Il Fondaco dei Turchi in Venezia, Studi Storici ed Artistici*, Milano, G. Civelli.

- Shaw, Stanford, *History of The Ottoman Empire and Modern Turkey,* Cambridge University, London.

- Shay, Mary Lucille (1978), *The Ottoman Empire 1720-1734 as Revealed in Despatches of the Venetian Baili*, USA, Greenwood Press.

- Warner G. Rice (1928), *"The Grand Signiors Serraglio: Written by Master Robert Withers"*, *Modern Language Notes,* Vol.43, No. 7.

الكشّافات التحليليّة

الألقاب والمناصب والرتب والمهن والحرف وما يتّصل بذلك

المباني والمرافق السلطانية والعامّة والأدوات

فهرس الأطعمة والمأكولات والمشروبات

فهرس الأدوات والأواني

الأعياد والمناسبات والاحتفالات

الملابس والثياب والأقمشة

ألفاظ القتال والأسلحة ومتعلّقاتها

الحلي والمجوهرات والأحجار والعملات

الحيوانات

الأمم والجماعات

الأعلام

الأماكن

سَراي السَّلطان..

يعدّ «سراي السلطان» من بين النصوص الأوروبية القيّمة التي تناولت تفاصيل الدولة العثمانية أوائل القرن السابع عشر. يتضمّن النص وصفاً ضافياً للقصر السلطاني وأجنحته، وتفصيلاً للوظائف العثمانيّة، كما يسهب في بيان أحوال الأتراك وعوائدهم. ويأنس القارئ في ثنايا النص إشارات غنية، حول الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، للدولة آنذاك.

يتضمن الكتاب دراسة تمهيدية حول النص الإيطالي وعلاقات الدولة العثمانية بأوروبا، والبندقيّة على وجه الخصوص؛ وعن الدبلوماسية العثمانيّة مطلع القرن السابع عشر. ولهذا الكتاب أهميّة تتمثل في كونه يوثّق انطباعات الغرب المسيحي عن الشرق الإسلامي، أوائل القرن السابع عشر، إضافة إلى دقّة المعلومات الواردة فيه.

9 789948 173069

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة